

دراسات منهجية
في
علم البديع

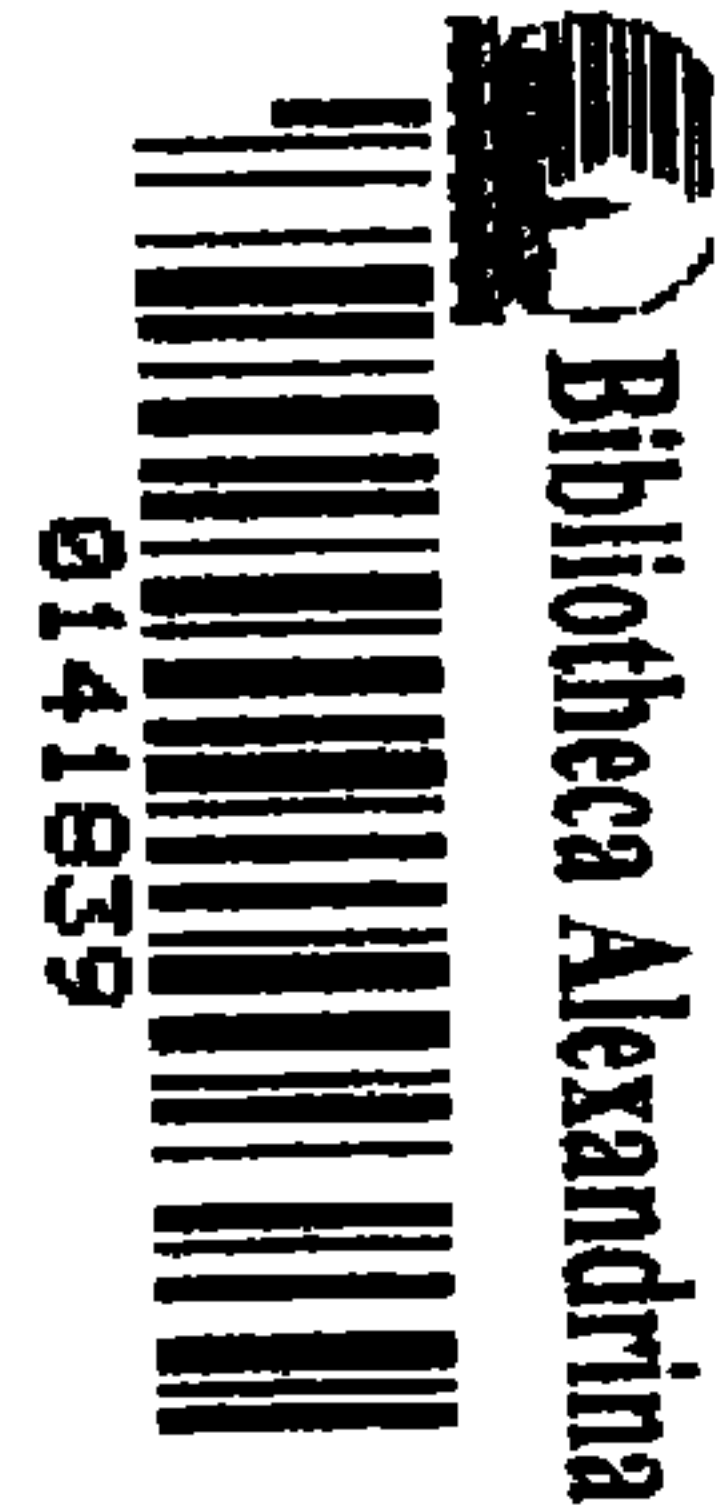
دكتور الشحات محمد أبو سنين

أستاذ البلاغة والنقد

كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م



دراسات منهجية
في
علم البدع

دكتور الشحات محمد بوسني

أستاذ النقد والبلاغة

كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٩٤ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين ، سيدنا محمد النبي العربي الأمين ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

أما بعد ...

فقد صنف المتأخرون البلاغة في ثلاثة علوم : المعاني والبيان والبديع ، وجعلوا علم البديع مختصا بوجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة ، وبهذا أنزلوه منزلة دانية بعد علمي المعاني والبيان ، ووضعوه في ذيل البلاغة ، وحكموا على مباحثه بأنها محسنات عرضية لا ذاتية ، وحلوا للتزيين والتجميل ، لا دخل لها في بلاغة الاسلوب ، ولا تتوقف عليها مطابقتها لمقتضيات الأحوال .

وقد صادف هذا الحكم رواجاً لدى أصحاب الشروح والحواشي والتقاريرات ، وشايهم بعض الدارسين والباحثين ، وتمخض ذلك عن انصراف الهمم عن تحصيل مباحث هذا العلم وتوقف الأذهان عن بحث أسرارها ، وسبر أغوارها ، فخلت معظم الكتب البلاغية الحديثة من مباحثه ، واقتصر بعضها على عرض الذائع من ألوانه عرض الزاهدين .

وفي هذا غمط لمكانة هذا العلم وحط لقدره وشأنه ، وهو الذي احتل المنزلة العالية لدى السابقين ، وكثيراً ما أطلقوا اسمه على الفنون البلاغية كلها ، بل إن الدراسات المنهجية في البلاغة العربية بدأت بدراسة فنون البديع وألوانه على يد « ابن المعتز » في كتابه « البديع » .

ومن تتبعى فنون البديع في مصادرها المختلفة رأيت أن هذه الفنون قد كثرت وتشعبت وتعددت أسماءها وتداخلت صورها واختلط بعضها ببعض حتى غشا حصرها واستيعابها أمرا صعبا يحتاج الى جهد شاق ، اذا ينبغي ان تضم في أبواب أو فصول يتضمن كل واحد منها مجموعة من الفنون البديعية التي تشترك في عرض عام ترمى اليه، فيتم من خلال ذلك حصر فنون البديع في نطاق محدد ييسر درستها ، ويعين على نقدها وتقييمها ، المعنوية بما له قيمة في النمدل الأدبي وطرح ما لا جدوى من ورائه .

ومن هنا كان هذا الكتاب « دراسات منهجية في علم البديع » الذي القرت فيه منهجا يسهم في النهوض بهذا العلم ويجلى مكانته الرفيعة بين علوم البلاغة ، وبنيته على تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة .

وفي التمهيد تحدثت عن نشأة البديع وتطوره عبر العصور المختلفة .

وفي الفصل الأول تناولت بالتحليل مجموعة من الفنون التي تلتقى في العمل على تناسب الاسلوب ، وائتلاف عناصره ، وربط أجزائه بعلاقات قوية ، وهي : الطباق — والمقابلة — ومراعاة النظر — والارصاد — والمزاوجة — والسجع — ومواضع التائق في الاساليب .

وفي الفصل الثاني تكلمت عن مجموعة من الفنون يلحظ فيها الإيهام والتخييل وهي : التورية — والمشاكلة — وحسن التعليل — والتجريد — وتأكيد المدح بما يشبه الذم — وتأكيد الذم بما يشبه المدح — والجناس .

وفي الفصل الثالث وقفت أمام مجموعة من الفنون يتجلى فيها المعنى بين الاجمال، والتفصيل ، والجمع والتفريق ، ونحو ذلك . وهي : اللف والنشر — والجمع — والتفريق — والتقسيم — والجمع مع التفريق — والجمع مع التقسيم — والجمع مع التفريق والتقسيم .

وفي الخاتمة نطقت الحديث عن مكانة البديع في الدراسات

البلاغية ، وأهميته في بلاغة الأساليب ، فانها عنه بما وضم به من تنقسم
لا أساس لها .

وقد ركزت في تناولى لفنون البديع على تحليل مسائلها ، والتدقيق
عن سر بلاغتها ، وبيان أثرها في المعنى وقيمتها في الأسلوب ، مع الاكثار
من الشواهد الأدبية التي توضح هذه الجوانب .

واققتصارنا على هذه الفصول ودا درسناه فيها من فنون لا ينحى
حصر فصول البديع أو فنون كل فصل ، إنما ذلك بمثابة إشارة على
الطريق بقدر ما هيأت الظروف ، وهن الميسور تسمية نصوص ، أخرى وضم
ألوان فيها ، أو إضافة ألوان أخرى الى الفصول التي سميناها .

وآرجو أن يكون هذا الكتاب مزيلا لبعض ما تراكم من غبار على
فنون البديع ، ودمينا على كشف لطائفها وتذوق حسننها وجمالها ، وباعثا
على مواصلة البحث في آفنانها الوارفة .

وعلى الله تصد السبيل

وما ترفيقى الا بالله ، عليه توكلت وأليه أنيب

طحانوب - قلوبية

في ١٤ / ٤ / ١٤١٤ هـ

١ / ١٠ / ١٩٩٣ م

دكتور

الشحات محمد عبد الرحمن أبو ستيت

أستاذ البلاغة والنقد

بكلية اللغة العربية بايتاي البارود

تمهيد

البديع : نشأته وتطوره

معنى كلمة بديع :

جاء في لسان العرب : بدع الشيء يبدعه بدعا ، وابتدعه : أنشأه
وبدأه ، وبدع الركبة : استنبتها وأحدثها •

والبديع والبدع : الشيء الذى يكون أولا • وفى التنزيل (قل
ما كنت بدعا من الرسل) (١) ، أى ما كنت أول من أرسل ، قد أرسل
قبلى برسول كثير •

والبديع : المحدث العجيب ، والبديع : المبدع ، وأبدعت الشيء :
اخترعته لا على مثال • وسقاء بديع : جديد ، وحبل بديع جديد •

• وابدع الشاعر : جاء بالبديع (٢) •

وعلى هذا فالكامة تدور فى اللغة حول معنيين :

١ — المحدث والجديد الذى أنشئ على غير مثال سابق •

٢ — العجيب والغريب الذى يكون فيه حسن وطرافة •

وقد وردت هذه الكلمة فى الشعر القديم وجاءت فى القرآن الكريم
وفى الحديث الشريف بهذين المعنيين •

فنراها فى قول الأفوه الأودى :

ولكل ساع سنة ممن مضى تسمى به فى سعيه أو تبدع

(١) انظر آية ٩ .

(٢) ينظر لسان العرب — مادة : بدع .

وفي قول عدى بن زيد :

فلا انا بدع من حوادث تعترى
رجالا غدت من بعد بؤسى بأسعد

وفي قول حسان بن ثابت :

قوم اذا حاربوا ضروا عدوهم
أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير مصدثة
ان الاخلاق فاعلم شرها البدع

وجاء لفظ « بديع » في القرآن الكريم في آيتين :

قوله تعالى : (بديع السموات والأرض واذا قضى أمرا فانما يقول
له كن فيكون) (٣) * وقوله تعالى : (بديع السموات والأرض أنبى يكون
له ولد ولم تكن له صاحبة) (٤) *

ومعناه : أنه أنشأها وأحدثها على غير مثال سابق (٥) *

وجاء لفظ « بديع » في الحديث الشريف في قوله صلى الله عليه
وسلم : « ان تهامة كبديع العسل حلو أوله حلو آخره » (٦) *

وظل استعمال هذه الكلمة يدور حول معانى : الجديد والمحدث
والعجيب والغريب في عصر صدر الاسلام والعصر الأموي وجاءت على
اللسنة كثير من الشعراء ، ومن ذلك :
قول عمر ابن أبي ربيعة :

(٣) البقرة آية ١١٧ .
(٤) الأنعام آية ١٠١ .
(٥) ينظر معجم الفاظ القرآن الكريم ١/٨٣ .
(٦) لسان العرب - مادة بدع .

فأنتها فأخبرتها بعذرى ثم قالت : أتيت أمرا بديعا
وقول كثير :

وحاجة نفسي قد قضيت وحاجة تركت وأمرا قد أصبت بديعا
وقول الفرزدق :

أبت ناقتى الا زيادا ورغبتى
وما الجود من أخلاقه ببديع (٧)

وجاء العصر العباسى ، ووجدت الحضارة المادية والعقلية من رواء الشعر ، فأمدته بالخياى الخصب ، والفكر العميق ، والمعنى الدقيق ، وزينته بألوان زاهية من التشبيه والاستعارة ، وبديع التصوير وجميل التمثيل ، وصبغته بأصباغ طريفة من الثقافة والفلسفة ، ومزجته بحكمة الهنود وأدب الفرس ، وتنبه الشعراء العباسيون الى ما فى شعر القدماء من طرائف الصنعة البديعية ، فتناولوا البديع فى شعرهم (٨) ، ما بين مقتصد فيه كبشار بن برد (ت ١٦٧ هـ) وأبى نواس (ت ٢٩٩ هـ) ومفرط فى استعماله كمسلم بن الوليد (ت ٢٠٨ هـ) وأبى تمام (ت ٢٣١ هـ) .

وينسبون الى مسلم بن الوليد أنه أول من أطلق اسم «البديع» على الفنون التعبيرية التى شاعت فى الشعر العباسى (٩) ، وتبعه فى ذلك الشعراء والرواة ، ثم استعمل هذا المصطلح فى مؤلفات الأدياء .

(٧) تنظر هذه الأبيات وغيرها فى الصور البديعية ٥/١ .

(٨) البديع فى ضوء أساليب القرآن ٧ .

(٩) انظر الأغصانى ٣١٥/١٨ .

قديم فنون البديع :

واستعمال فنون البديع في الكلام لم يكن أمرا مستحدثا في العصر النبوي ، فهذه الألوان البديعية وجدت في الشعر الجاهلي والشعر الاسلامي وجودا فطريا ، واتفقت للقدامى اتفاقا ، واطردت في كلامهم اطرايدا عن عفو الخاطر ، وقبض الفطرة ووحى السليقة من غير أن يعتمدوا اليها متعلمين متكلفين ، ومن غير أن يعرفوا لها أسماء ، سوى أنها من ألوان كلامهم الذي به يؤدون اغراضهم (١٠) *

فجاء الطباق في قول امرئ القيس :

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

وجاءت المقابلة في قول التابغة الجعدي :

فتى تم فيه ما يسر صديقه على أن فيه ما يسود الأعاديا

وجاءت مراعاة النظير في قول امرئ القيس :

فد معها سكب وسح وديمة ورش وتوكاف وتنهملان

وجاء الارصاد في قول عمرو بن معد يكرب :

إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

وجاءت المشاكلة في قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وجاء الاستطراد في قول السمؤل :

وانا لقوم ما نرى القتل سبة إذا ما رأته عامر وسلول

وجاء العكس والتبديل في قول عبد الله بن الزبير الأسدي :

(١٠) الصبغ البديعي ١٥ .

فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا

وجاء الرجوع في قول حسان :

لا أسرق الشعراء ما نطقوا بل لا يوافق شعرهم شعري

وجاء اللف والنشر في قول امرئ القيس :

كأن قلوب انطير رطبا ويابسا

لدى وكرها العناب والحشف البالى

وجاء التقسيم في قول زهير :

فان الحق مقطعه ثلاث أداء أو نفار أو جلاء

وجاء التجريد في قول الأعشى :

ودع هريرة ان الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل

وجاءت ألوان أخرى على ألسنة الشعراء ، ووردت فنون كثيرة من

البديع في القرآن الكريم والحديث الشريف (١١) ، وكل هذا دليل على

قدم البديع وأصالته ، وأنه لم يستحدث في العصر العباسي على أيدي

شعراء البديع .

ظهور مصطلح « البديع » :

قدمنا أنه في العصر العباسي اتجه كثير من الشعراء الى تزيين

شعرهم ببعض الفنون التي أطلقوا عليها اسم « البديع » وتبعهم الرواة

والأدباء في استعمال هذا المصطلح حتى جاء الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) ،

فاستعمل هذا المصطلح في كتاباته ، ففي البيان والتبيين يروى قول

الأشوب بن رميلة :

(١١) من اراد الاستزادة في هذا الموضوع فليرجع الى الصبغ البديعي

هم ساعد الدهر الذي يتقى به وما خير كف لا تتوء بساعد
ثم يقول معلقا عليه ، قوله : « هم ساعد الدهر » انما هو مثل ،
وهذا الذي تسميه الرواه البديع ، وقد قال الراعى :
هم كاهل الدهر الذي يتقى به ومنكبه ان كان للدهر منكب
وقد جاء فى الحديث : « موسى الله احد ، وساعد الله اشد » والبديع
مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل
لسان والراعى كثير البديع فى شعره ، وبشار حسن البديع ، والعتابى
يذهب شعره فى البديع (١٢) .

ويستفاد من كلام الجاحظ أمور :

١ - ان لفظ « البديع » استعمله الرواة ، ثم نقله الجاحظ عنهم فليس
هو أول من استعمله .

٢ - أن البديع أطلق على الطريف والعجيب من الصور الاسلوبية
حيث أطلق فى هذا المثلان على ساعد الدهر وكاهل الدهر وهذا
من قبيل الاستعارة .

٣ - أنه جعل البديع مقصورا على لغة العرب ، وقد جانبه الصواب فى
هذا الحكم فكل لغة بديعها ومحسناتها .

وبناء على هذا الحكم تشكك الدكتور طه حسين فى معرفة الجاحظ
بآداب الأعاجم ولغاتهم وقال انه اذا كان قد سمع شيئا عنها فمن المرجح
أنه لم يخرج منها الا بصورة غامضة غير دقيقة (١٣) .

وقد استعمل الجاحظ مصطلح « البديع » فى موضع آخر من
كتابه فقال :

(١٢) البيان والتبيين ٤/ ٥٥ ، ٥٦ .
(١٣) مقدمة نقد النثر ٣ :

ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيـد
والرسائل الفاخرة ، مع البيان الحسن : كثوم بن عمرو العتـابي و كـيته
أبو عمرو ، وعلى الفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف
مث ذلك من المولدين ، كتحو منصور النمرى ، ومسلم بن الوليد
الأنصارى وأشباههما ، وكان العتـابي يحتذى حذو بشار في البديع ،
ولم يكن في المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هرمة (١٤) .

وفي كتاب « الحيوان » يتكلم الجاحظ تحت اسم : قطخ من البديع
ويذكر شعرا لبعض الشعراء يحتوى على التشبيه والاستعارة
وغيرهما (١٥) .

وبناء على ما تقدم نرى أن الجاحظ استعمل مصطلح البديع في
كتـاباته ، وقد نقله عن الرواة والشعراء الذين جرى على لسانهم
هذا الفن الجميل .

التأليف في البديع :

ابن المعتز :

وأول من وضع كتابا في فنون البديع هو عبد الله بن المعتز الخليفة
العباسى المتوفى سنة ٢٩٦ هـ ، حيث ألف كتابا سماه « البديع » وكان
ذلك سنة ٢٧٤ هـ ، وقال في مقدمته : قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض
ما وجدناه في القرآن الكريم ، واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه
وسلم وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام
الذى سماه المحدثون « البديع » ليعلم أن بشارا ومسالما وأبا نواس ومن
تقبلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا الى هذا الفن ، واكـنه كثر في أشعارهم

(١٤) البيان والذبيح ٥١/١ .

(١٥) ينظر الحيوان ٥٧/٣ .

• فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه (١٦) •

وبهذا بين أن سبب تأليفه الكتاب : اثبات قدم البديع والدلالة على أنه فن موجود في كلام العرب من قديم ، وأن المحدثين من الشعراء في العصر العباسي لم يخترعوه ولم يسبقوا المتقدمين الى شيء من أبوابه (١٧) •

وقد قسم كتابه الى قسمين :

١ — أبواب البديع : وقد جعلها خمسة هي : الاستعارة ، والتجنس ، والمطابقة ، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامي (١٨) •

٢ — محاسن الكلام والشعر وهي كثيرة وذكر منها ثلاثة عشر نوعا هي : الالتفات — والاعتراض — والرجوع — وحسن الخروج — وتأكيد المدح بما يشبه الذم — وتجاهل العارف — والهنن الذي يراد به الجد — وحسن التضمنين — والتعريض والكناية — والافراط في الصفة — وحسن التشبيه — واعنات الشاعر نفسه في القوافي — وحسن الابتداء (١٩) • وبذلك يكون قد بحث في كتابه سبعة عشر فنا من فنون البديع •

وبين ابن المعتز أنه لم يسبقه الى جمع هذه الفنون أحد قبله وأن اقتصاره في البديع على فنون خمسة لا يعنى جهله بمحاسن الكلام ولا ضيق في المعرفة ، فمن أحب الاقتداء به في ذلك فليفعل ، ومن أضاف إليها شيئا من هذه المحاسن أو غيرها فله اختياره (٢٠) •

(١٦) البديع ١ •

(١٧) ينظر السابق ٣ •

(١٨) ينظر السابق ٣ — ٥٧ •

(١٩) السابق ٥٨ — ٧٧ •

(٢٠) السابق ٥٧ ، ٥٨ •

وبهذا عد ابن المعتز رائد البديع ومؤسسه (٢١) ، حيث كان أول من ألف فيه وجاء العلماء على أثره فزادوا في فنونه وأضافوا في ألوانه .

قدامة بن جعفر :

ثم جاء قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) وألف كتابه « نقد الشعر » وقد عالج قدامة فنونا بلاغية عدة ، ووزعها على عناصر الشعر ، وهي :

نعت اللفظ ونعت الوزن ونعت القوافي ونعت المعاني وهذه هي نعوت المفردات وهناك نعوت المركبات وهي : ائتلاف اللفظ مع المعنى ونعت ائتلاف اللفظ والوزن ونعت ائتلاف المعنى والوزن ونعت ائتلاف القافية والمعنى (٢٢) .

وقد تحدث قدامة عن عشرين فنا من فنون البديع توارد مع ابن المعتز في ثمانية منها هي : التشبيه والتميم وقد سماه ابن المعتز الاعتراض ، والمبالغة وقد سماها ابن المعتز الافراط في الصفة ، والتكافؤ وقد سماه ابن المعتز المطابقة ، والاتفات والارداف وقد سماه ابن المعتز الكناية والتعريض ، والمجانس وقد سماه ابن المعتز التجنيس والاستعارة .

وزاد قدامة : الترصيع وصحة التقسيم وصحة المقابلة ، وصحة التفسير ، والمساواة والاشارة والتمثيل والمطابق وهو لون من ألوان التجنيس وائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت والتوشيح والايغال والتصريح (٢٣) .

ولم يبحث قدامة هذه الفنون تحت اسم البديع ولكنه تكلم عنها

(٢١) قد فصلنا القول عن ابن المعتز وكتابه في بحث كبير منشور بمجلة كلية اللغة العربية بدمهور ، العدد الثالث فيرجع اليه .
(٢٢) فن البديع ٨ ، وينظر نقد الشعر .
(٢٣) ينظر الصبغ البديعي ١٤٦ - ١٥٦ .

باعتبار دخولها في عناصر الشعر ونقده وأدرج معها ألوانا أخرى من مستلزمات الصناعة الشعرية ومن ثم يختلف الباحثون في عد الألوان البديعية التي تحدث عنها قدامة فيراها بعضهم سبعة وعشرين لونا (٢٤) ويرأها آخرون عشرين لونا والخطب في ذلك سهل ميسور •
أبو هلال العسكري :

ثم جاء أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) وألف كتابه «الصناعتين» وجعل الباب التاسع منه لشرح البديع ودراسة فنونه وقد ذكر من هذه الفنون ستة وثلاثين فنا درس خمسة وثلاثين منها دراسة مفصلة وخص كلا منها بفصل على حدة وفي نهاية الفصل الخامس والثلاثين استدرك على نفسه فنا آخر سماه : المشتق وتحدث عنه (٢٥) •

وقد توارد مع من سبقوه في تسعة وعشرين فنا هي :

الاستعارة والمجاز — والتطبيق — والتجنيس — والمقابلة — وصحة التقسيم — وصحة التفسير — والاشارة — والارداف والتوابع — والمماثلة — والغر — والمبالغة — والكناية والتعريض — والعكس والتبديل — والتذييل — والترصيع — والايغال — والتوشيح — ورد الأعجاز على الصدور — والتكميل والتتميم — والالتفات — والاعتراض — والرجوع — وتجاهل العارف — والاستطراد — وجمع المؤنث والمختلف — والسلب والايجاب — والاستثناء — والمذهب الكلامي — والتعطف •

وانفرد بدراسة سبعة أنواع هي :

التشطير — والمجاورة — والاستشهاد والاحتجاج — والمضاعفة — والتطريز — والتأطف — والمشتق •

(٢٤) ينظر البديع في ضوء أساليب القرآن ١١ ، وقدامة والنسب

الأدبي — ٣٨٠ •

(٢٥) ينظر الصناعتين ٣٤٣ •

ولم تسلم له هذه الأنواع السبعة فقد درس بعضها تحت اسم
آخر لدى من سبقه من العلماء (٢٦) .

وأخرج أبو هلال من البديع : التشبيه والايجاز والاطناب والسجع
والازدواج (٢٧) ، ودرسها في أبواب وفصول مستقلة .

وقد دفع أبو هلال دراسة البديع دفعة قوية الى التطور وجمع بين
طريقتي ابن المعتز وقدامة فعرف اللون البديعي واحتفل بالشواهد
الكثيرة من القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام الصحابة والعرب
وشعر المتقدمين والمحدثين ، وعقب كل فن بذكر أمثلة للمعيب منه ، وأجاد
في شرح الشواهد وتحليل الأمثلة (٢٨) .

ابن رشيق :

ثم جاء أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣ هـ) وألف
كتابه « العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده » وهو كتاب جامع لكثير
من موضوعات الأدب والبلاغة والنقد ويعد سجلا حافلا لآراء من تقدمه
من علماء البلاغة مع اعطائه فكرة واضحة عن تطور مصطلحات البلاغة
وما طرأ عليها من تغيير عبر السنين (٢٩) .

وتناول « ابن رشيق » في كتابه كثيرا من فنون البديع وقال :
والبديع ضروب كثيرة وأنواع مختلفة أنا أذكر منها ما وسعته القدرة
وساعدت فيه الفكرة ان شاء الله تعالى (٣٠) .

ومن فنون البديع التي ذكرها : التجنس — والترديد — والتصدير

(٢٦) ينظر الصبغ البديعي ١٧٣ — ١٧٦ .
(٢٧) ينظر الصناعتين ١٣٠ ، ١٤١ ، ١٧٢ ، ١٩٩ .
(٢٨) ينظر الصبغ البديعي ١٦١ .
(٢٩) نظرات في البلاغة والاسناد ٣٣ .
(٣٠) العمدة ٢٦٥/١ .

— والتصميم — والنثر — والتهنئة — والتهنئة — والتهنئة — والتهنئة —
والتهنئة — والتهنئة — والتهنئة — والتهنئة — والتهنئة —
والتهنئة — والتهنئة — والتهنئة — والتهنئة — والتهنئة —
والتهنئة — والتهنئة — والتهنئة — والتهنئة — والتهنئة —

وهو أنما هو ابن ربيعة ، وله شعر كثير في الأندلس والتهنئة ،
والتهنئة ، والتهنئة ، والتهنئة ، والتهنئة ، والتهنئة ،
والتهنئة ، والتهنئة ، والتهنئة ، والتهنئة ، والتهنئة ،
والتهنئة ، والتهنئة ، والتهنئة ، والتهنئة ، والتهنئة ،

أبن سنان الخفاجي :

وأنف أبو محمد بن محمد بن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ)
كتاب « سر الفصاحة » وقام في كتابه عن عدد من فنون البديع منها
حسن التورية والخصر والتوشيح والترديد وحسن الكناية والجناس
والمطابق وغيرها (١٣) .

وقال كثيرا بطرقة قدامة بن جابر في نقد الشعر فوزع بحوث
كتابته بين أوجاف من دعوت الألفاظ وأوصاف من نعت المعاني ووصاف
من نعت ما وهو بهذا الصنيع قد أكد ما أسسه قدامة من تنويع
الفنون البديعية إلى الخفية والمنوية ، فكان ثاني اثنين مهدا الطريق
لآخرين في نقد البديع (٣١) .

وهو في كتابه الخفاجي :

ثم جاء الأمام عبد التام الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) الذي باغت

(٣١) الع ————— دة ٣٠٢ / ١ .

(٣٢) ينظر سر الفصاحة ١٣٧ ، ١٥٨ .

(٣٣) أندلسية البيهقي ٢٠٦ .

البلاغة على يد فمة التطور والازدهار فانما هي «أسرار البلاغة»
و «دلائل الإعجاز» دعوى البلاغة العربية شاهقة قوية وجمع فيما
سواء ما انى والبيان والبدیع *

ولم يتوسع الامام في عرض مسائل البديع وقناه تحدث عن بعض
نقونه مقرر على اثره في الاستدلال وديان انه لا يحسن الا بما يضيفه من
ما لا تتحقق في عدم وجوده ، ففى «أسرار البلاغة» عرض للتجسس
وتسجيع والحذر ، والامانة ، والتطبيق ، وبين ان الحسن في هذه
امثاله يرجع الى ما نرى قبل ان يرجع الى النظم والبدع في اثبات هذه
الاحتية (٣٤) *

كما تناول في هذا الكتاب لتجريد دون ان يسببه وبين انواع
التخييل ودرجاته بما لا يزيد عليه (٣٥) *

وعرض في «دلائل الإعجاز» في فصل عقده لانظم يتحد في الوضع
ويصدق فيه الصنع لبعض فنون البديع ، فذكر المزاوجة بين معنيين في
اشراط ، والجزاء ، والتقسيم ، وبين ان هذا النمط من الكلام هو النمط
العالى والباب الأعظم والذى لا نرى ساطان المزية يعظم في شيء
كعظمه فيه (٣٦) *

وبذلك وضع الامام أساس بلاغة النون البديعية وبين سر
دكانتها في الاسلوب *

البديع بجد الامام عبد القاهر :

يمكن القول ان البحث في البديع وفي البلاغة عمودا قد تشعب بعد
عصر الامام عبد القاهر الى اتجاهات ثلاثة :

-
- (٣٤) أسرار البلاغة ٤ ب ١٥ .
 - (٣٥) أسرار البلاغة ٢٣١ - ٢٦١ .
 - (٣٦) دلائل الإعجاز ٩٣ ، ٩٤ .

- ١ — الاتجاه الأدبي •
- ٢ — الاتجاه البديعي •
- ٣ — الاتجاه العقلي •

أولا — الاتجاه الأبي :

وأصحاب هذا الاتجاه نهجوا في دراسة البلاغة نهجا أدبيا ذوقيا يستمد روح الامام عبد القاهر وعرضوا في دراساتهم لألوان مختلفة من البديع مع بحوث أخرى تتصل بصناعة الكلام ونقد الشعر ونظم القرآن الكريم • ومن علماء هذا الاتجاه :

ضياء الدين بن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) في كتابه « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » •

وعبد الواحد بن عبد الكريم الزملاكنى (ت ٥٦١ هـ) في كتابه « التبيان في علم البيان » و « البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن » •

ويحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٥ هـ) في كتابه : « الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز » •

ثانيا — الاتجاه البديعي :

وأصحاب هذا الاتجاه يطلقون على جل فنون البلاغة اسم « البديع » وبيحثونها تحت هذا الاسم ويجعلون رائدهم في ذلك عبد الله بن المعتز في كتابه « البديع » ومن علماء هذا الاتجاه :

مجد الدين أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ) في كتابه : البديع في نقد الشعر ، وقد جمع فيه خمسة وتسعين لونا بديعيا مرتبة على أبواب وقد خلط في كتابه بين صور البديع وجعل أقسام الباب الواحد أبوابا وأضاف السرقات والعيوب الى أبواب البديع •

وزكى الدين عبد العظيم بن عبد الواحد المعروف بابن أبى الاصبع
المصرى (ت ٦٥٤ هـ) فى كتابيه : « تحرير التحبير » و « بديع القرآن »
وهما من خير الكتب التى ألفت فى البديع وتمثل هذا الاتجاه تمثيلا
دقيقا .

ففى « تحرير التحبير » درس ما يربو على مائة وخمسة وعشرين
لونا من ألوان البديع وقسمها الى أصول وفروع فالأصون هى ما ذكره
ابن المعتز وقدامه ، وعددها ثلاثون لونا ، والفروع هى الألوان التى
ذكرها العلماء بعدهما وعددها خمسة وستون لونا ثم ذكر انه اكتشف
ثلاثين لونا لم يسبق اليها ولم يسلم له من هذا الادعاء الا أربعة عشر
لونا والباقى مسبوق اليه (٣٧) .

وفى « بديع القرآن » درس تسعة ومائة لون من ألوان البديع
ممثلا لها بشواهد من القرآن الكريم ، ومحللا لها تحليلا دقيقا يظهر فيه
جمال الاسلوب وحسن العرض ، والقدرة على استخراج أوجه الجمال
فى الآيات القرآنية .

وكان هذا الاتجاه البديعى من الأسباب القوية التى أدت الى
ظهور البديعيات المنظومة .

البديعيات :

وهى قصائد فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم غالبا ، يتضمن
كل بيت منها لونا أو أكثر من فنون البديع مع الاشارة الى اسم اللون
أو عدم الاشارة اليه وقد شرحت هذه القصائد بطريقة أدبية تعين على
تنمية الاحساس وتربية الذوق الأدبى .

وأهم أصحاب البديعيات :

١ — حنفى الدين انحلى (ت ٧٥٠ هـ) ومطلع بديعته :

ان جئت سلعا فسل عن جيرة العلم
واقر السلام على عرب بذي سلم

وعدد أبياتها مائة وخمسة واربعون بيتا ونشتغل على مائة ووحده
وخمسين لونا بديعيا . وشرحها شرحا لطيفا سماه « النتائج لانهية في
شرح الكافية البديعية » .

٢ — شمس الدين محمد بن جابر الأندلسى (ت ٧٨٠ هـ) . ومطلع
بديعته :

بليية انزل ويهم سيد الأمم
وانثر له ادح وانثر طبب الكام
وقد شرحها شرحا مختصرا .

٣ — عز الدين الموصلى (ت ٧٨٩ هـ) ومطلع بديعته :

براعة تستل الدمع فى العلم
عبارة عن نداء المفرد للعلم

وقد ذكر فيها اسم اللون البديعى وشرحها فى كتاب سماه « انشودل
بالبديع الى التوسل بالمشيخ » .

٤ — تقى الدين أبو بكر على بن محمد المعروف بابن حجة الحموى
(ت ٨٣٧ هـ) ومطلع بديعته :

اى فى ابتدا مدحك يا عرب ذى سلم
براعة تستل الدمع فى العلم

وهى تتخذ من مائة وثنتين وأربى بن لينا بديعيا وقد شرحها باسم

أهلون البديعي ، وشرحها شرحاً مطولاً ابداع فيه وأجاد وسماه « خزانة
الأدب وغاية الأرب » ويعتبر هذا الشرح مرجعاً للباحثين في علم البديع
وأيلاً لرواد الأدب والنقد .

ونيز ، ولأء دن دولافى البديعيات كثيرون ، يطول الكلام بذكرهم ،
وقد استمر ناليف البديعيات حتى العصر الحديث ، وفي كتاب « الصنيع
البديعي » في شرح كثيرة دنوا ، فعلى هذا الاتجاه الذى قوى وازدهر فترة
ملوك دن اردان . وقد ادى النماذى فى البديعيات ، والتسابق فى نظمها
الى نشأة الفكر البلاغى وضربها . من جراء الاختصار المخل ، وجمع
أركانها فى فقرة واحدة ، لا تفنى ولا تسمى .

نتائج الانجساح العقلى :

وقد اتجهت قوفا اءحابه على تشييد البلاغة العربية وتقنينها
رتظيم مسائلها وضبطها بحثها مع التقايل من الشواهد الأدبية
وشرحها ، مما ترتب عليه اختفاء الروح الأدبية فى كثير من مؤلفات
اصحاب هذا الاتجاه ، وهذه الءبابه نالها كما زمام البلاغة العربية حتى
وقتنا الحاضر .

ومن أهم علماء الاتجاه العقلى :

١ - فخر الدين الرازى (ت ٦٥٦ هـ) فى كتابه « نهاية الایجاز فى
درية الاعجاز » وعرف فى فيه لعدد من فنون البديع درس بعضها فى
الجملة الأولى الخاصة بالمفردات ، وبعضها فى الجملة الثانية الخاصة
بالنظم ، ودرسته لهذه الفنون وجزء لا تتعدى تعريف الفرع البديعى
ببعض الأمثلة له (٣٨) .

٢ - أبو يعقوب يوسف السكاكى (ت ٦٢٦ هـ) فى كتابه « مفتاح

العلوم « وقد جع القسم الثالث منه خاصاً بالبلاغة ، وقسمها الى علمين هما : المعانى والبيان ، ولما فرغ من شرح مسائل هذين العلمين اتبع ذلك بوجوه تحسين الكلام — وهى ألوان البديع — وقسم هذه الوجوه قسمين (٣٩) : قسم يرجع الى المعنى ويضم عشرين وجها ، وقسم يرجع الى اللفظ ويضم خمسة وجوه • وتحدث عن كل ذلك بايجاز مقتضرا على تعريف الوجه وذكر بعض أمثله •

ونختم كلامه عن هذه الوجوه ببيان أصل الحسن فيها فقال : وأصل الحسن فى جميع ذلك أن تكون الألفاظ توابع للمعانى ، لا أن تكون المعانى لها توابع ، أعنى ألا تكون متكلفة (٤٠) • وهذا أساس دقيق يجب مراعاته فى استعمال فنون البديع ، وقد نبه عليه الشيخ عبد القاهر •

٣ — بدر الدين بن مالك (ت ٦٨٦ هـ) فى كتابه « المصباح فى المعانى والبيان البديع » وقد جعله ثلاثة أقسام : الأول منها لعلم المعانى ، والثانى لعلم البيان ، والثالث لعلم البديع ، والظاهر أنه أول من حصر البلاغة فى هذه العلوم الثلاثة ، وعلى منواله مضى الخطيب من بعده •

وعلم البديع عنده هو معرفة توابع الفصاحة ، والفصاحة نوعان : فصاحة لفظية وفصاحة معنوية ، وبناء على ذلك كانت المحسنات البديعية عنده اما راجعة الى الفصاحة اللفظية ، واما راجعة الى الفصاحة المعنوية ، والراجعة الى المعنوية اما مختصة بالفهم والتبيين ، واما مختصة بالتزيين والتحسين فهى ثلاثة أقسام : ما يرجع الى الفصاحة اللفظية ويضم أربعة وعشرين نوعا ، وما يرجع الى الفصاحة المعنوية وهو مختص بالفهم والمعنى وتبينه ويضم تسعة عشر نوعا ، وما يرجع الى الفصاحة المعنوية وهو خاص بتحسين الكلام وتزيينه ويضم خمسة

(٣٩) مفتاح العلوم ٢٠٠ •

(٤٠) النسب السابق ٢٠٤ •

عشر نوعا (٤١) • وبذلك يكون قد درس في كتابه ثمانية وخمسين نوعا بديعيا ، وقد جاءت دراسته لها فيها شيء من البسط ، ومشملة على كثير من الشواهد الأدبية •

٤ — الخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ) في كتابيه « التلخيص » و « الايضاح » ومضى فيهما على تقسيم البلاغة الى علوم ثلاثة : المعانى والبيان والبديع ، وعرف البديع : بأنه علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة (٤٢) • وبذلك جعل فنون البديع حاية للكلام ، وزينة تكسوه بهجة وجمالا ، ولا دخل لها في بلاغة الكلام التي تقوم على رعاية مقتضى الحال ، حيث تأتي هذه الألوان بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة ، فهي من توابع البلاغة لا من أصولها وتحسينها عرضي لا ذاتي •

وقسم الخطيب المحسنات البديعية الى ضربين : ضرب يرجع الى المعنى وضرب يرجع الى اللفظ ، وذكر من المعنوي واحدا وثلاثين لونا ومن اللفظي سبعة ألوان • وتناول هذه الألوان في « الايضاح » بشيء من التفصيل مع كثرة الشواهد والنظرات التحليلية •

وقد استهوى تلخيص الخطيب من جاء بعده من البلاغيين فعكفوا عليه يشرحون ألفاظه ، ويفسرون عباراته ، دون زيادة ذات بال ، مع اغراق الشروح والحواشي بالمناقشات العقلية ، والمحاورات المنطقية ، مما أفقدها الروح الأدبية التي ينمو في ظلها البحث البلاغي ويؤتى ثمـاره •

وظل الحال على ذلك حتى جاء العصر الحديث وظهرت دعوات مخلصه تدعو الى تنقية البلاغة مما علق بها ، والعودة بالبحث البلاغي

(٤١) أنظر المصباح ١٥٩ ، ٢٠٤ ، ٢٤٦ •

(٤٢) الايضاح ٤/٦ •

الى النهج الذى سلكه الشيخ عبد القاهر ، وظهرت على اثر ذلك بحوث
تناوت علوم البلاغة بادراسة التحليلية ، وكان لها اثر طيب على البحث
البلاغى . وهذه النهضة فى حاجة الى متابعة ، اجهود ومواصلة البحوث ،
كى تظل المسيرة ماضية فى طريق الازدهار ، والله الموفق والمستعان .

* * *

تأليف البديع

عرف الخطيب البديع بفنونه : هو علم يعرف به وجود تحسين الكلام بعد وعابه انطباقا ووضوح بالدلالة .

وهذا التريف يجعل وظيفة فنون البديع في الاسلوب مقدورة على مجرد تحسينه وتتمينه . دون ان تكزن من عوامل بلاغته . كما أنه يضع علم البديع في درتبة دنية ودرحاة متأخرة بعد علمي المعنى والبيان . فعلم المعاني يختص باعتبارات مطابقة لكلام مقتضى الحال . وعلم البيان يختص باعتبارات وضوح الدلالة . وبمراعاة الاعتبارات المقررة في اعلمين تتحقق بلاغة الكلام ، ثم تأتي فنون البديع بعد ذلك على الكلام لبايع لنكسوه رداء الحسن . وتابسسه قلائد الزينة . دون أن تكون ساسا في بلاغته .

وهذه نظرة مجحفة بعلم كان البحث فيه الخطوة الأولى في مسيرة البلاغة ، وكثيرا ما اطلق عاويها ، وضم تحت رابته . لفترات طريفة — معظم فنون البلاغة . ومنها ما هو من علم المعاني ، وما هو من علم البيان حسب مصطلحات المتأخرين . وسنقتول هذه القضية بمزيد من التفصيل في نواية حديثنا عن فنون البديع .

والمحسنات البديعية عند البلاغيين على قسمين : معنوية وافظية .

فالمحسنات المعنوية : هي التي يكون التحسين فيها راجعا الى المعنى أولا ، ويصح ذلك تحسين اللفظ ، ومنها الدقائق ، والمشاكلية ، والتورية .

والمحسنات اللفظية : هي التي يكون التحسين فيها راجعا الى

اللفظ أولا ، ويتبع ذلك تحسين المعنى • ومنها الجناس ، والسجع ، ورد العجز على الصدر •

وتعرف المحسنات المعنوية بأنه لو غير فيها اللفظ بما يرادفه لبقى المحسن كما هو قبل التغيير ، ففي قول أبي الحسن التهامي :

لقد أحييا المكارم بعد موت وشاد بفاءها بعد انهدام

طباق بين الأحياء والموت ، والشيد والانهدام ، والطباق محسن معنوي ، ولو غيرنا « أحييا إلى أوجد » أو غيرنا « موت إلى فناء » لظل الطباق كما هو في الكلام ، وإء قلنا « بنى بدلا من شاد » و « سقوط بدلا من انهدام » لبقى الطباق بين اللفظين كما كان قبل التبديل • فتغيير اللفظ بمرادفه في المحسن المعنوي لا يبطله ، بل يبقيه كما هو قبل التغيير •

وتعرف المحسنات اللفظية بأنه لو غير فيها أحد اللفظين بما يرادفه لزال ذلك المحسن ، ولم يبق له وجود في الكلام • ففي قول محمد ابن عبد الله الكوفي :

وسميته يحيى ليحيا فلم يكن إلى رد أمر الله فيه سبيل

جناس بين « يحيى » اسم الطفل ، و « يحييا » الفعل المضارع ، والجناس محسن لفظي ، فلو غيرنا « يحيى إلى عالى » أو « يحييا إلى يعيش » لذهب الجناس ولم يعد له وجود في الكلام ، فتغيير اللفظ بمرادفه في المحسن اللفظي يزيل المحسن ويذهب به •

وتقسيم المحسنات إلى معنوية ولفظية هو في نظرنا تقسيم صوري لا تتعدى فائدته ضبط الألوان وتقنينها ، وينبغي ألا يفهم على أنه فصل بين المعاني والألفاظ في العمل الأدبي فهذا الفصل فيه أضعاف لناحية من النواحي التي يقوم عليها الأسلوب البلاغي ، إذ يتكامل لفظه ومعناه

لأداء الغرض المقصود ، ولا يصح أن نفصل بين اللفظ والمعنى في أحداث
الجمال والحسن للأساليب ، فكل منهما لا يوجد دون الآخر ، ولا تتم
بلاغة الأسلوب الا بهما معا . والمحسنات اللفظية لا تحسن الا بموقع
معناها في العقل ، والمحسنات المعنوية لا تحسن الا بمراعاة الألفاظ
الحاملة للمعنى ، وقد نبه البلاغيون على ذلك (١) .

وبهذا نكون قد انتهينا من التمهيد ، لندخل في فصول الكتاب .

* * *

(١) انظر أسرار البلاغة ٤ ، ومفتاح العلوم ٢٠٤ ، والايضاح ١١٦/٦ .

الفصل الأول

قانون التماسب

يتناول هذا الفصل مجموعة من الفنون البديعية التي تحقق التماسب بين عناصر الكلام ، وتتمثل في : الإحتم أجزاءه ، وتماسك الأجزاء ، أخذ كل جزء من مساهمته ، ويبدأ أولاً على آخره ، وتتسجم جمالاته بقتلته ، ويبدو كما لو كان قد نلتى فرغت فرغاً واحداً ، لا خال فيها ولا تباين .

والفنون التي تعرض لها في هذا الفصل هي : الطباق — والمقابلة — ومراعاة النظم — والارحام — والمزاوجة — والسجع — ومواضع التماسب .

وهي كما ترى تاتي في هذا الكلام ، ويربط أجزائه ، وإيجاد العلاقات القريبة بين أجزائه من طريق التضاد ، أو التماسب ، أو تباين أوله وآخره ، أو التماسب الموسيقي ، بجانب جعل العنصر الأدبي وحدة متكاملة الأجزاء متناسقة الوضع .

الطباق

ويسمى المطابقة ، والتطبيق ، والقضاد ، والتكافؤ •

والطباق في اللغة : التوافق ، وفي اصطلاح البلاغيين : الجمع بين المتضادين في كلام واحد ، أو ما هو كالكلام الواحد في الاتصال •

والمراد بالتضاد هنا وجود لون من التقابل والتنافي بين الشئيين ولو في بعض الصور • وسمى الجمع بين الضدين طباقا لمساواة أحدهما للآخر وان اختلفا في المعنى • ولهذا قيل للشئ « طبق » و « مطابق » اذا ساوى الآخر في مقداره عندما يجعل عليه أو يغطي به ، وان اختلف الجنســــــــــــــــان (١) •

والطباق من الفنون البلاغية التي بدأ بحثها مبكرا مع الخطوات الأولى في مسيرة البلاغة العربية ، فالخليل بن أحمد (ت ١٨٧ هـ) يشير إليه مبينا معناه اللغوي بقوله : يقال طبقت بين الشئيين اذا جمعت بينهما على حذف واحد • والأصمعي (ت ٢١٣ هـ) يتحدث عنه كصورة تقع في الشعر ويذكر أن أحسن شاهد للمطابقة قول زهير :

ليث بعثر يحطاد الرجال اذا

ما الليث كذب عن أقرانه صدقا (٢)

واتصل حديث البلاغيين عن المطابقة حتى قل أن يخلو كتاب بلاغي من الكلام عنها على سبيل الأيجاز أو البسط ، وتتبع أطوار البحث في كل فن من الفنون البلاغية موضوع طويل يحتاج الى دراسات خاصة به •

(١) الموازنة ر/٢٨٨ •
(٢) العمدة ٦/٢ •

صور الطباق :

وتتعدد صور الطباق باعتبارات مختلفة •

فهو باعتبار نوع طرفيه أربعة أقسام إذ قد يكون بين لفظين من نوع واحد ، اسمين أو فعلين أو حرفين ، وقد يكون بين لفظين مختلفين •

فما جاء بين اسمين قوله تعالى : « وتحسبهم أيقاظا وهم رقود » (٣) ، فبين « أيقاظا و رقود » مطابقة ، وهما اسمان • والرقاد : المستطاب من النوم القليل ، وإنما وصفهم بالرقود مع كثرة منامهم اعتبارا بحال الموت ، وذلك أنه اعتقد فيهم أنهم أموات ، فكان ذلك النوم قليلا في جنب الموت (٤) •

والآية تبين بعض أحوال أصحاب الكهف العجيبة الدالة على قدرة الله تعالى ، فمن رآهم في كهنهم ظنهم أيقاظا لمخالفتهم حال النائم ، وهم في الحقيقة رقود • وقد قرى الطباق من اظهار هذه الحال حين طرح المعنى المظنون باثبات ضده ، ونفى أحد الضدين يثبت الآخر • وإيثار « رقود » في المطابقة على نيام ، لان الرقاد نوم قليل خفيف فهو أشد ملاءمة لحالهم حيث كانت عيونهم مفتوحة كما قيل ، ويتقلبون يمينا وشمالا ، بجانب ما فيه من توه وفخامة تناسب « أيقاظا » وبذلك يهضى السياق على نسق واحد من القوة والفخامة •

ومنه قوله تعالى : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن » (٥) ، ففيه طباق بين الأول والآخر ، وبين الظاهر والباطن ، وهو يبين اتصافه تعالى بهذه الصفات المتضادة في آن واحد ، مما يدل على مخالفته تعالى للمخلوقات ، ويظهر كمال سلطانه وقدرته •

(٣) الكهف آية ١٨ •

(٤) المفردات ٢٠١ ، وبصائر ذوى التمييز ٩٤/٣ •

(٥) الحديد آية ٣ •

ومن هذا قوله تعالى : « وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات » (٦) ، ففيه مطابقة بين الأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، والظل والحرور ، والأحياء والأموات ، وكلها أسماء • والآيات تمثيل للمؤمن والكافر والايمن والكفر ، فمثل المؤمن بالبصير والأحياء ، والكافر بالأعمى والأموات ، ومثل الايمان وثوابه بالنور والظن ، الكفر وعقابه بالظلمات والحرور (٧) • وقد وردت هذه الحقائق في سياق المطابقة التي أظهرها واضحة جلية ، وهياً للعقول أن تقارن بينها ، فلا تملك الا أن تسثم بعدم تساويها ، ومن ثم تنشط في اختيار النهج السوى والتزامه •

ومنه قول السموعل :

سلى ان جهلت الناس عنا وعنهم
فليس سواء عالم وجهول

وقول الفرزدق :

والشيب ينهض في الشبَاب كأنه
ليل يصيح بجانبه نهار

فطابق الأول بين عالم وجهول ، وطابق الثاني بين الشيب والشباب ، والليل والنهار ، وكلها من قبيل الأسماء ، والمطابقة في البيتين زادت المعنى قوة ، وأضفت على السياق حسنا وبهاء ، وأوضحت الصورة التشبيهية في البيت الثاني •

ومما جاء فيه الطباق بين فعلين قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من

(٦) فاطر ابيسة ١٩ - ٢٢ •

(٧) الكشاف ٣/٣٠٦ ، وحاشية الشهاب ٧/٢٢٣ •

تشاء بيدك الخير « (٨) ، فالطباق بين تؤتى وتترع ، وتعز وتذل ، وهي أفعال مضارعة • وفي الآية تمجيد لله تعالى وثناء عليه بسلطانه المطلق ، وملكه التام للكون وما فيه ، وقدرته على التصرف كما يشاء . وقد أظهر أسلوب الطباق هذه الحقائق واضحة بذكر الأضداد التي هي أقدر على تمييز الأشياء وتجليتها ، فهو جل شأنه يؤتى الملك وينزعه ، ويعز ويذل حسب مشيئته ودون منازع له في ذلك •

ومنه قوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا » (٩) ، فالطباق بين أضحك وأبكى وبين أمات وأحيا وهي أفعال ماضية ، والضحك أثر سرور النفس ، والبكاء أثر الحزن وهما من خواص الانسان ومن عجائب خلقه ، وقد دلت الأفعال الأربعينة بما بينها من مطابقة على كمال قدرة الله تعالى بايجاد الأضداد في محض واحد ، وجاء اسنادها الى الله تعالى قويا حيث أكد بأن وضيم الفصل الذي أفاد قصر ايجادها على الله تعالى ، وحذفت مفعولاتها للقصد الى الأفعال بذاتها لا الى من تقع عليه ، فالله تعالى هو الذي أوجد الضحك والبكاء والموت والحياة • وقدم الضحك على البكاء لانه مرغوب لكل نفس ، ففيه مزيد امتنان ، وقدم الموت على الحياة لما فيه من مزيد العبرة والموعظة ، وردا على قولهم (وما يهلكنا الا الدهر) (١٠) • وبجانب ذلك ففي التقديم في الموضوعين رعاية للفاضلة التي جاءت عليها سورة النجم (١١) •

قال أبو هلال العسكري معلقا على قوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى » وقد تنازع الناس هذا المعنى ، قال ابن مطير :

تضحك الأرض من بكاء السماء

-
- (٨) آل عمران آية ٣٦ .
(٩) النجم آية ٤٣ ، ٤٤ .
(١٠) الجاثية آية ٢٤ .
(١١) أنظر التفسير الكبير ٧/٧٤١ ، والتحرير والتنوير ٢٧/١٤٣ .

وقال آخر :

ضحك المزن بها ثم بكى

وقال آخر :

فله ابتسام في لوامع برقه وله بكا من ودقه المتسرب

وقال آخر :

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

فلم يقرب أحد من لفظ القرآن في اختصاره وصفائه ، ورونته وبهائه ، وطلاوته ومائه ، وكذا جميع ما في القرآن من الطباق (١٢) •

ومن الطباق بين فعلين تشبهه تعالى : « وأسروا قولكم أو اجهروا به انه عليم بذات الصدور » (١٣) ، فالطباق بين « أسروا و اجهروا » وهما فعلا أمر ، وقد أظهرت المطابقة علم الله تعالى بالسر والجهر على السواء ، وقدم السر على الجهر لان العلم به أدل على كمال علمه تعالى واحاطته بكافة المعلومات •

ومما ورد فيه الطباق بين حرفين قوله تعالى : « ولين مثل الذى عليهن بالمعروف » (١٤) ، وقوله تعالى : « لهما ما كسبت وعليهما ما اكتسبت » (١٥) ، ففي الآيتين طباق بين اللام وعلى ، لان اللام تشعر بالملكية المؤذنة بالانتفاع ، وعلى تشعر بالعلو المشعر بالتحمل أو الثقل المؤذن بالتضرر فصار تقابلهما كتقابل النفع والضرر وهما ضدان (١٦) •

(١٢) الصناعتين ٢٣٩ •

(١٣) الملك آية ١٣ •

(١٤) البقرة آية ٢٢٨ •

(١٥) البقرة آية ٢٨٦ •

(١٦) مواهب الفتاح ٢٨٩/٤ •

والتعبير في الخير بالكسب وفي الشر بالاكتساب ، لان الاكتساب فيه اعتمان وشدة اهتمام ، والشر تشتتية الأنفس وتنجذب اليه فهي تُجد في تحصيله وأعمل في نيته •

ومن هذا قول الشاعر :

على أنني راض بأن أحمل الهوى
وأخلص منه لا على ولا ليا

فطابق بين على واللام في آخر البيت والمعنى لا على ذم ولا لى
مـدح •

ومما وقع فيه الطباق بين لفظين مختلفين قوله تعالى : « من يضل الله فلا هادي له » (١٧) ، فالمطابقة بين « يضل و هادي » الأول فعل والثاني اسم • والتعبير بالاسم في الجانب الثاني مفيد لنفي الجنس ونفي جنس الهداة له كناية عن عدم حصول الهدى له بأي حال من الأحوال •

ومنه قوله تعالى : « وأحيى الموتى بأذن الله » (١٨) ، ففيه طباق بين فعل واسم ، ومنه قول أبي تمام :

وقد كان يدعى لابس الصبر حازما
فأصبح يدعى حازما حين يجزع

فطابق بين الصبر ويجزع والأول اسم والثاني فعل •

والتصور عقلا في كون الطباق بين مختلفين ثلاثة أقسام :

(١٧) الاعراف آية ١٨٦ •

(١٨) آل عمران آية ٤٤ •

أن يكون أحدهما اسما والآخر فعلا ، أو يكون أحدهما اسما والآخر حرفا ، أو يكون أحدهما فعلا والآخر حرفا ، أو يكون أحدهما فعلا والآخر حرفا ، لكن الشائع في الأساليب الأدبية هو القسم الأول وهو المطابقة بين الاسم والفعل . وقد مثل السبكي للقسمين الآخرين بأمثلة مصنوعة ، فالطباق بين الاسم والحرف كقولك : ثراب زيد حاصل وعليه وزره . والطباق بين الفعل والحرف كقولك : أثيب زيد عليه ما اكتسب (١٩) .

والطباق باعتبار كون طرفيه من الحقيقة أو المجاز على ثلاثة أقسام :

ما كان طرفاه من قبيل الحقيقة كقوله تعالى : « الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » (٢٠) ، ففي الآية طباق بين السموات والأرض والظلمات والنور وهذه الألفاظ مستعملة في حقائقها اللغوية فهي من قبيل الحقيقة . وقوله تعالى : « ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن » (٢١) ، تبين نخفى ونعلن طباق والطرفان حقيقيان .

ومن هذا قول الشاعر :

لئن ساعنى أن نلتنى بمساءة لقد سرنى أنى خطرت ببالك

فطابق بين ساعنى وسرنى وهما من قبيل الحقيقة . وتجد هذا القسم في كثير من أمثلة الطباق التي تقدمت .

وما كان طرفاه من قبيل المجاز . ويخص بعض البلاغيين هذا القسم باسم « التكافؤ » (٢٢) ، ومن أمثله قوله تعالى : « أو من كان ميتا

(١٩) عروس الأفراح ٢٨٩/٤ .
(٢٠) الأنعام آية ١ .
(٢١) إبراهيم آية ٣٨ .
(٢٢) بديع القرآن ٣١ .

فأحييناه « (٢٣) ، أى ضالا فهديناه ، فطرفا الطباق من قبيل الاستعارة،
ومن هذا قوله تعالى : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات
الى النور » والمراد بالظلمات الضلال والكفر ، وبالنور الهداية والايمان،
فالمطابقة بين لفظين مجازيين •

ومن هذا قول الشاعر :

حلو الشمائل وهو مر باسل يحمى الذمار صبيحة الارهاق

فالتباق بين حلو ومر ، وهما مجازان على سبيل الاستعارة •

وقول الشاعر :

لقد أحيأ المكارم بعد موت وثناد بناءها بعد انهدام

فالأحياء والموت ، والشيد والانهدام اللفاظ واردة على سبيل
المجاز لا الحقيقة •

وما كان أحد طرفيه حقيقة والآخر مجازا ، ومن هذا قول الشاعر :

لا تعجبي يا سلم من رجس ضحك المشيب برأسه فبكي

فطابق بين ضحك وبكى والأول من قبيل المجاز والثانى من قبيل
الحقيقة ، ويسمى هذا « ايهام التضاد » •

والطباق باعتبار الاثبات والنفى على قسمين : طباق الايجاب
وطباق السلب •

فطباق الايجاب ما كان طرفاه مثبتين معا أو منفيين معا •

وكل الأمثلة التى قدمناها من طباق الايجاب المثبت ، ومنه أيضا

قوله تعالى « والله يقبض ويبسط واليه ترجعون » (٢٤) ، فبين يقبض ويبسط طباق ايجاب مثبت ، يبين أن سعة الرزق وضيقة بقدره الله تعالى ، ويعطى ما فى صدر الآية من ان الله تعالى يعطى المنفقين فى سبيله أضعافا كثيرة •

ومن طباق الايجاب المنفى قوله تعالى : « ثم لا يموت فيها ولا يحيا » (٢٥) ، فوقع الطباق بين طرفين منفيين معا ، ولو كان أحدهما مثبتا ما وجدت المطابقة • ومنه قوله تعالى : « ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم » (٢٦) ، ففيه طباق بين منفيين « لا ينفعهم » و « لا يضرهم » •

وقد اجتمع اللونان فى قول الفرزدق :

لعن الاله بنى كليب انهم لا يغدرون ولا يفون لجار
يستيقظون الى نهيق حمارهم وتنام أعينهم عن الأوتار

ففى البيت الأول طباق ايجاب منفى بين « لا يغدرون » و « لا يفون » ، وفى البيت الثانى طباق ايجاب مثبت بين « يستيقظون » و « تنام » ، وقد اشتمل البيت الآون على لونين من ألوان الاطناب بجانب المطابقة ، أشار اليهما الخطيب القزوينى فقال : وفى البيت الأول « تكميل » (٢٧) حسن اذ لو اقتصر على قوله « لا يغدرون » لاحتمل الكلام ضربا من المدح ، اذ تجنب الغدر قد يكون عن عفة ، فقال « لا يفون » ليفيد أنه للعجز ، كما أن ترك الوفاء للأوم ، وحصل مع ذلك

(٢٤) البقرة آية ٢٤٥ •

(٢٥) الأعلى آية ١٣ •

(٢٦) الفرقان آية ٥٥ •

(٢٧) التكميل : ان يؤتى فى كلام يومهم خلاف المقصود بها يدفعه •

« ايغال » حسن ، لانه لو اقتصر على قوله « لا يغدرون ولا يفون » تم
المعنى الذى قصده ، ولكنه لما احتاج الى القافية أفاد بها معنى زائدا
حيث قال : « لجار » لان ترك الوفاء للجار أشد قبحا من ترك الوفاء
لغيره (٢٩) .

وطباق السلب هو الجمع بين فعلى مصدر واحد أحدهما مثبت
والآخر منفى ، أو الجمع بين فعلين أحدهما أمر والآخر نهى .

فمن النوع الأول قوله تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون
والذين لا يعلمون » (٣٠) ، فبين « يعلمون و لا يعلمون » طباق سلب
والأول مثبت والآخر منفى .

ومنه قول السموعل :

ونفكر ان شئنا على الناس قولهم

ولا ينكرون القول حين نقول

وقول البحترى :

يقيض لى من حيث لا أعلم النوى

ويسرى الى الشوق من حيث أعلم

وقول زهير :

أخو ثقة لا يهلك الخمر ماله

ولكنه قد يهلك المال نائله

(٢٨) الايغال : ختم الكلام بما يفيد نكته يتم المعنى بدونها .

(٢٩) الايضاح ١٠/٦ .

(٣٠) الزمر آية ٩ .

وقول أبي الطيب :

ولقد عرفت وما عرفت حقيقة

ولقد جهلت وما جهلت خمولا

ومن النوع الثانى قوله تعالى : « فلا تخشوا الناس واخشون » (٣١) ، فبين « لا تخشوا و اخشون » طباق سلب والأول نهى والثانى أمر • وقوله تعالى : « اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء » (٣٢) ، فبين « اتبعوا و لا تتبعوا » طباق سلب ، والأول أمر والثانى نهى •

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « كونوا للعلم وعادة ولا تكونوا له رواة » (٣٣) ، فطابق بين كونوا ولا تكونوا والأول أمر والثانى نهى •

والطابق باعتبار موقع التضاد على قسمين : طباق لفظى وهو ما كان التضاد فيه واقعا بين الأنفاظ كالأمثلة التى قدمناها ، وطباق معنوى وهو الذى يتم فيه الجمع بين الشئ وضده فى المعنى لا فى اللفظ ، كقوله تعالى « الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء » (٣٤) ، ففيه مطابقة معنوية بين « فراشا و بناء » ولا تضاد بينهما فى اللفظ ، انما التضاد بينهما فى المعنى اذ البناء رفع للمبنى ، فمعناه مضاد للفراش الذى هو على خلاف البناء •

ومنه قوله تعالى : « ان أنتم الا تكذبون ، قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون » (٣٥) ، فالمعنى : ربنا يعلم انا لصادقون (٣٦) • وهذا مضاد للحكم عليهم بالكذب •

-
- (٣١) المائدة آية ٤٤
 - (٣٢) الأعراف آية ٣
 - (٣٣) الجامع الصغير ١٧/٢
 - (٣٤) البقرة آية ٢٢
 - (٣٥) يس آية ١٥ ، ١٦
 - (٣٦) معترك الأقران ٤١٥/١

ومنه قون المقنع الكندي :

نهم جل مالى ان تتابع لى غنى
وان قل مالى لا اكلفهم رفدا

ففيه طباق معنوى بين « تتابع وقل » لان تتابع بمعنى كثر
والكثرة ضد القلة • ونحوه قول الشاعر :

فان تقتلونى فى الحديد فاننى
قتلت اخاكم مطلقا لم يقيد

فقوله « فى الحديد » يعنى أنه مقيد ، وهو مضاد لطلق ، فبينهما
طباق معنوى •

ومن الطباق لون يسمى « التدبيج » من دبج المطر الأرض أى
زينها ، وهو : أن يذكر فى معنى من المدح أو غيره ألوان بقصد الكناية
أو التورية ، فأما تدبيج الكناية فكتوله تعالى : « ومن الجبال جدد بيض
وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود » (٣٧) فان المراد بذلك — والله
أعلم — الكناية عن المشتهى والواضح من الطرق ، لان الجادة البيضاء
هى للطريق الملبوب التى كثر السلوك عليها جدا ، وهى أوضح الطرق
وبينها ، ولهذا قيل ركب بهم المحجة البيضاء ، ودونها الحمراء ، ودون
الحمراء السوداء ، التى كأنها فى الخفاء والالتباس ضد البيضاء فى
الظهور والوضوح •

ولما كانت هذه الألوان الثلاثة فى الظهور للعين طرفين وواسطة
بينهما ، فالطرف الأعلى فى الظهور : البياض ، والطرف الأدنى فى الخفاء
السواد ، والأحمر بينهما ، على حكم وضع الألوان فى التركيب ، وكانت
ألوان الجبال لا تخرج عن هذه الألوان الثلاثة ، والهداية بكل علم نصب

للهداية منقسمة هذه القسمة ، أتت الآية الكريمة على هذا التقسيم ،
فحصن فيها التدبيج ، وصحة التقسيم (٣٨) ، وهى مسوقة للاعتداد
بالنعم على ما هدت اليه من السعى فى طلب المصالح والمنافع ، وتجنب
المعاطب والمهالك الدنيوية والأخروية : (٣٩) .

ومنه قول أبى تمام فى مرثية محمد بن حميد ، وقد مات شهيدا :

تردى ثياب الموت حمرا فما أتى

لها الليل الا وهى من سندس خضر

يقصد أنه لبس الثياب الملطخة بالدم حين قتل ، ولم يدخل عليه
الليل حتى صارت تلك الثياب سندسا أخضر ، فكنى بجمرة الثياب عن
القتل ، وكنى بخضرتها عن دخول الجنة ، وبين اللونين طباق التدبيج .

ومنه قول ابن حيوس :

فافخر بعم عم جود يمينه وأب لأفعال الدنية أبى
ببياض عرض واحمرار صوارم وسواد نقع واخضرار رحاب

فطابق بين البياض والاحمرار والسواد والاخضرار وهى ألوان
مذكورة على سبيل الكناية ، فبياض العرض كناية عن الشرف والفضيلة ،
واحمرار الصوارم كناية عن كثرة القتل بها ، وسواد النقع كناية عن
شدة الحرب ، واخضرار الرحاب كناية عن طيب العيش ورغده .

وأما تدبيج التورية فقد جاء فى قول الحريرى (٤٠) ، فمذ ازور

(٣٨) التقسيم من اللون البديع وهو نكر متعدد ثم اضافة ما لكل اليه
على التعيين .

(٣٩) بديع القرآن ٢٤٢ .

(٤٠) شرح مقامات الحريرى ٤١/٢ .

المحبوب الأصفر ، واغبر العيش الأخضر ، اسود يومى الأبيض ،
و ابيض فودى الأسود ، حتى رثى لى العدو الأزرق ، فيا حبذا الموت
الأحمر • فجمع بين ألوان مختلفة ، والأول منها مذكور بقصد التورية ،
فالمحبوب الأصفر له معنيان : معنى قريب : وهو محبوبه الموصوف
بالصفرة ، ومعنى ازوراره : ميله عنه وعدم اتصاله به ، ومعنى بعيد :
وهو الذهب ، وهذا المعنى هو المقصود • وأما الألوان الأخرى فمذكورة
على سبيل الكناية ، فاغبرار العيش كناية عن ضيقه ونقصانه ، واخضراره
كناية عن طيبه ونعومته ، وسواد اليوم كناية عن الحزن والغم ، وبياضه
كناية عن السرور والفرح ، والفود : شعر جانب الرأس وبياض الفود
كناية عن كثرة الهموم والأحزان ، ووصف العدو بالزرقة كناية عن شدة
عداوته ، ووصف الموت بالحمرة كناية عن شدته • وعلى هذا ففى قول
الحريرى تدبيج التورية وتدبيج الكناية •

ومن الطباق نوع يسمى « طباق الترديد » وهو أن ترد آخر الكلام
المطابق على أوله ، فان لم يكن الكلام مطابقا فهو من رد الاعجاز على
الصدور ، ومنه قول الأغشى :

لا يرقع الناس ما أوهوا وان جهدوا

طون الحياة ولا يوهون ما رقعوا (٤١)

فطابق بالسلب بين لا يرقع ورقعوا ، وبين أوهوا ولا يوهون ،
ورد آخر الكلام المطابق على أوله •

ويدخل فى الطباق ما كان التضاد فيه خفيا محتاجا الى تأويل وهو
قسمان :

أحدهما : الجمع بين معنيين لا يتنافيان فى ذاتهما ، ولكن يتعلق

أحدهما بما يقابل الآخر بسببية أو لزوم أو نحوهما • مثال ذلك قوله تعالى : « أشدء على الكفار رحماء بينهم » (٤٢) ، فان الرحمة ليست ضد الشدة ، ولكنها مسببة عن اللين الذى هو ضدها ، فلما ذكر المتسبب عن أحد الضدين كان ذكره مع الضد الآخر كالطباق ومن ثم ألحق به •

ومنه قوله تعالى : « مما خطيأتهم أغرقوا فأدخلوا نارا » (٤٣) ، ففيه طباق بين « أغرقوا وأدخلوا نارا » وادخال النار ليس مضادا للاغراق ، ولكنه يستلزم الاغراق المضاد للاغراق • ومنه قوله تعالى : « الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا » (٤٤) ، فالنار تستلزم اللون الأحمر ، فكأنه جمع بين الأخضر والأحمر وهو طباق التدييح (٤٥) •

قال الخطيب : ومن فاسد هذا الضرب قول أبى الطيب :

لمن تطلب الدنيا اذا لم ترد بها

سرور محب أو اساءة مجرم

فان ضد المحب هو المبغض ، والمجرم قد لا يكون مبغضا ، وله

وجه بعيد (٤٦) •

وفسر السبكى هذا الوجه بأن بين الاجرام والبغض تلازما ادعائيا، كأنه يشير الى أن المجرم لا يكون الا مبغضا له ، لمنافاة حاله حال المجرم (٤٧) ، ومثن هذا كلمة « اساءة » فانها ليست ضد السرور ولكن يوجد بينها وبين الحزن الذى هو ضد السرور تلازم •

(٤٢) الفتح آية ٢٩ •

(٤٣) نوح آية ٢٠ •

(٤٤) يس آية ٨٠ •

(٤٥) أنظر البرهان ٤٥٧/٣ •

(٤٦) الايضاح ٢٤/٦ •

(٤٧) عروس الأفراح ٢٩٥/٤ •

وبهذا الوجه تكون المطابقة في بيت أبي الطيب لا غبار عليها ،
خصوصا انهم يعتقدون في المطابقة بوجود وجه من التقابل ولو كان
بتأول • ومما ينبغي اللفت اليه أن هذا البيت يعتبر مثلا للمقابلة حسب
تعريف الخطيب لها ففي جعله من الطباق نظر ، وان كان قد عد المقابلة
نوعا من الطباق كما سيأتي :

والثاني : الجمع بين معنيين غير متقابلين عبر عنهما بلفظين يتقابل
معناهما الحقيقيان ، ويسمى هذا « ايهام التضاد » ومنه قول دعبل
الخرزاعي :

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكي

فقد جمع بين الضحك والبكاء ، وضحك المشيب معناه ظهوره
وانتشاره ، وهذا المعنى المقصود لا يضاد البكاء ، ولكن الذي يضاد
البكاء هو المعنى الحقيقي للضحك ، فبين الكلمتين تضاد في المعنى الحقيقي
لا في المعنى المراد في البيت •

ومثله قول أبي تمام في الشيب :

له منظر في العين أبيض ناصع
ولكنه في القلب أسود أسفع

فالسواد هنا استعارة لما يحدثه الشيب في النفس من هم وحزن ،
وهذا المعنى المقصود لا يضاد البياض ، انما ضده هو السواد الحقيقي •

ترشيح الطباق :

قالوا ومجرد الجمع بين المتضادين في الكلام أمر ميسور ، فينبغي
أن يرشح الطباق بلون آخر من ألوان البديع يشاركه البهجة والرونق
ويزيد من حسن الكلام وفخامة المعنى (٤٨) •

تجد ذلك في قوله تعالى : « تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب » (٤٩) ، فقد رشح الطبايق بلونين هما العكس والتكميل ، قال ابن حجة الحموي : ففي العطف بقوله تعالى : « وترزق من تشاء بغير حساب » دلالة على أن من قدر على تلك الأفعال العظيمة قدر على أن يرزق بغير حساب من شاء من عباده ، وهذه مبالغة التكميل المشحونة بقدرته الرب سبحانه وتعالى ، فانظر الى عظم كلام الخالق هنا ، فقد اجتمع فيه المطابقة الحقيقية ، والعكس الذي لا يدرك ، لوجازته وبلاغته ومبالغة التكميل التي لا تليق بغير قدرته (٥٠) .

وفي قوله تعالى : « هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا » (٥١) ، وقعت المطابقة بين الخوف وانطمع ، ورشحت بالتقسيم البديع الذي أضفى عليها فخامة وجعل الحكم جامعا قاطعا ، اذ ليس في رؤية البرق الا الخوف من الصواعق ، والطمع في الأمطار ، ولا ثالث لهذين القسمين .

ومن ذلك قول امرئ القيس :

مكر مفر مقبل مدبر معا

كجلمود صخر حطه السيل من عل

فطابق بين الكر والفر ، والاقبال والادبار ، ورشح الطبايق بالتكميل في قوله « معا » فزاده تكميلا في غاية الكمال ، حيث دل بذلك على قرب الحركة في جميع الحالات ، ولو ترك المطابقة مجردة من هذا التكميل ما حصل لها هذا الموقع ولا كانت بهذه البهجة ، ثم انه استطرده بعد تمام المطابقة وكمال التكميل الى التشبيه على سبيل الاستطراد

(٤٩) آل عمران آية ٢٧ .

(٥٠) خزافة الأدب ١/١٦١ .

(٥١) الرعد آية ١٢ .

البديعى ، وبذلك اشتمل قوله على المطابقة والتكميل والاستطراد (٥٢) .

ومنه قول أبى تمام :

بيض الصفائح لا سود الصحائف في
متونهن جلاء الشك والريب

حيث رشح الطباق بالجناس فجمع بين المعانى المتضادة والألفاظ المتجانسة ، وأفرغ الكلام في قالب القصر ، ، فجاءت عبارته فخمة ذات معنى قوى محدد .

بلاغة الطباق :

والطباق لون بديعى فطرى يشيع في أساليب العامة والخاصة ، بناء على ما هو مركز في الطباع من مقارنة بين الأضداد وموازنة بين المتقابلات . نظراً لكثرتها أمام الأنظار في مشاهد الكون، ومظاهر الحياة، وصفات الخلائق على اختلاف ألوانها، وهو من الفنون التى تربط الكلام ببعضه عن طريق علاقة التضاد ، فالضد أقرب خطورا بالبال عند ذكر ضده .

وللطباق شعب خفية ، وفيه مكان تغمض ، وربما التبتت بها أشياء لا تتميز إلا للنظر الثاقب ، والذهن اللطيف (٥٣) .

ولذلك فان بلاغة الطباق لا تكمن في مجرد الجمع بين المعانى المتقابلة والألفاظ المتضادة ، فهذه حلية شكلية وزخرفة لفظية ، لا تقاس بها جودة الاسلوب ولا تقدر بها قيمته .

وانما ترجع بلاغة الطباق الى تأثيره في ناحيتين :

(٥٢) انظر خزانة الادب ١/ ١٦١ .

(٥٣) الوساطة ٤٤ .

ناحية لفظية : وذلك بمجيئه في الاسلوب سلسا طيعا غير متكلف ،
فيخلع عليه جزالة وفخامة ، ويجعل له وقعا جميلا مؤثرا •

وناحية معنوية : بما يحققه من ايضاح المعنى واظهاره ، وتأكيده
وتقويته ، عن طريق المقارنة بين الضدين ، وتصور أحد الضدين فيه
تصور للآخر ، وعلى هذا فالذهن عند ذكر الضد يكون مهيا للآخر
ومستعدا له ، فاذا ورد عليه ثبت وتأكد فيه •

وينبغي أن يكون الأثر المعنوي للطباق هو القائد اليه ، والدافع
نحوه ، وقد أكد الامام عبد القاهر على الاضافة المعنوية للطباق وسائر
فنون البديع ، وجعل عليها مدار الحسن والقبح فقال : وأما التطبيق
والاستعارة وسائر أقسام البديع ، فلا شبهة أن الحسن والقبح لا يعترض
الكلام بهما الا من جهة المعاني خاصة ، من غير أن يكون للألفاظ في ذلك
نصيب ، أو يكون لها في التحسين أو خلاف التحسين تصعيد وتصويب ••
والتطبيق أمره أبين وكونه معنويا أجلى وأظهر ، فهو مقابلة الشيء
بضده ، والتضاد بين الألفاظ المركبة محال ، وليس الأحكام المقابلة
ثم مجال (٥٤) •

وقد يأتي الطباق مصنوعا متكلفا ، لا طائل تحته ، ولا محصول
وراءه ، وذلك عندما يتعمد القائل توشية كلامة بالصبغ البديعي دون
نظر الى ما يحققه من قيمة في الاسلوب ، وحيثما جاء الطباق بهذه
الصورة فهو طباق معيب ، لانه صار مجرد حلية شكلية وتلاعب لفظي ،
وبلاغة الكلام بمنأى عن ذلك • ولذا رأينا النقاد يعيرون كثيرا من الأقوال
التي سرت فيها المطابقة المتكلفة فأفسدتها ، وأخرجتها عن نطاق البلاغة •

من ذلك قول الأخطل :

قلت المقام وناعب قال النوى فعصيت أمرى والمطاع غراب

اذ قالوا : ان هذا من غث الكلام وبارده (٥٥) • وما ذاك الا لان
الشاعر تعمد المطابقة فأجهد نفسه في الاتيان بها غير عابىء بما أحدثته
من ثقل وقلق فى البيت ، فجاء جسدا بلا روح •

وشبيهه بهذا قور أبى تمام :

قد لان أكثر ما تريد وبعضه خشن وانى بالنجاح لوائح

فأغرى بالمطابقة بين « لان و خشن » مع قبحها وعدم حاجة المعنى
اليها وضد الليونة الشدة أما الخشونة فهي مضادة للنعومة •

ونحوه قوله :

وان خفرت أموال قوم أكفهم

من النيل والجدوى فكفاه مقطع

فتكلف الطباق بين « خفر و مقطع » وهى مطابقة رديئة ، بجانب
افسادها للمعنى فهو يقول : اذا كانت يد الرجل كالخفير لانه تحفظه من
السؤال ، فكفاه مقطع ، أى يقطع. فيهما الطريق على المال ، لان العادة
جارية بأن المال يؤخذ فى قطع الطريق (٥٦) •

ومن هذا قول الشاعر فى القاسم بن عبيد الله :

من كان يعلم كيف رقة طبعه

هو مقسم أن الهواء ثخين

فتكلف المطابقة بين « رقة و ثخين » وهى مطابقة فاسدة ، بجانب
ما فى المعنى من احالة •

المقابلة

وهي لغة المواجهة والمعارضة تقون : قابلت الشيء بالشيء مقابلة
اذا عارضته به وواجهته • وفي اصطلاح البلاغيين : أن يؤتى بمعنيين
متوافقين أو أكثر ثم بما يقابل ذلك على الترتيب (١) •

والمراد بالتوافق خلاف التقابل والتتسافي ، فيشمل المتناسبين
كالشمس والقمر ، والمتماثلين في أصل الحقيقة مع عدم التناسب في
المفهوم كمصدق القائم والانسان ، والخلافيين كالانسان والطائر (٢) •
ومن مشهور أمثلتها قوله تعالى : « فليضحكوا قليلا وليبكوا
كثيرا » (٣) •

فالضحك واقله معنيان متوافقان ، والبكاء والكثرة كذلك ، وتوابع
بين الطرفين على الترتيب ، فالبكاء يقابل الضحك والكثرة تقابل القلة •
وأكثر البلاغيين يجعلون المقابلة لونا مستقلا من ألوان اليديع ،
ويبحثونها في باب خاص بها ، وخالفهم الخطيب القزويني في ذلك فأدخلها
في الطباق وجعلها قسما منه •

ونؤيد رأي الجمهور في جعل المقابلة لونا مستقلا يختلف عن
الطباق ، وقد فرق ابن أبي الاصبغ بينهما من وجهين :

الأول : أن المطابقة لا تكون الا بالجمع بين ضدين ، والمقابلة تكون
غالبا بالجمع بين أربعة أضداد ، ضدان في صدر الكلام وضدان في عجزه ،

(١) الايضاح ١٦/٦ •

(٢) شروح التلخيص ٢٩٧/٤ •

(٣) التوبة آية ٨٢ •

• وتبلغ الى الجمع بين عشرة اُضداد : خمسة في الصدر وخمسة في العجز •

والثانى : أن المطابقة لا تكون الا بالاضداد ، والمقابلة تكون

بالاضداد وبغير الاضداد (٤) •

وفرق العلامة عبد الحكيم بينهما من وجه آخر دقيق مؤيدا نظرة السكاكى في جعل المقابلة لونا مستقلا فقال : ان الطباق يحصل فيه التوافق بعد التناقى ، ولذا سمي بالطباق ، وفي المقابلة يحصل التناقى بعد التوافق ، ولذا سمي بالمقابلة ، وفي كليهما ايراد المعنيين بصورة غريبة ، فكل منهما محسن بانفراده ، واستلزام أحدهما للآخر لا يستلزم دخوله فيه فالحق مع السكاكى رحمه الله (٥) •

وحاصل كلامه أن الطباق يحصل فيه جمع وتوافق بين صفتين متنافيتين متضادتين كالحياة والموت ، والضحك والبكاء ، أما المقابلة فتأتى فيها المعانى متوافقة أولا ثم يحصل بينها التناقى والتضاد بسبب الجمع ، فالضحك والقلة متوافقان والبكاء والكثرة متوافقان ، ثم حصل بين الطرفين تنافى بعد الجمع بينهما • فكل من الطباق والمقابلة يختلف عن الآخر في شكله ومضمونه ، وهذا ما يؤكد على استقلال كل منهما •

صور المقابلة :

وتتنوع المقابلة بحسب المعانى التى تتضمنها كما يلى :

١ — مقابلة معنيين بمعنيين كقوله تعالى فى شأن فرعون « يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم » (٦) فاستحياء النساء يقابل تذبيح الأبناء •

(٤) تحرير التحبير ١٧٩ •

(٥) حاشية عبد الحكيم ٤٩٣ •

(٦) القصص آية ٤ •

وقوله تعالى : « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » (٧) ، فالنهي عن المنكر يقابل الأمر بالمعروف • وقوله تعالى « قد أفلح من زكاه ، وقد خاب من دساها » (٨) ، فخاب يقابل أفلح ، ودساها يقابل زكاه • ومعنى زكاه : نماها بالعلم والعمل ، ومعنى دساها : نقصها وأخفاها بالجهالة والفسوق (٩) •

ونحو ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « ان الرفق لا يكون في شيء الا زانه ، ولا ينزع من شيء الا شانه » ففيه مقابلة بين لا يكون في شيء ولا ينزع من شيء ، وزانه وشانه • ونحوه توقيع الرشيد في نكبة البرامكة : « أنبتهم الطاعة وحصدتهم المعصية » • فقاب بين الانبات والحصد ، والطاعة والمعصية • ومن هذا قول الشاعر :

فتى تم فيه ما يسر صديقه على أن فيه ما يسوء الأعدايا

فقابل بين يسر صديقه ويسوء الأعدايا • ونحوه قول الآخر :

فوا عجا كيف اتفقتنا فناصر وفي ومطوى على الغل غادر

فالغل يقابل الناصر ، والغدر يقابل الوفاء •

٢ — مقابلة ثلاثة معان بثلاثة معان ، كقوله تعالى : « ان تمسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها » (١٠) ، ففيه مقابلة بين تمسكم وتصبكم ، وحسنة وسيئة ، وتسؤهم ويفرحوا • وقوله تعالى في صفة الرسول صلى الله عليه وسلم : « ويحب لهم الطيبات ويحرم

(٧) التسوية آية ١١٢ .

(٨) الشمس آية ٩ ، ١٠ .

(٩) تفسير البيضاوي ٧٤٢ .

(١٠) آل عمران آية ١٢٠ .

عليهم الخبائث « (١١) • فيه مقابلة بين يحل ويحرم ، ولهم وعليهم ، والطيبات والخبائث • وقوله تعالى : « وأزلفت الجنة للمتقين ، وبرزت الجحيم للغاوين » (١٢) فيه مقابلة بين أزلفت وبرزت ، والجنة والجحيم ، والمتقين والغاوين •

ومن هذه الصورة قول ابراهيم الصابي : « وأعد لحسنهم الجنة وثوابا ، ولمسيئهم نارا وعقابا » فقابل بين المحسن والمسيء والجنة والنار والثواب والعقاب •

ومنها قول أبي دلالة :

ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا

وأقبح الكفر والافلاس بالرجل

فجعل القبح والكفر والافلاس في مقابلة الحسن والدين واليسار المعبر عنه بالدنيا •

وقول أبي الطيب :

فلا الجود يفنى المال والجد مقبل

ولا البخل يبقى المال والجد مدبر

فوضع البخل ويبقى ويدبر في مقابلة الجود ويفنى ومقبل •

٣ — مقابلة أربعة معان بأربعة معان ، كقوله تعالى : « فأما من أعصى وأتقى ، وصدق بالحسنى ، فبنيسره لليسرى ، وأما من بخل

(١١) الأعراف آية ١٥٧ .
(١٢) الشعراء آية ٩٠ ، ٩١ •

واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسه للعسرى « (١٣) ، فبخل
يقابل أعطى ، واستغنى يقابل اتقى ، وكذب يقابى صدق ، والعسرى
يقابل اليسرى • والتقابل بين استغنى واتقى معنوى ، فالمراد باستغنى :
زهد فيما عند الله كأنه مستغن عنه فلم يتق ، أو استغنى بشهوات الدنيا
عن نعيم الجنة فلم يتق (١٤) •

ومنها قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى وصيته عند الموت :
هذا ما أوصى به أبو بكر ، عند آخر عهده بالدنيا خارجا منها ، وأول
عهده بالآخرة داخل فيها • فقابل أولا بآخر ، والدنيا بالآخرة ، وخارجا
بداخل ومنها بفيها •

ومن هذا قول جرير :

وباسط خير فيكم بيمينه وقابض شر عنكم بشماليا

فقابل بين البسط والقبض ، والخير والشر ، وفيكم وعنكم ،
واليمين والشمال •

ونحوه بيت ابن حجة فى بديعته :

قابلتهم بالرضا والسلم منشرحا ولوا غضابا فيا حربى لغيظهم

فقابل بين المقابلة والتولية ، والرضا والغضب ، والسلم والحرب ،
والانشراح والغيظ • والمقابلة فى بيت ابن حجة متكلفة مصنوعة ، ومن
ثم تراها ثقيلة غير مقبولة على خلاف ما تقدمها من مقابلات •

٤ — مقابلة خمسة معان بخمسة معان ، ومثلوها بقول أبى الطيب :

(١٣) الليل آية ٥ — ١٠ •

(١٤) الايضاح ١٨/٦ •

أزورهم وسواد الليل يشفع لى وأنثنى وبياض الصبح يعرى بى

فتقابل بين أزور وأنثنى ، وسواد وبياض ، والليل والصبح ، ويشفع ويعرى (١٥) ، ولى وبى • وذكر الخطيب موازنة بين هذا البيت وبين بيت أبي دلامة السابق فقال : وقد رجح بيت أبي الطيب على بيت أبي دلامة بكثرة المقابلة ، مع سهولة النظم ، وبأن قافية هذا ممكنة ، وقافية ذاك مستدعاة ، فإن ما ذكره غير مختص بالرجاء ، ورجح بيت أبي دلامة على بيت أبي الطيب بجودة المقابلة ، فإن ضد الليل المحض النهار لا الصبح (١٦) •

ونرى أن ما أخذ على أبي الطيب في المقابلة بين الليل والصبح يؤخذ على أبي دلامة في موضعين فقد قابل بين الدين والكفر ، ومقابل الكفر الايمان ، كما قابل بين الدنيا والافلاس ، ومقابل الافلاس الغنى واليسار • وبذلك لا يبقى لبيت أبي دلامة ما يرجحه ، ويظل بيت أبي الطيب في غاية الحسن ، وقد أثنى عليه كثير من النقاد وجعلوه أمير شعره (١٧) ، كما عد أفضل بيت في المقابلة (١٨) •

ومن هذا قول النابغة يصف همرا وأقانا وحشيين :

إذا هبتا سهلا أثارا عجاجة

وان علوا حزنا تشظت جنادل (١٩)

(١٥) لما كان الليل يستره عن الرقباء جعله تشقيما له ، ولما كان الصبح يفضحه ويشهره جعله مغريبا به ، وعلى هذا كان التقابل بينهما •
(١٦) الايضاح ١٨/٦ •
(١٧) يتيمة الدهر ١٧٧/١ •
(١٨) المصباح ١٩٠ •
(١٩) عجاجة : غبارا كثيفا ، وتشظت : تكسرت فصسارت شظايا ، والجنادل : الحجارة •

فقابل بين اذا وان ، وهبطا وعلوا ، وسهلا وحزنا ، وأثارا
وتشظت ، وعجاجة وجنادل •

ومن هذا قول صفي الدين الحلبي في بديعيته :

كان الرضا بدنوى من خواطرهم

فصار سخطى لبعدي عن جوارهم

فقابل بين كان وصار ، والرضا والسخط ، والدنو والبعد ، ومن
وعن ، وخواطرهم وجوارهم (٢٠) وعلى كثرة المقابلات في البيت تراه
جافيا جاسيا ، لانه لم يصدر عن طبع بل صدر عن صنعة عمادها تكلف
اللون البديعي •

٥ — مقابلة ستة معان بستة معان كقول عنتره :

على رأس عبد تاج عز يزينه

وفي رجل حر قيد ذن يشينه

فقابل كل كلمة في الشطر الثاني بكل كلمة في الشطر الأول على
الترتيب • وهذا غاية ما وجد في شعرهم من مقابلات •

وقد توسع كثير من البلاغيين في مفهوم المقابلة ، فرأوا أنها تتحقق
بمقابلة الاضداد ، وغير الاضداد ، وبالموافق ، والمخالف • كل مع
شكله وافقه (٢١) •

وجعل أبو هلال منها نوعا معنويا هو مقابلة الفعل بالفعل ، كما في

(٢٠) شرح الكافية البديعية ٧٥ .
(٢١) أنظر نقد الشعر ١٤١ ، ١٩٣ ، والصناعتين ٢٦٤ ، والعمدة
١٥/٢ ، وبديع القرآن ٧٣ ، وغيرها .

قوله تعالى : « نسوا الله فَنَسِيَهُمْ » (٢٢) ، وقوله تعالى : « ومكروا مكرا ومكرنا مكرا » (٢٣) ، فالمكر من الله تعالى العذاب ، جعله الله عز وجل مقابلة لمكرهم بأنبيائه وأهل طاعته (٢٤) • وقد سبق قدامة الى ذكر بعض أمثلة هذا النوع دون أن يذكر اسمه (٢٥) • ومضى على ذلك ابن رشيق وابن سنان (٢٦) •

وقال حازم مشيرا الى المقابلة المعنوية : ومن ضروب المقابلة قول تأبط شرا :

أهز بها في ندوة الحى عطفه .

كما هز عطفى بالهجان الأوارك

فقابل هز عطفه بالمنحة بهز عطف ممدوحه بالمدح (٢٧) •

وعرض ابن الأثير لهذا النوع من المقابلة وأطلق عليه مقابلة الشيء بمثله ، وعلى نهجه مضى العلوى والزركشى (٢٨) • وهذا اللون من الكلام لا يدخل في المقابلة الاصطلاحية ، وإنما هو مقابلة لغوية تقوم على مقابلة فعن بفعل مماثل له ، وكثير من أمثله داخل في المشاكلة •

وجعل ابن رشيق من المقابلة لونا سماه الموازنة وهو ما ليس مخالفا ولا موافقا الا في الوزن والإزدواج كقول أبي الطيب :

-
- (٢٢) التوبة آية ٦٧ .
(٢٣) النمل آية ٥٠ .
(٢٤) الصناعتين ٢٦٤ .
(٢٥) انظر نقد الشعر ١٤٢ .
(٢٦) انظر العمدة ١٦/٢ ، وسر الفصاحة ٢٥٨ .
(٢٧) منهاج البلغاء ٥٤ . والهجان الأوارك : الإبل التى ترعى شجر الأراك .
(٢٨) انظر المثل السائر ٢٨٩ ، والطرز ٣٨٩/٣ ، والبرهان ٤٦١/٣ .

نصيبك في حياتك من حبيب يصيبك في منامك من خيال
فوازن قوله : « في حياتك بقوله في منامك » وليس بضده ولا موافقة
وكذلك صنع في الموازنة بين حبيب وخيال • ومن أملح شواهد الموازنة
قول ذي الرمة :

أستحدث الركب عن أشياعهم خبرا

أم راجع القلب من أطرابه طرب ؟

لان قوله « أستحدث الركب » موازن لقوله « أم راجع القلب »
وقوله « عن أشياعهم خبرا » موازن لقوله « من أطرابه طرب » وكذلك
« الركب موازن للقلب » و « عن موازن لمن » و « أشياعهم موازن
أطرابه » و « خبرا موازن لطرب » (٢٩) •

وهذا التوسع في مفهوم المتابلة لدى كثيرين من علماء البلاغة
يقابله ضيق وتشدد في مفهومها لدى السكاكي والخطيب ومن سلك
سبيلهما ، فربما لا تتم عندهم الا بمقابلة الاضداد وما يلحق بها ، وعليه
فالمقابلة بين غير الاضداد ، والمقابلة المعنوية ، والموازنة ، لا تدخل
عندهم في باب المقابلة • وترتب على هذا وجود شواهد للمقابلة عند
المتوسعين في مفهومها لا تعد من باب المقابلة حسب رأى السكاكي
والخطيب ، من ذلك قوله تعالى : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار
لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله » (٣٠) ، فقد جعلها ابن رشيقي من
معجز المقابلة (٣١) ، وعدها ابن أبي الاصبع كذلك ، وحللها تحليلا بديعيا
جيذا ، نجد لزاما علينا ذكره — رغم طوله — لنظهر بعض جهود السابقين
في دراسة بديع القرآن •

(٢٩) العمدة ١٩/٢ ، ٢٠ •

(٣٠) القصص آية ٧٣ •

(٣١) انظر العمدة ١٧/٢ •

قان ابن أبي الاصبع : ومن معجز المقابلة في القرآن الكريم قوله تعالى : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله » فانظر الى مجيء الليل والنهار في صدر الكلام ، وهما ضدان ، ومجيء السكون والحركة في عجز الكلام ، وهما ضدان ، ومقابلة كل طرف منه بالطرف الآخر على الترتيب ، وكيف عبر سبحانه عن الحركة بلفظ الازداف ، فاستلزم الكلام ضربا من المحاسن زائدا على المقابلة ، والذي أوجب العدول عن لفظ الحركة الى لفظ ابتغاء الفضل كون الحركة تكون لمصلحة ولمفسدة ، وابتغاء الفضل حركة للمصلحة دون المفسدة ، وهي تشير الى الاعانة بالقوة ، وحسن الاختيار ، الدال على رجاحة العف وسلامة الحس ، ويستلزم اضاءة الظرف الذي تلك الحركة المخصوصة واقعة فيه ، ليهتدى المتحرك الى بلوغ المآرب ووجوه المصالح ويتقى أسباب المعاطب ، والآية سيقت للاعتداد بالنعمة ، فوجب العدول عن لفظ الحركة الى لفظ هو ردفه وتابعه ، ليتم حسن البيان ، فتضمنت هذه الكلمات التي هي بعض آية عدة من المنافع والمصالح التي لو عددت بألفاظها الموضوعية لها لاحتاجت في العبارة عنها الى ألفاظ كثيرة ، فحصل في الكلام بهذا السبب عدة ضروب من المحاسن ، ألا تراه سبحانه جعل العلة في وجود الليل والنهار حصول منافع الانسان حيث قال « لتسكنوا ولتبتغوا » بلام التعليل ، فجمعت هذه الكلمات : المقابلة — والتعليل — والاشارة — والازداف — والائتلاف — وحسن البيان — وحسن النسق ، لمجيء الكلام فيها متلاحما آخذة أعناق بعضها بأعناق بعض ، ثم أخبر بالخبر الصادق أن جميع ما عدده من النعم بلفظه الخاص ، وما تضمنته العبارة من النعم التي هي من لفظي الاشارة والازداف بعض رحمته ، حيث قال بحرف التبغيض « ومن رحمته » وكل هذا في بعض آية عدتها احدى عشرة لفظة ، فالحظ هذه البلاغة الباهرة ، والفضاحة الظاهرة (٣٢) ، وهذا التحليل الدقيق يجلى لك صورة من صور الاعجاز البلاغى

للقرآن الكريم ، ويوضح لك منهج ابن أبي الاصبع في دراسة البديع
القرآنى وتحليل شواهدة .

وانما جعل ابن أبي الاصبع هذه الآية من قبيل المقابلة لانه
لا يشترط في المعانى المتقابلة أن تكون متوافقة ، بل تتأتى المقابلة عنده
بالمخالف والموافق ، والمضاد وغيره على السواء .

والآية على رأى السكاكى والخطيب لا مقابلة فيها ، لان مدارها
عندهما على الجمع بين المعانى المتوافقة وما يقابلها على الترتيب ، وفي
الآية جمع بين معنيين متقابلين وما يوافقهما على عكس المقابلة ، وعلى
هذا فما في الآية عندهما من قبيل الطباق ، وقد اجتمع فيها طباقان :
الأول : طباق لفظى بين الليل والنهار ، والثانى : طباق معنى بين
لتسكنوا ولتبتغوا ، فان ابتغاء الفض يستلزم الحركة التى هى مضادة
للسكون ، كما أن فى الآية اونا بديعيا آخر هو اللف والنشر ، حيث ذكر
الليل والنهار ، ثم ذكر ما لكل واحد منهما من غير تعيين .

ومذهب السكاكى والخطيب أدق وأضبط وأبعد عن الخلط بين
صور البديع ، وان كنا نميل الى التوسع فى مفهوم المقابلة بما لا يؤدي
الى تداخل الفنون وخالطها ، لنرى المقابلة تضم المشاهد التى تنهض على
الموازنات والمقارنات بين أنماط مختلفة وأصناف متباينة ، وان لم تكن
أطرافها متساوية العدد ، متضادة المعانى ، منظومة على الترتيب .

وعلى هذا فالمشاهد القرآنية فى وصف المؤمنين والكافرين ، والجنة
والنار ، والثواب والعقاب ، والمشاهد التى تصف الآيات الكونية وغيرها
مما يرد على نمط المقارنة والموازنة ، ينبغى أن تنصوى تحت لواء المقابلة،
فقوله تعالى : « ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات
تجرى من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل

الأُنعام والنار مثوى لهم » (٣٣) • وقوله تعالى : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا » (٣٤) • وقوله تعالى : « وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجع النهار نشورا » (٣٥) • وقوله تعالى : « والشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاها ، والنهار اذا جلاها ، والليل اذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها » (٣٦) ، كذ هذا وما يشبهه يدخل فى باب المقابلة دون نظر الى التضاد أو الترتيب أو العدد •

وهذه اشارة يسيرة الى موضوع كبير ينبغى أن يدرس باتقان ، فالنظم القرآنى مشحون بالمشاهد المتقابلة ، والصور التى تقوم على المقارنة والموازنة •

بلاغة المقابلة :

والمقابلة البليغة ما جاءت صحيحة مطبوعة • وصحة المقابلة تتحقق من ترتيب الكلام على ما ينبغى ، فاذا اتى المتكلم فى صدر كلامه بأشياء قابلها فى عجزه بما يلائمها من أصدادها أو أغيارها من المخالف والموافق على الترتيب (٣٧) •

وقد مرت بك أمثلة كثيرة تستطيع أن تتبين فيها ذلك بوضوح •

فاذا قابل القائل أحد المعانى بما لا يخالف الآخر ولا يوافقه فالمقابلة فاسدة لعدم التلاؤم بين المعانى • من ذلك أن يقال : فلان شديد

(٣٣) محمد آية ١٢ •

(٣٤) البقرة آية ٢٦٨ •

(٣٥) الفرقان آية ٤٧ •

(٣٦) الشمس آية ١ - ٦ •

(٣٧) أنظر نقد الشعر ١٤١ ، وبديع القرآن ٧٣ •

البأس ، نقى الثغر ، أو جواد الكف ، ببيض الثوب ، فالمقابلة في المثالين فاسدة ، لان نقاء الثغر لا يخالف شدة البأس ولا يوافقه ، وبياض الثوب لا يخالف جواد الكف ولا يوافقه ، فالمعاني غير متلائمة ، والصحيح أن يقال : فلان شديد البأس عظيم النكاية ، وجواد الكف كثير العرف ، ونحو ذلك من المعاني المتناسبة (٣٨) .

ومن المقابلة الفاسدة قول أبي على القرشى :

يا ابن خير الأخيار من عبد شمس

أنت زين الدنيا وغيث الجنود

فليس قوله « وغيث الجنود » موافقا لقوله « زين الدنيا » ولا مضادا وذلك عيب أفسد المقابلة . ومن فاسد المقابلة قول امرئ القيس :

فلو أنها نفس تموت سوية ولكنها نفس تساقط أنفسا

فليس « سوية » بموافق « لتساقط » ولا مخالف له ، ولهذا غيره أهل المعرفة فجعلوه « جمية » . لانه بمقابلة « تساقط » أليق (٤٠) .

ونكما يجب أن تكون المقابلة صحيحة ينبغي أن تكون مطبوعة سلسلة غير متكلفة ولا مصنوعة بقصد التلوين البديعي ، فانها ان جاءت متكلفة سمجت وعافتها الاسماع والعقول ولو كانت صحيحة شكلا ، وأكبر دليل على هذا أبيات البديعيات ، انك تجد المقابلة فيها صحيحة

(٣٨) الصناعتين ٢٦٦ .

(٣٩) نقد الشعر ٢٩٣ ، ١٩٤ .

(٤٠) الصناعتين ٢٦٦ . وتساقط بضم التاء أى يموت بموتها خلق

من حيث الشكل ومع هذا لا تجد فيها ماء ، ولا تحس لها رونقا ، وقد
سبقنا من ذلك بيتين اصفى الدين الحلى وابن حجة ، يوضحان لك هذات
الأمر ، ويضاف اليهما بيت ابن جابر في بديعته :

بواطىء فوق خد الصبح مشتهر
وطائر تحت ذيل الليل مكتتم

فقابل بين : واطىء وطائر ، وفوق وتحت ، وخذ وذيل ، والصبح
والليل ، ومشتهر ومكتتم ، وعلى الرغم من كثرة المقابلات فالبيت ثقيل
على اللسان ، ممجوج في الأذان ، وسر ذلك مبناء على التكلف وقيامه
على العمل لجلب اللون البديعي ، دون نظر الى قيمته في الاسلوب ،
وأثره في أداء المعنى المراد .

وذكر ابن حجة أن علماء ابديع على انه كلما كثر عدد المقابلات
كانت أبلغ (٤١) .

وهذا أساس غير صحيح ، فأبلغية المقابلات لا تتوقف على عددها
في الاسلوب ، والمقابلة بين معنيين قد تكون أبلغ مما لو كانت بين أكثر
من ذلك ، وتكثف المقابلات في الاسلوب يؤدي الى ثقل ألفاظه وخفوت
معانيه ، فلا تعثر على معنى ذي بال في زحام الألفاظ المتقابلة ، ومن ثم
نرى المقابلة في الأساليب الأدبية كثيرا ما تكون بين معنيين ، وتقل بين
ثلاثة وتندر بين أربعة أو خمسة . وقد أشرتنا آنفا الى أن كثرة المقابلات
في أبيات البديعيات لم ترفع من بليغتها في ميزان البلاغة .
والمقابلة البليغة تؤثر في الاسلوب شكلا ومضمونا . ففي الشكل
توجد فيه نمطا من التوازن والتناسب له حسنه وبهاؤه ، فالألفاظ
متجانسة ، والجمل متوازنة ، والتقابل بينها يحدث أثرا صوتيا له قيمته

في وقع الاسلوب • وفي المضمون تظهر المعنى واضحا قويا مترابطا ،
ففيها يتم ذكر الشيء ومقابله ، وعند مقارنة بينهما ، فتتضح خصائص
كل منهما ، وتتحدد المعانى المرادة في الذهن تحديدا قويا • وهى من
هذه الناحية تشبه المطابقة ، الا أن قيام المقابلة على الجمل ، وبنائها على
المواجهة بين معنيين فأكثر يضيف لها خاصية لا توجد في المطابقة •

اقرأ قوله تعالى : « وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار
معاشا » (٤٢) ، وقوله تعالى : « وهو الذى مرج البحرين هذا عذب
فراة وهذا ملح أجاج » (٤٣) ، وقوله تعالى : « ان الأبرار لفي نعيم ،
وان الفجار لفي جحيم » (٤٤) ، وتأمل ما فى الآيات من مقابلات معجزة ،
انك تحس أثرها اللفظى فى سبك الاسلوب سبكا قويا ، واظهاره فى صورة
بديعة تأسر الأسماع ، وتخلب الأبواب بكلماتها المتلائمة ، وجملها
المتوازنة ، وايقاعها الأخاذ ، ولا يحدث شىء من هذا ان تغيرت الجمل
عن نظمها المتقابل •

كما تلحظ أثرها المعنوى جليا معاينا ، فالمقابلة الأولى بين الليل
والنهار ، واللباس والمعاش ، تريك منة الله تعالى على عباده بالليل
والنهار وما لكل منهما من خاصية تميزه ، ولا يمكن أن تقوم الحياة الا
بهما معا وهما يتعاقبان على هذا النظام المتقابل فى الوجود كما تتقابل
العبارة عنه ، فلا تملك ازاء هذا النظام الدقيق الا أن تسبح بحمد مالك
القوى والقدر •

والمقابلة الثانية بين العذب الفرات والملح الأجاج تدرك منها الفرق
الشاسع بين البحرين وقد جعلهما الله متجاورين متلاصقين دون امتزاج ،

(٤٢) النبأ آية ١٠ ، ١١ .
(٤٣) الفرقان آية ٥٣ .
(٤٤) الانطسار آية ١٣ ، ١٤ .

أحدهما عذب فرات سائغ للشاربين ، والآخر ملح خالص الملوحة يعافه
الوراد ، ومع هذا التقابل التام بينهما إلا أنهما ضروريان معا لوجود
الحياة .

والمقابلة الثالثة بين الأبرار والفجار والنعيم والجحيم تطلعك على
مشهد من مشاهد الآخرة ، ترى فيه تناقض الأجزية واختلافها تبعا
لتناقض الأعمال في الدنيا ، فالأبرار في نعيم عظيم ، والفجار في جحيم
أليم ، مواجهة كل فريق بالآخر في العبارة ، تجلى الفرق بينهما ماثلا أمام
العيون ، مما يبعث على المسارعة إلى طريق الأبرار ، والتباعد عن
طريق الفجار .



مراعاة النظر

ولهذا اللون الابدعى أسماء مختلفة منها : التناسب - والائتلاف
- والتوفيق - والمؤاخاة • وهو : ان يجمع بين أمر وما يناسبه
لا بالتضاد (١) •

وهذا يعنى ان يكون الكلام متناسبا متلائما ، لا تجد فيه لفظة
نافرة ، ولا كلمة شاذة ، تأخذ كل كلمة فيه بعنق صاحبها ، وترتبط بها
ارتباطا وثيقا • ووجه التناسب مختلفة ، وكلها صالح في هذا اللون ،
الا ما كان على سبيل التضاد فإنه يعد من الطباق ، ومن هنا قيلوا
التعريف بقولهم : لا بالتضاد ، ليخرج الطباق ، فمبناه على الجمع بين
المعنى وضده •

ومراعاة النظر أنواع (٢) :

الأول : ائتلاف اللفظ والمعنى • ويراد به أن تكون ألفاظ المعنى
المراد يلائم بعضها بعضا ، ليس فيها لفظة نافرة عن أخواتها ، غير لائقة
بمكانها ، كلها موصوفة بحسن الجوار ، بحيث إذا كان المعنى غريبا
كانت ألفاظه غريبة ، وإذا كان المعنى مولدا كانت الألفاظ مولدة ، وإذا
كان المعنى متوسطا كانت الألفاظ كذلك ، وإذا كان متداولاً كانت الألفاظ
معروفة مستعملة (٣) •

من ذلك قوله تعالى على لسان ابراهيم عليه السلام : « يا أبت ائنى

(١) الايضاح ١٩/٦ •
(٢) انظر التبيان ٣٤٩ ، وشرح عقود الجمان ٨٧/٢ •
(٣) بديع القرآن ٧٧ ، ٧٨ •

أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا « (٤) ، فابراهيم عليه السلام يدعو أباه الى عبادة الله وحده ، ويحذره من عذاب الله الذي يلحقه بسبب عبادة الشيطان واتباعه . وقد جاء التحذير في عبارة رقيقة تتلاءم مع شفقتة على أبيه وتلطفه في دعوته وحسن الأدب معه .

فناداه بيا أبت ليلفت انتباهه بنداء محبب الى النفوس ، يحرك فيه مشاعر الأبوة الحانية التي يمتلئ بها فؤاد الأب تجاه ابنه ، وعبر بالخوف دلالة على ما يعانیه من فزع عليه ، وإشارة الى عدم جزمه بوقوع العذاب عليه ، وهذا أخف من أن يقطع بعذابه ، واستعمل المس المشرع بالتقليل المنبئ عن قلة الاصابة ، بدلا من ذكر ما يشعر بشدة عذابه ، ونكر العذاب لتقليله ، ووصفه بأنه من الرحمن اشعارا بخففتة . وبهذا جاءت العبارة التحذيرية في غاية الرقة واللفظ تتناسب مع مقام الرحمة والشفقة وحسن الأدب مع الأب (٥) .

ومنه قوله تعالى : « ولا تركزوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار » (٦) لما كان الركون الى الظالم دون فعل الظالم واجب أن يكون العقاب عليه دون عقاب الظالم ، وممن النار في الحقيقة دون الاحراق ، ولما كان الاحراق عقابا للظالم أوجب العدل أن يكون المس عقاب الراكن الى الظالم ، ولهذا عدل عن فتدخلوا النار وحيء بقوله « فتمسكم النار » للإشارة التي أما يقتضى الركون من العقاب ، وللتمييز بين ما يستحق الظالم وبين ما يستحق الراكن له من العقاب (٧) .

وقوله تعالى : « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » (٨) ، جيء

(٤) - مريم آية ٤٥ .

(٥) انظر كتابنا : خصائص النظم القرآني في قصة ابراهيم عليه السلام ٣٤ ، ٣٥ .

(٦) هود آية ١١٣ .

(٧) بديع القرآن ٧٨ .

(٨) البقرة آية ٢٨٦ .

بلفظ الاكتساب المشعر بالكلفة والمبالغة في جانب السيئة لثقلها واقترانها بالتعمل . وقوله تعالى : « فكذبوا فيها هم والعاوون » (٩) ، جىء بلفظ « كذبوا » وهو أبلغ من كبو ، للإشارة الى أنهم مكبون كبا عنيفا فظيحا (١٠) ، كأنه يتكرر من شدته ، فجسد اللفظ طريقة القائلهم في النار وناسب بضامته المعنى المراد .

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر » (١١) ، وفي رواية أحمد « أهل النار كل جعظرى جواظ مستكبر » فأتى في أهل الجنة بألفاظ سهلة رقيقة ، وفي أهل النار بألفاظ غليظة شديدة (١٢) . وبذلك ناسبت الألفاظ المعاني وتآلفت معها .

ومنه في الشعر قول زهير :

أثافى سفعا في معرس مرجس

ونؤيا كجذم الحوض لم يتثلم (١٣)

(٩) الشعراء آية ٩٤ .

(١٠) الاتقان ٧٧/٢ .

(١١) رياض الصالحين ١٣١ . والضعيف : ضعيف النفس لتواضعه وضعف حاله في الدنيا . والعتل : الغليظ الجاني . والجواظ بفتح الجيم وتشديد الواو : الجموع المنوع ، أو الضخم المختل في مشيته ، والجعظرى : اللفظ الغليظ .

(١٢) شرح المرثندى ٨٢/٢ .

(١٣) الأثافي : جمع أثفية بضم الهمزة وهى ما يوضع عليها القدر . والسفع : السود . والمعرس بفتح العين والراء المشددة المكان الذى تنصب فيه القدر ، والمرجل القدر الذى يطبخ فيه ، والنؤى : حاجز يرفع حول البيت من تراب لئلا يدخل الماء البيت من الخارج . وجذم الحوض : حرقه وأصله . ولم يتثلم : لم يتكسر . والمعنى أنه عرف حجارة سوداء تنصب عليها القدر ، وحاجزا كان حول منزل أم أوفى لم يتكسر ، وقد حلقه هذه الأشياء على دار أم أوفى .

فلما عرفت الدار قلت لربعمها
ألا عم صباحا أيها الربع وامسلم

فاتى في البيت الأول بالألفاظ غريبة لكون معانيه أعرابية ، وفي
الثاني بالألفاظ مستعملة لكون معانيه عرفية ، وبذلك تألفت الألفاظ مع
المعاني (١٤) .

والثاني : ائتلاف اللفظ مع اللفظ ، وذلك بأن تكون الألفاظ يلائم
بعضها بعضا ، بأن يقرن الغريب بمثله ، والمتداول بشبهه ، والألفاظ التي
من واد واحد بنظيرها ، بحيث يسير الأسلوب على نمط متلائم .

تري شاهدا على ذلك في قوله تعالى : « تالله تفتو تذكر يوسف حتى
تكون حرضا أو تكون من الهالكين » (١٥) ، حيث جيء بأقل حروف
القسم استعمالا وهو « التاء » وتبعه المجيء بأغرب الألفاظ الدالة على
الاستمرار وهو « تفتأ » وعبر بأغرب الألفاظ الدالة على الهلاك وهو
« حرضا » فاقترض حسن الوضع في النظم أن تجاور كل لفظه بلفظة من
جنسها في الغرابة أو الاستعمال ، توخيا لحسن الحوار ، ورغبة في
ائتلاف المعاني بالألفاظ ، ولتتعادل الألفاظ في الوضع ، وتتناسب في
النظم ، ألا ترى أنه عز وجل كان في آية أخرى : « وأقسموا بالله جهد
أيمنهم » (١٦) . لما كانت جميع ألفاظ الكلام المجاورة لهذا القسم كلها
مستعملة متداولة ، لم تأت فيها لفظ غريبة تفتقر إلى مجاورة ما يشاكلها
في الغرابة ويلائمها (١٧) .

ويتجلى هذا النوع في الجمع بين الكلمات التي من واد واحد ، كما

(١٤) التبيين ٣٤٩ .

(١٥) يوسف آية ٨٥ .

(١٦) فلانتر آية ٤٢ .

(١٧) بتبع القرآن ٧٧ ، ٧٨ ، والمقصود بالغرابة هنا الجزالة

والقوة ، فهي صفة حسن في الأسلوب .

في قوله تعالى « الشمس والقمر بحسبان » (١٨) ، فقد جمع فيه بين الشمس والقمر وهما آية النهار وآية الليل • وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا » (١٩) ، جمع فيه بين أمور متناسبة تتصل بالبيت الحرام والحج والنسك • وقوله تعالى : « والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين ، والله جعل لكم مما خلق ظللا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكل سراييل تقيكم الحر وسراييل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » (٢٠) • فقد جمع فيه بين أمور متناسبة تذكر بنعم الله تعالى على الناس في اقامتهم وملبسهم ، وتيسير سبل الحماية والاعاشة لهم في كافة الظروف والأحوال •

ومن هذا قول البحترى يصف ابلا هزيلة :

كالقسي المعطفات بل الأسهم مبرية بل الأوتار

جمع فيه بين ثلاثة أمور متناسبة هي : القسي ، والأسهم ، والأوتار فإنه لما شبه الابل بالقسي في الدقة والانحناء شبهها بالأسهم والأوتار وكان يمكنه أن يشبها بالعراجين ، وبحرف النون أو الدال ولكنه آثر ما ذكر للتناسب بين جميع الألفاظ ، وبذلك حسن التشبيه •

ومنه قول أبي الطيب :

ورب جواب عن كتاب بعثته
تضيق به البيداء من قبل نشره
وعشوانه للناظرين قتيام
وما فُض بالبيداء عنه ختام

(١٨) الرحمن آية ٥ .

(١٩) المائدة آية ٢ .

(٢٠) النحل آية ٨١ .

حروف هجاء الناس فيه ثلاثة جواد ورمح ذابل وحسام

فانه جعل جيش سيف الدولة جوابا عن كتاب ، وأتى بالألفاظ المناسبة للجواب وهي : العنوان والنشر وفض الختام وحروف الهجاء ، وجعل حروف الهجاء هو الجواد والرمح والحسام ، وهذا تخيل بديع رائع ، جمع فيه المتنبي بين الألفاظ المتألفة •

ومنه قول أبي العلاء :

فهن أقلامك اللاتي اذا كتبت

مجدا أتت بمداد من دم هدر

والضمير في « فهن » للرماح ، وقد جعلها أقلاماً تكتب المجذ بمداد من دم ، وهذه أمور متناسبة •

ومنه قول ابن رشيق :

أصح وأقوى ما سمعناه في الندي

من الخبر المأثور منذ قديم

أحاديث ترويهما السيول عن الحيا

عن البحر عن كعب الأمير تميم (٢١)

فانه ناسب فيه بين الصحة والقوة والصحاح والخبر المأثور والأحاديث والرواية ، ثم بين السيول والحيا والبحر وكعب تميم ، مع ما في البيت الثاني من صحة الترتيب في العنونة ، إذ جعل الرواية لصاغر عن كابر ، كما يقع في سند الأحاديث ، فان السيول أصلها المطر ، والمطر

(٢١) الحيا : المطر . والامير تميم هو ابو علي تميم بن الحر بن ياديس .

أصله البحر لانه يحدث من تصاعد البخار ، ولهذا جعل كف المدوح أصلا للبحر مبالغة (٢٢) •

والبيتان وان اجتمعت فيهما هذه الأمور المتناسبة ، الا أنهما لا يحملان كبير معنى ، وتكلف الصنعة فيهما واضح ، مما جعلهما أشبه بالقواعد المنظومة لا بالشعر الذى يهز المشاعر ويحرك الوجدان ، وهذا أثر من آثار تكلف الصنعة البديعية فى الشعر •

ومن هذا النوع قول بعض الأدباء للوزير المهلبى : أنت أيها الوزير اسماعيلى الوعد ، شعيبى التوفيق ، يوسفى العفو ، محمدى الخلق • فجمع بين أربعة أمور متناسبة فى عبارات صافية وأسلوب سلس •

الثالث : ائتلاف المعنى مع المعنى وهو ضربان :

الأول : أن يشتمل الكلام على معنى يصح معه لفظان أحدهما ملائم والآخر ليس كذلك فيقرن بالملائم ، كقوله تعالى « واذا قال موسى لقومه يا قوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجن فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم » (٢٣) ، قرنت التوبة بالبارئ دون غيره من الأسماء للمناسبة المعنوية ، لان البارئ هو الذى خلقهم أبرياء من التفاوت ، وهى نعمة جسيمة ، وكان من حق الشكر عليها أن يخصوه بالعبادة ، فلما عكسوا وقابلوها بالكفران لما عبدوا العجل استرد منهم تلك النعمة بالقتل ، والانفكاك (٢٤) •

ومن هذا قول المتنبى يصف خوف الناس من سيف الدولة وفرارهم

منه :

-
- (٢٢) الايضاح ٢١/٦ •
(٢٣) البقرة آية ٥٤ •
(٢٤) انظر التبيان ٣٥٣ •

فالعرب منه مع الكدرى طائرة

والروم طائرة منه مع الحجل (٢٥)

فقرن بين الشيء وملائمه ، اذ جعل العرب تفر منه مع الكدرى في
الفلوات والصحاري ، والكدرى من طيور السهول والعرب بلادها الجفاز
والصحاري ، وجعل الروم تفر منه مع الحجل في الجبال ، والحجل من
طيور الجبل والروم بلادها الجبال (٢٦) *

ومن هذا الضرب نوع يسمى « تشابه الأطراف » وهو ان يختتم
الكلام بما يناسب أوله في المعنى لكون ما ختم به كالعلة لما بدى به ، أو
العكس ، أو كالدليل عليه ، أو نحو ذلك (٢٧) *

كقوله تعالى : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف
الخبير » (٢٨) ، فاللطيف يناسب « لا تدركه الأبصار » اذ المتبادر من
معنى اللطيف دقة الشيء بحيث لا يظهر ، و « الخبير » يناسب « وهو
يدرك الأبصار » لان الخبير من له علم بالخفيات فيدرك كل شيء ، وبذلك
ناسب آخر الكلام أوله * وأوثر لفظ الخبير على لفظ البصير لما فيه من
الزيادة على الابصار والادراك ، اذ ليس كل من أبصر شيئاً أو أدركه
خبيراً به ، فتضمنت الفاصلة بذلك معنى زائداً على معنى الكلام وصفت
لأجله بالايغال ، وهو ايغال متمم لمعنى التمدح * فحصى في هذه الآية
على ذلك اثنا عشر ضرباً من البديع وهي : التعطف ، الذي هو قوله :
« لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » . احدى لفظه « الأيصار » في
أول الكلام وآخره ، والمقارنة ، لاقتراحه بالمطابقة السلبية ، والادماج ،

(٢٥) الكدرى نوع من القطا . والحجل طائر في حجم الحمام أحمر
المنقار والرجلين .

(٢٦) انظر التبيان ٣٥٣ ، والطراز ١٥٠/٣ .

(٢٧) مواهب الفتح ٣٠٣/٤ .

(٢٨) الأنعام آية ١٠٣ .

١٢٧

لما أدمج في التعطف من الاحتراس بقوله : « وهو يدرك الأبصار » فهو
احتراس من توهم أنه إذا لم يكن مدركا لم يكن موجودا ، فأثبت لذاته
كمال الوجود وزيادة ، والائتلاف ، الذى هو موضوع الكلام ،
والترشيح بالائتلاف الى الايغال ، والايغال ، بالمعنى الزائد فى
الفاصلة ، لدلالة اللفظ القليل على المعانى الكثيرة ، والمجاز ، لحذف
المضاف من قوله : « وهو يدرك الأبصار » أى ذوى الأبصار ، لتقرب
ألفاظ التعطف بعضها من بعض ، فيكون ذلك أبين وأحسن ، والتخيير ،
للعُدول فى الفاصلة عن البصير والمدرك الى الخبير ، والايجاز ، فان هذه
الآية تسع لفظات تضمنت اثنى عشر ضربا من البلاغة (٢٩) •

ومن هذا قوله تعالى : « يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه
ذلك هو الضلال البعيد » (٣٠) ، فعجز الآية مناسب لصدرها ، فعمد أشد
ضلال من يعبد من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره ، اذ لا ضلال أبعد من
هذا ولا أشنع منه •

وقوله تعالى : « لله ما فى السموات والأرض ان الله هو الغنى
الحميد » (٣١) ، فكونه غنيا حميدا يتلاءم مع ملكيته لما فى السموات
والأرض • وقوله تعالى : « يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين
منها ولهم عذاب مقيم » (٣٢) ، ختمت الآية بأن لهم عذابا مقيما وهذا
يناسب ما قبله من أنهم لا يخرجون من النار •

والتأمل فى الآيات القرآنية يجد أعجازها تتلاءم مع صدورها ،
وفواصلها متناسبة مع بداياتها ، ولكن هذا التناسب قد يكون ظاهرا كما
تقدم ، وقد يكون خفيا يحتاج الى تدبر وإعمال فكر حتى يدرك ، ومن

(٢٩) بديع القرآن ١٤٦ ، ١٤٧ •

(٣٠) الحج آية ١٢ •

(٣١) لقمان آية ٢٦ •

(٣٢) المائدة آية ٣٧ •

هذا قوله تعالى « ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » (٣٣) ، فان قوله « وان تغفر لهم » يوهم أن الفاصلة : الغفور الرحيم ، ولكن اذا انعم النظر علم انه يجب أن تكون « العزيز انحكيم » لانه لا يغفر لمن يستحق العذاب الا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه ، فهو العزيز ، لان العزيز هو الغالب ، ووجب أن يوصف بالحكمة أيضا لان الحكيم من يضع الشيء في محله ، والله تعالى كذلك ، الا أنه قد يخفى وجه الحكمة في بعض أفعاله فيتوهم الضعفاء أنه خارج عن الحكمة ، فكان في الموصف بالحكيم احتباس حسن ، أي وان تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب فلا معترض عليك لأحد في ذلك ، والحكمة فيما فعلته (٣٤) .

وقوله تعالى : « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم » (٣٥) ، ختمت الآية بقوله : « وهو بكل شيء عليم » والمتبادر الى الذهن أن تختم بالقدرة ولكن المتأمل يرى أن ما ختمت به الآية هو الصواب ، لان الآية تضمنت الاخبار عن خلق الأرض وما فيها على حسب حاجات أهلها ومتافعهم ومضالحهم ، وخلق السموات خلقا مستويا محكما من غير تفاوت ، والخالق على الوصف المذكور يجب أن يكون عالما بما فعله كلنا وجزئيا ، مجملا ومفصلا ، من ثم ختمت الآية بالعلم (٣٦) .

والثاني : أن يشتمل الكلام على معنى له وصفان ملائمان ، فيختار الأحسن منهما لما له من منزلة ، من ذلك قول المتنبي في مدح سيف الدولة :

وقفت وما في الموت شك لواقف

كأنك في جفن الردى وهو نائم

(٣٣) المائدة آية ١١٨ .

(٣٤) الايضاح ٢٢/٦ .

(٣٥) البقرة آية ٣٩ .

(٣٦) معترك الأقران ٤٧/١ .

تمر بك الأبطال كلى هزيمة
ووجهك وضاح وثرغك باسم

فعجز كل واحد من البيتين ملائم لكل واحد من صدريهما ، وصالح
لان يؤلف معه ، لكنه اختار ما أورده لأمرين : أحدهما : أن قوله : كأنك
في جفن الردى وهو نائم ، انما سيق من أجل التمثيل للسلامة في موضع
العطب ، فجعله مقرا للوقوف والبقاء في موضع يقطع على صاحبه
بالموت أحسن من جعله مقرا لثباته في حال هزيمة الأبطال • وثانيهما :
أن في جعل قوله : ووجهك وضاح وثرغك باسم ، تنمة لقوله : تمر بك
الأبطال ، أحسن من جعله تنمة لقوله : وقفت وما في الموت شك لواقف ،
لان الانسان في حال الهزيمة يلحقه من ضيق النفس وعبوس الوجه
ما لا يخفى ، فلهذا ألصق كل واحد منهما بما يكون فيه أكثر ملاءمة
وأحسن انتظاما من أجل المبالغة في المعانى (٣٧) •

كما أن أبا الطيب أراد أن يقرن بين أن الردى لا نجاة منه لواقف
وبين أن الممدوح وقف ونجا منه ، وكذا بين أن الأبطال ريعت وانهمت
وأن سيف الدولة لم يرغ ولم يهزم ، وابتسام الثغر وانبلاج الوجه
مما يدل على عدم الروع (٣٨) • وعلى هذا فمعانيه في غاية التناسب •

وقد دافع المتنبى عن صنيعه في البيتين عندما عابها سيف الدولة ،
اذ قال بعد أن سمعها : قد انتقدنا عليك هذين البيتين ، كما انتقد على
امرىء القيس بيتناه :

كأنى لم أركب جوادا للذة
ولم أتبطن كاعبا ذات خخال

(٣٧) الطبراز ٣/١٤٨ •

(٣٨) منهاج البلاغ ١٦١ •

ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل
لخيلى كرى كرة بعد اجفال (٣٩)

وبيتاك لا يلتئم شطراهما ، كما ليس يلتئم شطرا هذين البيتين ،
وكان ينبغى لامرئ القيس أن يقول :

كأنى لم أركب جوادا ولم أقل
لخيلى كرى كرة بعد اجفال
ولم أسبأ الزق الروى للذة
ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولك أن تقول :

وقفت وما فى الموت شيك لواقف
ووجهك وضاح وثرعك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة
كأنك فى جفن الردى وهو نائم

فقال البتتبي : أيد الله مولانا ، ان صح أن الذى استدرك على امرئ
القيس هذا يكن أعلم بالشعر منه ، فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا ،
ومولانا يعلم أن الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك ، لان البزاز يعرف
جملته ، والحائك يعرف جماته وتفاصيله ، لانه هو الذى أخرجته من
الغزلية التى الثوبية ، وانما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب
للصيد ، وقرن السماحة فى شراء الخمر للأضياف بالشجاعة فى منازلة
الأعداء ، وأنا لما ذكرت الموت فى أول البيت أتبعته بذكر الردى ليحانسه
ولما كان وجه الجريح المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوسا ، وعينه من أن
تكون باكية قلت : ووجهك وضاح وثرعك باسم ، لأجمع بين الأضداد فى

(٣٩) سبأ الخمر : اشتراها ، والزق بكسر الزاى المشددة وعباء
الخمر ، والاجفال : الانهزام .

المعنى ، وان لم يتسع اللفظ لجميعها ، فأعجب سيف الدولة بقوله ،
ووصله بصلة كبيرة (٤٠) •

وبهذا بين المتنبى وجه المناسبة بين شطرى كـ بيت فى قول امرىء
القيس وفى قوله ، وأظهر جودة القولين ، والتتام معانيهما على النسق
الذى وردا عليه •

وعاب بعضهم بيتى امرىء القيس السابقين ، وذكر أنه لو وضع
عجز كل منهما مكان الآخر إكان قد جمع بين الشئ وشكله ، فذكر
الجواد وانفروا الكر فى بيت ، وذكر النساء والخمر فى بيت • ورد
ابن رشيق على هذا بقوله : قول امرىء القيس أصوب ، ومعناه. أعرب
وأعرب ، لان اللذة التى ذكرها انما هى الصيد ، ثم حكى عن شعيبه
وغشيلنه النساء ، فجمع فى البيت معنيين ، ولو نظمه على ما قال المعترض
لنقص فائدة عظيمة وفضيلة شريفة تدل على السلطان ، وكذلك البيت
الثانى لو نظمه على ما قال لكان ذكر اللذة حشوا لا فائدة فيه ، لان الزق
لا يسبأ الا اللذة ، فان جعل الفتوة كما جعلناها غيما تقدم الصيد ، قلنا :
فى ذكر الزق الروى كفاية ، ولكن امرىء القيس وصف نفسه بالفتوة
والشجاعة بعد أن وصفها بالتمك والرفاهة (٤١) •

ومما مثلوا به للضرب الثانى من ائتلاف المعنى مع المعنى قوله
تعالى : « ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظلم فيها
ولا تضحى » (٤٢) ، حيث جاء نظم الآيتين على أحسن وجه تتلاءم فيه
المعانى ، مع مراعاة تناسب المبانى ، والتناسق التام بين كافة عناصر
النظم •

(٤٠) يتيمة الدهر ٢١/١ ، ٢٢ •

(٤١) العمدة ٢٥٨/١ ، ٢٥٩ •

(٤٢) طه آية ١١٨ ، ١١٩ •

وقد توهم متوهم أنه لو قيل : لا تجوع ولا تظماً ، ولا تضحى
ولا تعرى . لكان ذلك جارياً على ما توجبه البلاغة من التناسب والملاءمة •
وهذا قصور في الفهم وجهل بمواقع الكلام وطرق التعبير •

فالخطاب في الآية الكريمة جار على عادة العرب في التعبير ، وفيه
تناسب وتلاؤم ، فان العادة أن يقال : جاثع عريان ، كما أن التناسب ظاهر
بين « تظماً و تضحى » لان الضاحى هو الذي لا يستتره شيء عن
الشمس ، والظماً من تسأن من كانت هذه حاله (٤٣) • وبين الشهاب
الخفاجى أن التناسب في نظم الآيتين الكريمتين خفى وله جهات منها :
أن الجوع خلق الباطن ، والعرى خلق الظاهر ، فكأنه قيل : لا يخلو باطنك
وظاهرك عما يههما ، والظماً يورث حرارة الباطن ، والبروز للشمس
يورث حرارة للظاهر ، فكأنه قيل : لا يؤمك حرارة الباطن والظاهر •
ومنها : أن الشبع والكنسوة أصلان ، وأن الرى والكن مكملان ،
فالامتنان على نظم الآية الكريمة أظهر ولتم (٤٤) •

وبين ابن ااصبع أن مجيء الآيتين على ما توهمه المتوهم يؤدي
الى فساد معنى النظم لانه لو قيل : ان لك ألا تجوع فيها ولا تظماً لوجب
أن يقال : وانك لا تعرى فيها ولا تضحى ، والتضحى معناه البروز
للشمس بغير سترة ، فيكون معناه التعرى ، وعند ذلك يصير معنى
الكلام : وانك لا تعرى فيها ولا تعرى ، وهذا فساد ظاهر (٤٥) •

ويرى ابن المنير أن في الآية سراً بديعاً يسمى : قطع النظر عن
النظير ، وذلك أن قطع الظماً عن الجوع والضحو عن العرى مع ما بينهما
من التناسب ، والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها ، ولو
قرن كلا بشكله لتوهم أن المعدودات نعمة واحدة (٤٦) • والجزء الأخير

(٤٣) العمدة ٢٥٩/١

(٤٤) حاشية الشهاب ٢٣١/٦

(٤٥) بديع القرآن ١٣٩ ، ١٤٠

(٤٦) الانتصاف — بهامش الكشاف ٥٥٦/٢

من كلام ابن المنير يوهم أن نظم الآيتين لا تشاكل فيه ، وهذا مردود عليه بما سقناه آنفا ، كما أن اقتران لا تظماً بلا تجوع ولا تضحى بلا تعرى لا يوهم أنها نعمة واحدة ، لأنها جاءت معطوفة على نمط التعداد ، والعطف يقتضى المغايرة •

ويلحق بمراعاة النظير ما يسمى « ايهام التناسب » وهو الجمع بين معنيين غير متناسبين عبر عنهما بلفظين لهما معنيان متناسبان لكنهما غير مقصودين • كقوله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان » (٤٧) ، فالمراد من النجم في الآية على الرأى المشهور ، هو ما لا ساق له من النبات كالبقول والحشائش ، وهو بهذا المعنى لا يتناسب مع الشمس والقمر ، ولكن له معنى آخر يتبادر الى الذهن وهو نجم السماء ، وهو بهذا المعنى يتناسب معهما الا أن هذا المعنى غير مقصود • فالنجم يناسب ما قبله على المعنى المتبادر ، ولا يناسبه على المعنى المراد ، فسمى هذا ايهام التناسب لتخيل الوهم فيه المناسبة باعتبار ما يتبادر منه (٤٨) •

ومن هذا ترى أن بين النجم والشمس والقمر ايهام التناسب ، كما أن بين النجم والشجر مراعاة النظير ، لان النجم هو النبات الذى لا ساق له ، والشجر هو النبات الذى له ساق •

على أن بين الآيتين مناسبة أخرى قوية تصحح الموصل بينهما وهى التضاد ، باعتبار أن الشمس والقمر مخلوقان سماويان ، والنجم والشجر مخلوقان أرضيان ، وفي الآيتين امتتان بما فى السماء من منافع ، يعقبه امتتان بما فى الأرض ، وجعل لفظ « النجم » واسطة الانتقال لصلاحيته لان يراد منه نجوم السماء وما يسمى نجما من نبات الأرض كما مر (٤٩) •

(٤٧) الرحمن آية ٦ ، ٧ •

(٤٨) انظر مواهب الفتاح ٣٠٤/٤ •

(٤٩) التحرير والتنوير ٢٧/٢٣٥ •

التناسب وبلاغة الكلام :

والتناسب عنصر اساسى فى بلاغة الكلام ، وعامل قوى فى حسنه وجودته ، فالكلام البليغ ينبغى ان تأتلف الفاظه ، وتتلاءم معانيه ، وينظم فى نسق بديع متلاحم الاجزاء ، متناسب الدلالات • وبدون ذلك لا يستحق الكلام وصف البلاغة ، ولا يكون نظاما معتدا به عند البلاغيين •

فليس النظم عندهم ضم الكلمات الى بعضها كيفما جاء واتفق ، لكنه ترتيب الكلم على حسب ترتيب المعانى فى النفس ، فهو نظم يقوم على تناسق الدلالات وتلاقى المعانى على الوجه الذى يقتضيه العقل ، ويعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، حتى يكون لو وضع كل جزء منه حيث وضع علة تقتضى كونه فيه ، وحتى لو وضع فى مكان غيره لم يصلح (٥٠) •

لذا برأينا النقاد يؤكدون على تناسب الالفاظ وتلاؤم المعانى ، وتيسيق الكلام ويوجبون على المبدعين مراعاة ذلك فى نتائجهم الادبى يقول ابن طباطبا : وينبغى للشاعر ان يتأمل تأليف شعره ، وتيسيق آبياته ، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه فيلائم بينها لتنتظم له معانيها ، ويتصل كلامه بحجتها ، منه • وبخترت من البحث • فى كل بيت ، فلا يباعد كلمة عن اخاتها ، ولا يحجز بينها وبين تمامها بحشو يشينها ، ويتفقد نكي مضارع هذا يشاكل ما قبله ، فرغما اتفق الشعراء بيقين يوضع مصرع كل واحد منهما فى موضع الآخر ، فلا يتنبه على ذلك الا من حق نظره ولطف فهمه (٥١) • فحينئذ يوجب على الشاعر من تيسيق شعره على مستوى القصيدة والبيت ، بحيث تخرج القصيدة تسجيا قبيولا متلاحم الاجزاء •

(٥٠) انظر دلائل الاعجاز ٤٩ ، ٥٠

(٥١) عيار الشعر ٢٠٩ •

والشاعر عنده كناظم الجوهرة الذي يؤلف بين النفيس منها والتمين
الرائق ولا يشين عقوده بأن يفاوت بين جواهرها في نظمها وتنسيقها ،
فالشاعر اذا أسس شعره على أن يأتي فيه بالكلام البدوي الفصيح لم
يخلط به الحضري المولد ، واذا أتى بلفظه غريبة أتبعها آخراتها ، وكذلك
اذا سهل الفاظه لم يخلط بها بالألفاظ الوحشية النافرة الصعبة القياد ،
وبذلك يخون شعره كالسبيكة المفرغة ، والوشى المتمم ، والعقد المنظم ،
والرياض الزاهرة (٥٢) .

ومن أمارات التكلف والتعمل عند النقاد مجيء الكلام مفككا غير
مترابط ، يقول ابن قتيبة : وتبين التكلف في الشعر بأن ترى البيت فيه
مقرونا بغير جاره ، ومضموما الي غير لفقته (٥٣) . وما ذاك الا لان
المتكلف يجهد نفسه في القول دون طبع موات فتتد عنه الأفكار ، وتتأبى
عليه المعانى ، فلا يرى امامه الا ان يتوقف معنى من هنا وآخر من هناك .
فيأتي كلامه مهلهل النسج مفكك الأوصال .

وقد أدرك العرب بغيرتهم الصافية أن الكلام البليغ لا يكون الا
متلاحم الأجزاء ، مترابط المعانى . ومن ثم بادر بعض الصحابة الى
النطق بختام آية من النظم المعجز قبل أن يسمع ختامها ، تأسيبا على
ما في بدايتها من معان يناسبها ويلائمها أن تختتم بما نطق به . فعن
زيد بن ثابت قال : أملى على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى :
« ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين » الى قوله « خلقا آخر » (٥٤) ،
فقال معاذ بن جبل : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فضحك رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فقال له معاذ : مم ضحكك يا رسول الله ؟ قال :
بها ختمت . (٥٥) .

-
- (٥٢) انظر السابق ٧ - ٩ .
(٥٣) الشعر والشعراء ١/٩٦ .
(٥٤) المؤمنون آية ١٢ - ١٤ .
(٥٥) معترك الأقران ٤٠/١ .

كما اعترض بعض الأعراب على قارئ سمعه يقرأ : « فان زلتم من بعد ما جاءتكم البينات فأعلموا أن الله غفور رحيم » (٥٦) ، فقال الأعرابي — وهو لم يكن يقرأ القرآن — ان هذا ليس بكلام الله ، لان الحكيم لا يذكر الغفران عند الزل ، لانه اغراء عليه (٥٧) . وما أدرك الأعرابي خطأ القارئ الا بسليقته الخالصة التي هدته الى عدم ائتلاف المعانى وتناسب الكلام في قراءة القارئ ، ومن ثم لا يمكن أن يكون هذا من كلام الحكيم الخبير التي أعجزت بلاغته أساطين البلاغة .

وعرف قدامى الشعراء والرواة أهمية التناسب في بلاغة الكلام ، وجعلوها من مقاييس المفاضلة بين الشعر والشعراء ، وشبهوا الشعر الذي لا تأتلف أجزاءه ببعر الكبش . ويروى الجاحظ ما أنشده أبو البيداء الرياحي :

وشعر كبعر الكبش فرق بينه

لسان دعى في القريض دخين

ويفسر ذلك فيقول : وأما قوله « كبعر الكبش » فانما ذهب الى أن بعر الكبش يقع متفرقا غير مؤتلف ولا متجانس ، وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر . تراها متفقة ملسا ، ولينة المعنطف سهلة ، وتراها مختلفة متباينة ، ومتنافرة مستكرهة (٥٨) .

وقال عمر بن لجا لبعض الشعراء : أنا أشعر منك ، قال وبم ذاك؟ فقال : لأنى أقول البيت وأخاه ، ولأنك تقول البيت وابن عمه ، ففضل شعره على شعر الآخر لما في شعره من التناسب وتلاحم الأجزاء ، وما

(٥٦) البقرة آية ٢٠٩ . وصححة الآية : « فاعلموا ان الله عزيز حكيم » .

(٥٧) معترك الاقران ٤٠/١ .

(٥٨) البيان والتبيين ٦٧/١ .

في شعر غيره من التفكك والاضطراب • وقال عبد الله بن سالم لرؤية ابن العجاج : مت يا أبا الجحاف اذا شئت ، فقال رؤية : وكيف ذلك ؟ قال : رأيت ابنك عقبه ينشد شعرا له أعجبنى ، قال رؤية : نعم ، ولكن ليس لشعره قران • يريد أنه لا يقارن البيت بثبته (٥٩) ، فلم يستحسن رؤية شعر ابنه لما فيه من تباعد وعدم تلاؤم •

وفي التراث النقدي كثير من مآخذ النقاد على الشعراء بسبب فقدان التلاؤم ، وانعدام التناسب والتشاكل • فعابوا قول السموعل :

فنحن كماء المزن ما في نصابنا

كهام ولا فينا يعد بخيل :

وقالوا ليس في قوله : « ما في نصابنا كهام » من قوله : « فنحن كماء المزن » في شيء ، اذ ليس بين ماء المزن والنصاب والكهوم مقاربة ، ولو قال : ونحن ليوث الحرب ، أو أولوا الصرامة والنجدة ما في نصابنا كهام ، لكان الكلام مستويا ، أو نحن كماء المزن جفاء اخلاق وبذل أكف لكان جيدا (٦٠) •

وعابوا قون طرفة

ولست بحلال التلاع مخافة

ولكن متى يسترفد القوم أرفد (٦١)

وقالوا : المصراع الثاني غير مشاكل الصورة للمصراع الأول ، وان كان المعنى صحيحا ، لانه أراد : ولست بحلال التلاع مخافة السؤال ،

(٥٩) الشعر وانشعراء ٩٦/١ •
(٦٠) الصناعتين ١٠٨ • والكهام : من كهم الرجل كهامة اذا ضعف وتجنب عن الأقدام التي ليس فيها رجل ضعيف •
(٦١) التلاع : جمع تلعة وهي ما ارتفع من الأرض وما انهبط أيضا •

ولكنى أنزل الأمكنة المرتفعة ، لينتابونى فأرقدهم ، وهذا وجه الكلام ، فلم يعبر عنه تعبيراً صحيحاً ، ولكنه خلط وحذف منه حذفاً كثيراً فصار كالمتنافر (٦٢) .

وعاب « نصيب » على الكميت قوله :

أم هل ظعائن بالعلياء نافعة

وان تكام فيها الدل والشنب

وقالوا له : لقد تباعدت فى قولك « الدل والشنب » هلا قلت كما

قال ذو الرمة :

لمياء فى شفتيها حوّة لس

وفى اللثات وفى نياها شنب (٦٣)

يريد أن الكميت جمع بين الدل والشنب ولا مناسبة بينهما ، فالدل من الدلال والتدل وهو وصف لهيئة المرأة وحسن حديثها . والشنب رقة وبرد وعذوبة فى الأسنان ، بينما أتى ذو الرمة بأوصاف من وأد واحد تتصل بالثغر والشفتين . قال المبرد : والذى عابه نصيب من قوله : تكامل فيها الدل والشنب ، قبيح جداً ، وذلك أن الكلام لم يجز على نظم ، ولا وقع الى جانب الكلمة ما يشاكلها ، وأول ما يحتاج اليه القبول أن ينظم على نسق ، وأن يوضع على رسم المشاكلة (٦٤) .

وعابوا على أبى نواس قوله :

وقد حلفت يميناً

مبـرورة لا تكذب

برب زمزم والحو

ض والصفى والمحصب

(٦٢) السابق ١٠٨ .

(٦٣) لمياء : من اللمى وهو سمرة الشبقتين ، والحوّة : حمرة ضاربة الى السواد ، واللعين سمرة فى الشفة مستحسنة .

(٦٤) الكامل ١٢٠/٢ ، وانظر الموشح ١٧٦ .

حيث ذكر الحوض مع زمزم والصفاء والمحصب (٦٥) ، وهو لا يأتلف معها ، وإنما يتناسب مع ما هو من مشاهد القيامة كالميـزان والصراط وغيرهما ، وأما زمزم والصفاء والمحصب فيذكر معها الركن والحطيم وما جرى مجراهما (٦٦) .

وجعل بعضهم مما يخل بالتناسب أن يأتي المتكلم بأمر متناسبة ولا يوحد بينها في الهيئة والصيغة ، فيكون بعضها مفردا وبعضها مثنى أو مجموعا ، وما إلى ذلك كقول الشاعر :

ألا يا بن الذين هـنوا وماتوا
أما والله ما ماتوا لتبقى
وما لك فاعلمن فيها بقاء
إذا استكملت آجالا ورزقا

فجمع الأجل وأفرد الرزق ، وهما متناسبان لا يوجد أحدهما بدون الآخر وكان الأولى أفراد الأجل كالرزق (٦٧) . قال ابن الأثير : وقد زاده انكارا أنه جمع الأجل فقل آجالا والانسان ليس له الا اجل واحد ، ولو قال أجلا وأرزاقا لما عيب ، لان الأجل واحد والأرزاق كثيرة لاختلاف ضروبها وأجناسها (٦٨) . وعلى هذا فلو جمع الشاعر الأرزاق كالأجال لكان البيت معيبا أيضا لان الأجل واحد ، ولا يسلم البيت من المآخذ الا بأفراد الآجال .

وكقول الأعشى :

تقول بنتى وقد قربت مرتحلا
يا رب جنب أبى الاتلاف والوجعا

(٦٥) المحصب : موضع رمى الجمار بمنى .

(٦٦) المثل السائر ٢٨٨ .

(٦٧) شرح عقود الجنان ٨٨/٢ ، ٨٩ .

(٦٨) المثل السائر ٢٨٩ .

فالإتلاف والوجع متناسبان في المعنى ، ولكن الشاعر لم يوحد بينهما في الصيغة ، والذي يوجبه نسج الشعر أن يقون : يا رب جنب أبى الإتلاف والأوجاع ، أو التلف والوجع (٦٩) .

والصحيح أن الاختلاف في الصياغة لا يعد عيبا على الإطلاق ، بل يكون عيبا إذا جاء متكلفا من أجل الوزن أو القافية أو السجع ، وخلا من سر بديع أو معنى لطيف يرشح وجوده في الكلام ، ومن ثم نراه واقعا في القرآن الكريم الذي هو معيار البلاغة مشيرا إلى لطائف تدرك بالتأمل وانعام النظر ، من ذلك قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » (٧٠) ، فالقلب والسمع والبصر أمور متناسبة ، ووحد السمع دون القلوب والأبصار ، لانه في الأصل مصدر والمصدر لا تجمع ، وللامن من اللبس ، والاختصار ، والتفنن في التعبير ، مع الإشارة إلى أن مدركاته نوع واحد ، ومدركاتهما أنواع مختلفة (٧١) . وقوله تعالى : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » (٧٢) ، وحد النور وجمعت الظلمات ، وفي هذا إشارة إلى وحدة الحق واستقامة طريقه ، وتعدد فنون الضلال وتشعب طرقه .

ومما سبق ترى أن التناسب أمر ضروري في بلاغة الأساليب ، وأن الأسلوب البليغ تتلاءم ألفاظه وتناسب معانيه ، ويكون منظوما على نسق مؤتلف في شكله ومضمونه .

(٦٩) عيار الشعر ١١٩ ، ١٢٠ .
(٧٠) البقرة آية ٧ .
(٧١) الكشاف وحاشية السيد عليه ١/١٦٤ .
(٧٢) ابراهيم آية ١ .

الارصاد أو التسهيم

وهما مصطلحان يطلقان على لون بديعى واحد ، تعريفه عند الخطيب : ان يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز اذا عرف الراوى (١) * والارصاد لغة : نصب الرقيب فى الطريق ليدن عليه ، والتسهيم : جعل الثوب ذا خطوط كأنها فيه سهام * والرقيب يدل على الطريق وعلى ما فيه ، والخطوط تدل على ما يليها لكونه متفقا معها ومشابها لها ، ومن هنا تأتى المناسبة بين المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى .

وقدامة يسمى هذا اللون التوشيح ، وعلى هذه التسمية مضى العسكرى (٢) ، وبعض المتأخرين يفرقون بينهما فالتوشيح عندهم مختص بما يدل على القافية فى الشعر أو السجع فى النثر ، والتسهيم تارة يدل على عجز البيت ، وتارة يدل على ما دون العجز ، فحده : أن يتقدم من الكلام ما يدل على ما يتأخر منه (٣) * وبذلك يكون التسهيم أعم من التوشيح .

والارصاد أو التسهيم قسمان :

الأول : أن تكون دلالة المتقدم على المتأخر دلالة لفظية ، كما فى قوله تعالى : « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٤) * فقوله « ليظلمهم » ارصاد لفظى اذ يفهم منه أن عجز الآية من مادة الظلم ، اذ لا معنى لقولنا مثلا : وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم ينجعون أو يمنعون من الهلاك أو نحو ذلك .

(١) الايضاح ٢٥/٦ . والعجز : آخر كلمة من الفقرة أو البيت ، والروى : الحرف الذى تجيء عليه اواخر الأبيات أو الفقر .
(٢) انظر نقد الشعر ١٦٧ ، والصناعتين ٣٠٢ .
(٣) انظر بديع القرآن ٩٠ ، ١٠٠ ، وخزانة الأنب ٣٠٣/٢ .
(٤) العنكبوت آية ٤٠ .

ومنه قوله تعالى : « وما كان الناس الا امة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون » (٥) . فقوله « فاختلفوا » ارداد لفظي لانه يدل بلفظه على ان العجز من مادة الاختلاف .

وقوله تعالى : « قل الله أسرع مكرا ان رسلنا يكتبون ما تمكرون » (٦) ، فان « مكرا » يدل على ان عجز الآية من مادة المكر .

ومن هذا قول زهير :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش

ثمانين حولا لا أبالك يسأم

فقوله « سئمت » ارداد يدل بلفظه على ان القافية من مادة السأم، ونحوه قول الآخر :

اذا لم تستطع شيئا فدعه

وجاوزه الى ما تستطيع

والارصاد في قوله « اذا لم تستطع » ، وهو يدل بلفظه على ان عجز البيت من مادة الاستطاعة .

والثاني : ان تكون دلالة المتقدم على المتأخر دلالة معنوية ، كقوله تعالى : « ابن الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين » (٧) ، فان « اصطفى » يدل على ان الفاصلة « العالمين » وهي دلالة ليست لفظية لان اللفظين مختلفان، ولكنها دلالة معنوية ، فان من لوازم اصطفاء الشيء ان يكون مختارا على جنسه ، و« جنس هؤلاء

(٥) يونس آية ١٩٢ .

(٦) يونس آية ٢٤ .

(٧) آل عمران آية ٣٣ .

المسطفين هو العالمون (٨) • وقوله تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون » (٩) ، فان انسلخ النهار من الليل يعلم منه الاظلام ، لان من انسلخ النهار عن ليله دخل في الظلمات (١٠) •

ومن هذا قول جنوب أخت عمرو ذى الكلب :

فأقسم يا عمرو لو نبهاك
إذا نبها منك داء عضالا

فان الحذاق بمعانى الشعر وتأليفه يعلمون أن معنى قولها « فأقسم يا عمرو لو نبهاك » يقتضى أن يكون تمامه « إذا نبها منك داء عضالا » دون غيره من القوافي ، كما لو قلت مكان « داء عضالا » « ليثا غضوبا » أو « أفعى قتولا » أو ما ناسب ذلك ، لان الداء العضال أبلغ من هذه الأشياء جميعها وأشد اذ كل منها يمكن مغالبتها و التوقى منه ، والداء العضال لا دواء له (١١) •

الارصاد وبلاغة الكلام :

والارصاد لون بديعى له أثر جليل فى بلاغة الاسلوب ، فهو يؤدى الى تقوية سبكه ، وترابط أجزائه ، وتماسك لبنائه ، اذ اللفظة فيه تقتضى ما بعدها ، وينبىء مبدؤه عن مقطعه ، ويخبر أون بآخره ، ويشهد صدره بعجزه • والنقاد يرون أن خير الكلام ما دل بعضه على بعض ، وأخذ بعضه برقاب بعض ، وخير الشعر ما تسليق صدره وأعجازه ، ومعانيه وألفاظه ، فتراه سلسا فى النظام ، بجاريا على اللسان ، لا يتنافى ولا يتنافر ، كأنه سبيكة مفرغة ، أو وشى منمنم ، أو عقد منظم من جوهر متشاكل ، ألفاظه مطابقة ، وقوافيه متوافقة ، ومعانيه متعادلة

(٨) انظر شرح عقون الجمان ٢/٩٠ •

(٩) يس آية ٣٧ •

(١٠) انظر بديع القرآن ٩١ •

(١١) حسن التوسل ٢٦٦ •

كل شيء فيه موضوع في موضعه ، وواقع موقعه • وخير أبيات الشعر ما اذا سمعت صدره عرفت قافيته ، قال ابن نباتة السعدي :

خذها اذا أنشدت في القوم من طرب
صدورها عرفت منها قوافيها (١٢)

ومن ثم كان أحسن الارصاد ما كان معه من التشاكل وتآخي الألفاظ ما يسهل استخراج القافية أو الشطر بكماله ، أو كان مطردا منعكسا ، لدلالة أوله على آخره ، ودلالة آخره على أوله ، فمن الأول قول البحتري :

أحلت دمي من غير جرم وحرمت
بلا سبب يوم اللقاء كلامي
فليس الذي حلته بمحلك
وليس الذي حرمته بحرام

فالتسليم في البيت الثاني ، وقد بلغ هذا البيت من التشاكل والتناسب حدا كبيرا ، وذلك أن من سمع النصف الأول منه عرف الأخير بكماله • ومن الثاني قول أبي نواس :

فما جازه جود ولا حل دونه
ولكن يصير الجود حيث يصير

لأنه متى اتفق كون الجود يتقدم شخصنا أو يتأخر عنه فقد ثبت كونه معه وبالعكس (١٣) •

وبجانب ما للارصاد من أثر قوي في ربط الاسلوب وقوة صياغته نرى فيه لونا من التأكيد ، فحين ينصب المتكلم في صدر كلامه ما يدل على

(١٢) الصناعتين ٣٠٢ ، ومنهاج البلغاء ٢٢٤ ، والمثل السائر ٣٠٦ ،
والموازنة ٢٩٣/١ •
(١٣) الصباح ١٩٩ ، ٢٠٠ •

عجزه يؤهل المتلقى بذلك لما سيأتى من كلام ، فاذا ما ورد عليه دخل على ذهنه دخول المأنوس والمألوف ، فاستقر فيه وتمكن •

وبلاغة الارصاد تتوقف على مجيئة سلسا مطبوعا لا تكلف فيه ولا تعمن ، غير مؤد الى التنافر والمعازلة فى الكلام ، وتترى الارصاد البليغ واضحا فيما سقناه من أمثلة ، كما تراه فى نماذج اخرى من جيد التصدير ، ومنها قول ابن الدمينية :

وكونى على الواشين لداء شعبة
كما أنا بالواشى ألد شغوب
وكونى اذا مالوا عليك صليبة
كما أنا ان مالوا على صليب

فالببيتان مسهمان ، حيث دل أول كل منهما على آخره دلالة واضحة ، من غير تكلف ولا تصنع • ومن جيد التسهيم قول الشاعر :

ولو أننى أعطيت من دهري المنى
وما كل من يعطى المنى بمسدد
لقلت لأيام مضين : ألا ارجعى
وقلت لأيام أتين : ألا ابعدى (١٤)

فالتسهيم فى البيت الثانى ، وقد جاء سلسا طيعا متوشحا بالمقابلة • فان جاء الارصاد متكلفا أو ترتب عليه تنافر فى الكلام كان معيبا ، كما فى قول أبى تمام :

صارت المكرمات بزلا وكانت
أدخلت بينها بنات مخاض (١٥)

(١٤) العمدة ٣٤/٢ •

(١٥) البازل من الابل ما دخلت فى التاسعة ، وبنات المخاض ما دخلت فى الثانية •

فقوله « بزلا » ارصاد دئ على قوله « بنات مخاض » ، ووصف
المكرمات بهذه الصفة قبيح ، فوق ما فى البيت من تكلف الجمع بين اليزل
وبنات المخاض من أجل التشاكل والتلوين البديعى •

وكما فى قول المتنبى :

فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا
قلاقل عيس كلهن قلاقل

فقوله « قلاقل عيس » ارصاد دئ على عجز البيت ، وقد قررتب
عليه وجود تنافر الكلمات فى البيت ، فصار معيبا •

المزاوجة

وهي لغة المقارنة والمثابهة ، يقال : ازدوج الكلام وتزاوج : أشبه بعضه بعضا في السجع أو الوزن ، أو كان لاحدى القضيتين تعلق بالأخرى (١) . وفي اصطلاح البلاغيين : أن يزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء . أى يجعل معنيان واقعان في الشرط والجزاء مزدوجين في أن يرتب على كل منهما معنى مرتب على الآخر (٢) . والأوضح في تعريفها أن يقال : هـ يترتيب فعل واحد مختلف المتعلق على شرط وجزائه (٣) .

من ذلك قول البحتري :

إذا ما نهى الناهى فلج بى الهوى

أصاغت الى الواشى فلج بها الهجر (٤)

أى : إذا نهانى الناهى عن حبهما فترتب على النهى اشتداد الهوى بى وملازمته لى ، استمعت الى الواشى فترتب على استماعها لزوم الهجر واشتداد القطيعة . فزاوج بين الشرط والجزاء في أن ترتب على كل منهما لجاج في شىء ، فنهى الناهى الذى هو الشرط ترتب عليه اللجاج في الهوى ، والأصاغة الى الواشى الذى هو الجزاء ترتب عليه اللجاج في الهجر .

وفي ترتيب لجاج النهوى على نهى الناهى مبالغة في اظهار حبه لها وتعلقه بها ، اذ كلما عوتب فيه ونهى عنه ازداد منه واشتد فيه كما قال القائل :

-
- (١) لسان العرب مادة : زوج .
 - (٢) المختصر ٣١٦/٤ .
 - (٣) المعجم الوسيط مادة : زاج .
 - (٤) لج به : اشتد به ولزمه . أصاغت : استمعت ، الواشى : اليهام الذى يفسد بين الناس وخصوصا المحبين .

أجد الملامة في هياك لذيفة

حبا لذكرك فليمنى اللوم

وفي ترتيب لزوم الهجران علي وشي الواشى مبالغة في وصفها
بالدلال والتمنع ، فمجرد الوشاية تبعثها على الهجر ، فكيف لو رأت عيبا ؟
وكل مبالغة منهما مستحسنة في بابها (٥) .

ومن هذا قوله أيضا :

إذا احتربت يوما ففاضت دماؤها

تذكرت القربى ففاضت دموعها (٦)

أي إذا تحاربت الفرسان وتقاتلوا فترتب على هذا فيضان دماؤها
التي سكبت في القتال ، تذكرت ما بينهم من القرابة الجامعة لهم فترتب
على ذلك فيضان دموعها اشفاقا على من قتل (٧) ، فزواج بين الشرط
والجزاء في أن ترتب على كل منهما فيضان شيء ، فالاحتراب الذي هو
الجزاء ترتب عليه فيضان الدموع .

ومن هذا قول الشاعر :

إذا ما بدت فازداد منى جمالها

نظرت لها فازداد منى غرامها

فجمع بين الشرط والجزاء في لزوم الازدياد ، ورتب على البدو وهو
الشرط ازدياد الجمال ، ورتب على النظر وهو الجزاء ازدياد الغرام .

(٥) مواهب الفتاح ٣١٨/٤ .

(٦) احتربت : تحاربت ، والضمير يعود إلى فرسان هيجاء في البيت
قبل السابق .

(٧) أنظر حاشية الدسوقي ٣١٨/٤ .

ومنه قون الشاعر :

رب ساق كأنه غصن بان
طاب في روضة الملاحه غرسا .
واذا ما بدى فأخجل بدرا
لمت كأسه فأخجل شمسا

فزاوج بين بدوه ولمعان كأسه في أن رتب عليهما ايقاع الخجل على
شيء ، فبدوه يخجل البدر ، ولمعان كأسه يخجل الشمس •

وجمهور البلاغيين يقصرون هذا اللون على المزاوجة بين الشرط
والجزاء في ترتب فعل عليهما اقتداء بالشيخ عبد القاهر (٨) • وذكر
السيوطي أن المزاوجة تكون في الشرط والجزاء أو ما جرى مجراها ،
ومثل الذي جرى مجرى الشرط والجزاء بقوله تعالى (٩) : «واتل عليهم نبأ
الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين » (١٠) ،
ففي الآية الكريمة مزاوجة بين اتيان الآيات واتباع الشيطان في ترتيب
شيء واحد عليهما وهو الغواية ، مع مراعاة أن الانسلاخ من الآيات لون
من ألوان الغواية •

بلاغة المزاوجة :

والمزاوجة من الألوان البديعية التي تسهم في ربط الكلام ، واحكام
صياغته ، وجع بعضه آخذا بأعناق بعض ، ويتحقق ذلك فيها عن
طريقتين :

الأول : قيامها على الشرط والجزاء ، وهما مرتبطان ارتباطا وثيقا ،
فهما جملة واحدة لا يتم مفهومها ولا تتحقق فائدتها الا بتمامها •

(٨) انظر دلائل الاعجاز ٩٣ .

(٩) الاعراف آية ١٧٥ .

(١٠) معترك الأقران ٤١١/١ ، ٤١٢ .

والثانى : ربط كل من الشرط والجزاء بفعل واحد ، مما يزيد من تلاحم الكلام ويقوى من ارتباطه •
والمزوجة لون حقيق من النظم يحتاج الى تأمل ومراجعة حتى يأتى على صورته المحكمة ، وهى بهذا تعد نمطا عاليا من الكلام ، وفنا متميزا منه •

وقد جعلها الشيخ عبد القاهر من النظم الذى يتحد فى الوضع ويدق فيه الصنع ، ومهد للحديث عنها بقوله : واعلم أنه مما هو أصل فى أن يدق النظر ، ويغمض المسلك فى توحى المعانى التى عرفت : أن تتحد أجزاء الكلام ، ويدخل بعضها فى بعض ، ويشتد ارتباط ثنائياتها بأولها ، وأن تحتاج فى الجملة الى أن تتصغرها فى النفس وضعا واحدا ، وأن يكون خالك فيها خات البانى يصح بيمنه ههنا فى خال ما يصح بينار ههنا •
وبين أن هذا يجىء على وجوه شتى ، ومنها المزاوجة بين معنيين فى الشرط والجزاء (١١) •

ومن هذا يتبين لنا أهمية المزاوجة فى بلاغة الكلام ، واحكامها صنعتها واعلاء شأن نظمها •

السجع

فن اسلوبى اشتهر فى الأدب العربى ، وشاع على السنة الفصحاء قديما وحديثا ، وهو مأخوذ من سجع وفى هذه المادة دلالة على الاستواء والاستقامة والمثابرة • يقال : سجع يسجع سجعا ، أى استوى واستقام وأثبته بعضه بعضا ، وسجع الحمام : يدل على طريقة واحدة ، وسجع له سجعا : قصد ، وصل السجع القصد المستوى على نسق واحد (١) •

والسجع فى اصطلاح البلاغيين : تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد (٢) • أى أن تتفق الكلمتان الواقعتان فى نهاية جملتين فى الحرف الأخير منهما ، وبذلك يتم التشابه والتناسب بينهما •

ويطلق السجع أيضا على نفس الكلمة التى تتفق مع الأخرى فى حرفها الأخير ، ويقال لها سجعة ، وجمعها سجعات • وفى السجع مصطلحات ينبغى الوقوف عليها وهى :

١ - القرينة : وهى القطعة من الكلام المزوجة للأخرى ، وتسمى الفقرة كذلك •

٢ - الفاصلة : وهى الكلمة الأخيرة فى القرينة أو الفقرة •

٣ - التقفية : وهى توافق الفواصل فى الحرف الأخير •

٤ - الروى : وهو الحرف الأخير فى الفاصلة ، وهذه التسمية مأخوذة من روى القصيدة ، وهو الحرف الذى تبني عليه القصيدة ويتسبب اليأس •

فقول قس بن ساعدة : من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما

(١) لسان العرب مادة : سجع •

(٢) الايضاح ١٠٦/٦ •

هو آت آت • يشتمن على ثلاث جمل ، كل جملة منها تسمى قرينة أو فقرة ، والكلمة الأخيرة في كل قرينة تسمى فاصلة ، وحرف التاء في نهاية كل فاصلة هو الروى •

والفواصل في السجع تكون ساكنة الروى موقوفا عليها بالسكون حتى يظهر التناسق الصوتى فى السجع ، فلو وصل الكلام المسجوع ببعضه وحرك روى الفواصل بحركات الاعراب فانتت الخاصية الصوتية للسجع •

أقسام السجع :

والسجع باعتبار اتفاق الفاصلتين أو اختلافهما فى الوزن والتقفية على ثلاثة أقسام : المطرف ، والمرصع ، والمتوازى •

فالمطرف : ما اتفقت فيه الفاصلتان فى التقفية ، واختلفتا فى الوزن كما فى قوله : « ما لكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا » (٣) ، فوقارا وأطوارا فاصلتان متفقتان فى التقفية إذ تنتهيان بحرف الراء ، ومختلفتان فى الوزن ، والمعتبر فى الوزن ، الوزن العروضى الذى لا ينظر فيه الى اتحاد الحركة ، ولا لكون الحرف أصليا أو زائدا ، بل ينظر فيه الى مقابلة متحرك بمتحرك وساكن بساكن ، وليس المعتبر الوزن الصرفى الذى يقوم على مزاعة نوع الحركة والأصلى والزائد (٤) •

وقيل لأعرابي ما خير العنيد ؟ قال : ما اخضر عوده ، وطان غموده ، وعظم عنقوده • فالفواصل الثلاث تتفق فى التقفية وتختلف فى الوزن • ومن هذا قول الحريري : ولا ينفع أهل القبور ، سوى العمل المبرور ،

(٣) نوح آية ١٣ ، ١٤ •

(٤) حاشية السوقى ٤/٤٤٨ •

فطوبى لمن سمع ووعى ، وحقق ما ادعى ، ونهى النفس عن الهوى ، وعلم
أن الفائز من ارعوى (٥) .

وسمى هذا اللون مطرفا لان الاتفاق بين الفاصلتين واقع في طرفيهما
وهو الحرف الأخير منهما المعروف بالروى . وقيل غير ذلك (٦) .

والمرصع : ما اتفقت فيه الفاصلتان في الوزن والتقفية مع اتفاق
باقي ألفاظ القرينتين أو أكثرها في الوزن والتقفية كذلك . كقول
الحريري : فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع لأسماع بزواجر
وعظه . فكل ألفاظ القرينتين تتفق في الوزن والتقفية . ومثله قول أبي
الفضل الهمداني : ان بعد الكبر صفوا ، وبعد المطر صحوا . وقول
أبي الفتح البستي : ليكن اقدامك توكلا ، واحجامك تأملا . وقول
الصاحب : لكنه عمد للشوق فأجرى جواده غرا وقرحا (٧) ، وأورى
زناده قدحا فقدحا . وهذا المثال مما أكثر ألفاظه متفقة في الوزن
والتقفية .

وهذا النوع اذا سلم من التكلف والاستكراه فهو أحسن وجوه
السجع (٨) ، لظهور التناسب التام بين جميع ألفاظه مما يجعل له ولغا
موسيقيا أخاذا ، وسمى مرصعا تشبيها له بالعقد المرصع وهو ما يجعل
فيه احدى اللؤلؤتين في مقابلة الأخرى مثلها .

والمتوازي : ما اتفقت فيه الفاصلتان وزنا وتقفية بكونه تعالى :
« فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة » (٩) ، فالفاصلتان « مرفوعة

(٥) شرح المقامات ١٧٢/٢ .
(٦) انظر مواهب الفتح ٤٤٧/٤ .
(٧) انغر : جمع أنغر وهو الحصان الذي يكون في وجهه بياض ،
والقرح : جمع أقرح ، وهو ما كان في وجهه بياض دون الغرة .
(٨) انظر الصناعتين ٢٠٢ .
(٩) الغاشبية آية ١٣ ، ١٤ .

و موضوعة « متفقتان في الوزن والتقفية • ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم انى أدرا بك فى نحورهم ، وأعوذ بك من شرورهم » • ومنه قول الحريرى : تبصر العواقب ، يؤمن المعاطب ، وقبح الجفاء ، ينافى الوفاء (١٠) • وسمى هذا النوع متوازيا لتوازي الفاصلتين وتوافقهما وزنا وتقفية (١١) •

وتختلف فقر السجع طولا وقصرا ، فمنها القصيرة كما فى قوله تعالى : « يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر » (١٢) ، ومنها المتوسطة كما فى قوله تعالى « اقتربت الساعة وانشق القمر : وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر » (١٣) • ومنها الطويلة كما فى قوله تعالى : « اذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو رآكهم كثيرا لفتنتهم ولتأزغنهم فى الأمر ولكن الله سلم انه عليم بذات الصدور ، واذ يريكهم اذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمر كان مفعولا والى الله ترجع الأمور » (١٤) •

السجع والشعر :

وجمهور البلاغيين يرون أن السجع مختص بالثر ، وبعضهم يجعله غير مختص به فهو موجود فى الشعر ومنه قول أبى تمام :

تجلى به ثمندى ، وأثرت به يدى

وفاقت به ثمندى ، وأورى به زندى (١٥)

-
- (١٠) شرح المقامات ١٩/٢ •
(١١) مواهب الفتح ٤٤٨/٤ •
(١٢) المدثر آية ١ - ٥ •
(١٣) القمر آية ١ - ٣ •
(١٤) الأنفال آية ٤٣ ، ٤٤ •
(١٥) أثرت : صارت ذا ثروة ؛ والثمد بكسر الثاء الماء القليل .
والورى : خروج النار من الزند ، والجملة كناية عن نيل المراد •

ففى البيت أربع سجعات موقوفة على الدال •

والسجع فى الشعر له أنواع منها :

التشطير : وهو جعل كل شطر من البيت على سجتين مخالفتين لما

فى الشطر الآخر • كما فى قون أبى تمام :

تدبير معتصم ، بالله منتقم

لله مرتغب فى الله مرتقب

وقول مسلم بن الوليد :

موف على مهج ، فى يوم ذى رهج

كأنه أجس ، يسعى الى أمل

وقول البوصيرى فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم :

كالبدر فى شرف ، والزهر فى ترف

والبحر فى كرم ، والدهنر فى همم

٢ — القصريع : وهو جعل العروض مقتناة تقفية الضرب ، ويكثر فى

مطالع القصائد ، كقول امرئ القيس :

قلبانك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحول

وقول كعب بن زهير :

بانى سعاد فقلبنى اليوم متبول

متيم اثرها لم يفد مكبول

وقول شوقي :

ريم على القاع بين البيان والعلم

أهل سفك دنى فى الأشهر الحرم

وتحدث ابن الاثير عن التصريح ، وذكر أنه في الشعر بمنزلة السجع في النثر ، وفائدته الدلالة ، على قافية اتقصيدة قبل كمال البيت الأول منها ، وفيه دلالة على سعة القدرة في أفانين الكلام ، وجعله سبع مراتب ، لا مجال للاطالة بذكرها (١٦) .

٣ - التسميط : وهو مثل التشطير الا ان السجعة الأولى من الشطر الثاني توافق السجعتين اللتين في الشطر الأول كقول صفي الدين الحلبي :

فالحق في أفق ، والشرك في نفق

والكفر في فرق ، والدين في حرم

وقول الخنساء :

حمال أوية ، هباط أودية

شهاد أندية ، للجيش جرار

السجع في القرآن الكريم :

ذهب بعض العلماء الى نفي السجع عن القرآن الكريم ، وذكروا أن ما جاء فيه على صورة السجع انما هو فواصل وليس بسجع ، ومن حججهم في ذلك : أن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ ، وهذا قلب ما توجبه الحكمة في الدلالة ، فهو عيب ، أما الفواصل فيتبع اللفظ فيها المعنى ، فهي بلاغة وحكمة ، لانها طريق الى فهم المعانى التى يحتاج اليها في أحسن صورة يدل بها عليها (١٧) .

كما أن السجع مما كان يألفه الكهان من العزب ، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر ، لانه الكهانة تنفى النبوات ، وليس كذلك الشعر . وقد ذم الرسول صلى الله عليه وسلم السجع عندهما جاءه

(١٦) المثل السائر ٩٨ ، ونظرو النبيان ٤٦٩ .

(١٧) النكت في اعجاز القرآن ١٤١ ، ١٤٢ .

الذين كلموه في شأن الجنين وقالوا : كيف ندى من لا شرب ولا أكل ،
ولا صاح فاستهل ، أليس دمه قد يطل ؟ فقال : أسجاعة كسجاعة
الجاهلية ، وفي رواية أسجعا كسجع الكهان ؟ وبهذا كان السجع
مذموماً (١٨) .

وبعض العلماء يرون أن السجع موجود في القرآن الكريم ، وأن
السجع ليس مذموماً على إطلاقه ، بل منه نوع مذموم وهو المتكلف
المردول الذي يكون المعنى فيه تابعا للفظ ، والقرآن الكريم منزّه عن
هذا النوع ، ومنه نوع محمود وهو السجع البليغ الذي تأتي الألفاظ
فيه تابعة للمعاني ، وهذا هو الموجود في القرآن الكريم ، وقد وصل فيه
درجة الإعجاز (١٩) .

والاستدلال بحديث الجنين على ذم السجع استدلال فاسد لان
النبي صلى الله عليه وسلم لو أراد ذم السجع على الإطلاق لقال :
أسجعا ؟ وإنما قال : أسجعا كسجع الكهان ؟ فدل ذلك على أنه أنكر
تشادق هؤلاء القائلين بالسجع ، ومحاولتهم دفع حق وجب عليهم بطريقة
الكهان في الجاهلية ، وكيف يذم النبي السجع وكثير من كلامه مسجوع
من غير تكلف ولا تعمد ، وقد بلغ فيه أعلى درجات البلاغة البشرية (٢٠) .

وقد أجمع البلاغيون والنقاد على أن السجع من وجوه البديع التي
يتميز بها الكلام إذا جاءت غير متكلفة ، والسجع المصنوع من أمارات
الفصاحة التي يقصد اليها أعلام البلاغاء في بعض كلامهم ، فكيف نجد
القرآن الكريم منه وننقيه عنه ، مع ادعائنا أنه قد اشتمل على أنواع
البلاغة والفصاحة (٢١) .

(١٨) انظر اعجاز القرآن ٥٧ - ٦٢ .

(١٩) انظر سر الفصاحة ١٦٥ .

(٢٠) انظر المثل السائر ٧٥ ، ومقدمة تحقيق اعجاز القرآن ٧٥ .

(٢١) مقدمة تحقيق اعجاز القرآن ٧٧ .

ولعل الذي دعا بعض العلماء إلى نفي السجع عن القرآن الكريم وتسمية ما جاء على صورته فواصل ، رغبتهم في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروي عن الكهنة وغيرهم ، وهذا غرض قريب يتعلق بالتسمية ، ولا يؤثر في جوهر القضية ، إذ الحقيقة أن السجع موجود في القرآن الكريم في مواضع كثيرة ، بن أن بعض السور قد جاءت كلها مسبوغة على حرف واحد - تقريبا - . كنسورة النجم وسورة القمز ، وسورة الزخمن . ونسواء سمي هذا بالسجع أو بالفواصل فالحقيقة موجودة ، ولا مشاحة في الاصطلاح ، والذي ينبغي أن يؤكد عليه ، أن كل ما جاء من السجع في القرآن الكريم فهو من الطبقة العليا في الفصاحة والبلاغة (٢٢) .

وما دام الحديث قد تطرق إلى الفاصلة فينبغي أن تعلم أن الفاصلة القرآنية لها غدة تعريفات أشهرها : أنها آخر كلمة في الآية (٢٣) .

والفواصل القرآنية أعم من السجع حيث لا يشترط فيها التماثل في المقطع لذا فهي تنقسم إلى متماثلة ومتقاربة ، فالمتماثلة ما اتحدت حروف مقلظها كقوله تعالى : « طه » ما أنزلنا عليك القرآن لتشقي ، الا تذكره لن يفتكي ، تتنويلا من خلق الأرض والسموات العلى ، الرحمن على العرش استوى » (٢٤) ، وقوله تعالى : « والعاديات ضبحا ، فالوريطت قحطاء ، فالغيزابت صباحا ، فأثون بها نقلا ، فوسطن به جمعنا » (٢٥) .

والمتقاربة ما تقاربت حروف مقاطعها كقوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم » (٢٦) ، وقوله تعالى : « وآتيناها الكتاب

(٢٢) انظر سر الفصاحة ١٦٦ ، والبيدع من المعاني والألفاظ ١٢٩ - .

(٢٣) البرهان ٥٣/١ ، وانظر الفاصلة في القرآن ٢٣ - ٣٠ .

(٢٤) طه آية ١ - ٥ .

(٢٥) العاديات ١ - ٥ .

(٢٦) الفاتحة آية ٢ .

المستبين ، وهديتاها الصراط المستقيم « (٢٧) •

وتنقسم الفواصل من ناحية الوزن والتقفية الى متوازية ، ومطرفة ، ومتوازنة • فالمتوازية : ما اتفقت في الوزن والمقطع كقوله تعالى :
« فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر » (٢٨) •

والمطرفة : ما اتفقت في المقطع لا في الوزن ، كقوله تعالى : « ألم نجعل الأرض مهادا ، والجبال وقادا » (٢٩) ، وقوله تعالى : « ان المتقين في جنات ونهر ، في متعدد صدق عند مليك مقتدر » (٣٠) •

والمتوازنة : ما اتفقت في الوزن دون المقطع ، كقوله تعالى : « يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن » (٣١) ، وقوله تعالى :
« والليل اذا يغشى ، والنهار اذا تجلّى ، وما خلق الذكور والانثى ، ان نسعيكم لشتى » (٣٣) •

والفواصل القرآنية متلائمة ومتناسبة مع ما يسبقها من كلام ، وهذا التناسب قد يكون ظاهرا واضحا ، وقد يكون خفيا يحتاج الى تأمل حتى يدرك على وجهه الصحيح ، وقد بينا هذا في حديثنا عن تشابه الأطراف •

وفواصل القرآن الكريم كلها بلاغة وحكمة : لأنها طريق الى افهام المعانى التى يحتاج اليها فى أحسن صورة يدل بها عليها ، وقد أوجز الرمانى فائدة الفواصل وهى : دلالتها على المقاطع ، وتحسينها الكلام

-
- (٢٧) النبأ آية ٦ ، ٧ •
 - (٢٨) الضحى آية ٥ ، ٦ •
 - (٢٩) الصافات ١١٧ ، ١١٨ •
 - (٣٠) القمر آية ٥٤ ، ٥٥ •
 - (٣١) المعارج آية ٨ ، ٩ •
 - (٣٢) الليل آية ١ - ٤ •
 - (٣٣) انظر البرهان ٧٢/١ - ٧٧ •

بالتشاكل ، وابدأؤها في الآي بالنظائر (٣٤) والحديث عما في الفواصل القرآنية من بلاغة عالية ، وأغراض سامية يحتاج الى بحوث مستقلة .

بلاغة السجع :

السجع من الفنون الاسلوبية الفطرية التي تؤثر في النفوس تأثير السحر ، وتلعب بالأفهام لعب الريح بالهشيم ، لما يحدثه من النعمة المؤثرة ، والموسيقى القوية التي تطرب لها الأذان ، وتهش لها النفس ، فتقبل على السماع من غير أن يدخلها ملل ، أو يخالطها فتور ، فيتمكن المعنى في الأذهان ، ويقر في الأفكار ، ويعز لدى العقول ، وهذا كله أس البلاغة ومقصد البلغاء (٣٥) .

والسجع عنصر من عناصر التناسب في الكلام ، فالاسلوب مقسم الى فقر متساوية ، متشاكله المقاطع ، متشابهة الأوزان ، متناسقة النغم ، وهذا مؤد الى ربط الكلام وتلاحمه .

وللسجع الحسن عند البلاغيين مقاييس شكلية وأخرى معنوية .

فأما الشكلية فقد ذكروا أن أحسن السجع ما تساوت قرائنه في عدد الكلمات كقوله تعالى : « في سدر مخصود ، وطلح منضود ، وظل ممدود » (٣٦) ، ثم ما طالت قرينته الثانية كقوله تعالى : « والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى » (٣٧) ، ثم ما طالت قرينته الثالثة كقوله تعالى : « خذوه فلعوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » (٣٨) ، ولا يحسن عندهم أن تلى القرينة قرينة أقصر

(٣٤) النكت : ٩٨ ، ٩٩ . وانظر كتابنا : البحث البلاغي في ظلال القرآن الكريم ٨٢ ، ٨٣ .

(٣٥) انظر الصبغ البديعي ٤٩٧ .

(٣٦) الواقعة آية ٢٨ - ٣٠ .

(٣٧) النجم آية ١ ، ٢ .

(٣٨) الحاقة آية ٣ ، ٤ .

منها كثيرا ، كأن يقال : خاطبني خليلي وشفاني بكلامه الذي هو كالجواهر النفيس ، فانتضيت به حسن تنفيس . وذلك لان السجع اذا استوفى أمدّه من الأولى لطولها ، ثم جاءت الثانية أقصر منها كثيرا يكون كالشيء المبتور ، ويبتى السامع كمن يريد الانتهاء الى غاية فيعثر دونها ، والذوق يشهد بذلك ويقضى بصحته (٣٩) .

وهذه المقاييس الشكلية ينبغي ألا تكون مطلقة فقد وقع السجع في القرآن الكريم متفاوتا في طوله وقصره ، وهو بالغ غاية الحسن ، ولا يمكن التقليل من حسن بعضه ، فاسلوب القرآن الكريم في ذروة البلاغة والحسن ، وهو في كل موضع يلائم المقام الذي ورد فيه ، وهذا هو المقياس الصحيح لبلاغة الاساليب .

وأما المقاييس المعنوية : فيجب ألا تكون احدي القرينتين تكرارا للأخرى والا كان تطويلا بمعزل عن البلاغة ، كقول ابن عباد في مهزومين : طاروا واقين بظهورهم صدرهم ، وبأصلابهم نحورهم . فان الظهور بمعنى الأصلاب ، والصدور بمعنى النحور (٤٠) .

كما ينبغي لا يكون السجع متكلفا من أجل الزخرف اللفظي ، بل يجب أن يكون المعنى هو الذي يطلبه والمقام هو الذي يقتضيه ، ولا يمكن الاستغناء عنه في موضعه الذي جاء فيه ، ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم : يا أيها الناس : افشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام . فالسجع هنا من مقتضيات المقام ، والمعنى هو الذي قاد اليه ، ولذلك لا يمكن تغيير كلمة منه دون أن يتأثر المعنى ويضعف الاسلوب .

ومن هذا قول الأعرابي يشكو لعامل الماء : حلثت ركابي (٤١) ،

(٣٩) انظر شروح التلخيص ٤/٤٤٩ ، ٤٥٠ .

(٤٠) انظر مواهب الفتاح ٤/٤٤٩ .

(٤١) حلثت ركابي : منعت ابلى من الماء والكلأ .

وشققت ثيابي ، وضربت صحابي • فقال له العامل : وتسجع أيضا
بـ ينكر عليه السجع في الكلام — فقال الأعرابي : فكيف أقول ؟ • يعني
بن هذا الذي قاله هو ـ أصدق تعبير عن حالته ، ولا يعلم أصلح لما أراد
التعبير عنه خيرا من هذه الألفاظ التي قائلها ، ولم يره بالسجع مخلا
بمعنى ، أو محدثا في الكلام استكراها ، أو خارجا الى تكلف واستعمال
ما ليس بمعتاد في غرضه (٤٢) • ولذلك قال الجاحظ : لأنه لو قال : حلئت
ابلى أو جمالي أو نوقى أو بعرائى أو صرمتى (٤٣) ، لكان لم يعبر عن
حق معناه ، وإنما حلئت ركابه ، فكيف يدع الركاب الى غير الركاب ،
وكذلك قوله : وشققت ثيابي ، وضربت صحابي (٤٤) •

كذلك ينبغي التخفف من السجع ، فلا يأتي الكلام كله مسجوعا
ولا سيمما إذا كان طويلا ، لما في ذلك من أمارات التكلف والتصنع
والاستكراه (٤٥) • والحكم في ذلك هو المعنى ، فينبغي للمتكلم أن
يرتلك المعاني على سجيته ويدعها تطلب لأنفسها الألفاظ التي تليق بها
مسجوعة أو غير مسجوعة ، فان العارفين بجواهر الكلام لا يعرجون على
هذا الفن ونظائره الا بعد الثقة بسلامة المعنى وصحته (٤٦) •

وأقرأ ان شئت قول الجاحظ في أول كتاب « الحيوان » : جنبك الله
الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعب بينك وبين المعرفة سببا ، وبين
الصدق نسبا ، ووجب إليك التثبت ، وزين في عينك الانصاف ، وأذاقك
حلاوة للتقوى ، وأشعر قلبك عز الحق ، وأودع صدرك برد اليقين ،

(٤٢) أسرار البلاغة ٩ ، ١٠ .

(٤٣) الصرمة بالكسر : القطيع من الإبل من ٣٠ — ٤٠ أو ٥٠ أو من

١٠ — ٤٠ .

(٤٤) البيان والتبيين (٢٨٨/١) وفيه : وخرقت ثيابي ..

(٤٥) سر الفصاحة ١٦٧ .

(٤٦) أسرار البلاغة ٦ ، ١٠ .

وطرد عنك ذل اليأس ، وعرفك ما في الباطل من الذلة ، وما في الجهل
من القلة (٤٧) .

فانك ترى الجاحظ ترك المعانى على سجيتها ، ولم يغرق اسلوبه
بالسجع ولم يتكلف ان يضع كلمة في غير موضعها ، او يعتمد المجيء
بكلمة تتفق مع صاحبيتها في مقطعها ، فناء كلامه المسجوع وغير المسجوع
سلسا سهلا مرتديا ثوب الحسن .

قال الشيخ عبد القاهر معلقا على هذا النص : فقد ترك أولا أن
يوفق بين التشبه والحيرة في الاعراب ، ولم ير أن يقرن الخلاف الى
الانصاف ، ويشفع الحق بالصدق ، ولم يعن بأن يطلب لليأس قرينة
تصن جناحه ، وشيئا يكون رديفا له ، لانه رأى التوفيق بين المعانى أحق ،
والموازنة فيها أحسن (٤٨) .

وبهذه المقاييس التى قدمناها يكون السجع فنا جميلا بليغا ، يكتسب
به اللفظ حلية بهية ، ويزداد به المعنى قوة وفخامة ، ويجعل الاسلوب
مؤثرا فى النفس ، مستوليا على الأسماع والعقول .

(٤٧) الحيوان ١ - ٣ .

(٤٨) أسرار البلاغة ٧ .

مواضع التائق في الكلام

ينبغي للمتكلم أن يعنى في كلامه بثلاثة مواضع : الابتداء ،
والتخلص ، والانتهاء ، فيتائق في صياغتها ، ويختار المعانى الملائمة لها ،
والإلفاظ الدالة عليها أحسن دلالة ، ويجعلها مناسبة ومتناسبة . وذلك
أن حسن الافتتاح داعية الانشراح ومطية النجاح ، ولطافة الخروج
والتخلص تريح السامع وتجعل الكلام متماسكا مقترنا ببعضه ، وخاتمة
الكلام أبقى في السمع وألصق بالنعش لقرب العهد بها ، فان حسنت
حسن ، وان قبحت قبح ، والأعمان بخواتيمها كما ورد عن الرسول
صلى الله عليه وسلم (١) .

واليك تفصيل الحديث في هذه المواضع :

١ - حسن الابتداء :

الابتداء أول ما يقرع السمع ، فان كان عند اللفظ ، صحيح
المعنى ، جيد السبك ، ملائما للموضوع ومناسبا للمقام ، أقبل للسامع
على الكلام بانشراح فوعاه وعلم ما فيه ، وان كان على خلاف ذلك
أعرض عنه ونفسر منه .

قال ابن رشيق : الشعر قفل أوله مفتاحه ، وينبغي للشاعر أن يوجد
ابتداء شعره ، فانه أول ما يقرع السمع ، وبه يستدل على ما عنده من
أول وهلة . . . وليجعله حلوا سهلا ، وفخما جزلا .

ومن أحسن الابتداءات عند العرب قول امرئ القيس :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(١) انظر العمدة ٢١٧/١ ، ٢٤١ .

وذلك لانه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل
في مصراع احد (٢) .

وأحسن منه قول النابغة :

كلينى لهم يا أميمة ناصب
وليل أقاسيه بطيء الكواكب

وقد فضله النقاد على بيت امرىء القيس لان شطريه متناسبان
والفاظه متلائمة ، والشرط الثانى فى بيت امرىء القيس كثير الألفاظ ،
قليل المعنى ، غريب اللفظ (٣) .

وإذا اشتمل الابتداء الحسن على اشارة الى المقصود من تهنئة
أو مدح أو هجاء أو عتاب أو غير ذلك سمي : براعة استهلال .

وعلى هذا فينبغى للمتكلم أن يجعل مطلع كلامه متناسبا مع ما بعده
ومتلائما معه . ويكون دالا على موضوعه الذى هو آخذ فى التعبير عنه .

ومن براعة الاستهلال مطلع قصيدة أبى تمام فى تهنئة المعتصم بفتح
عمورية ، بعد أن خالف رأى المنجمين الذين زعموا أنها لا تفتح فى ذلك
الوقت ، وهو قوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب
فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى
متونهن جلاء الشك والريب

ومنه فى الرثاء قول أوس بن حجر :

(٢) العمدة ٢١٨/١ .
(٣) انظر خزانة الأدب ١٩/١ ، ٢٠ .

أيتها النفس أجملى جزعا
ان الذي تحذرين قد وقعنا

قال النقاد : لم يبتدأ أحد من الشعراء بأحسن مما ابتدأ به أوس
ابن حجر ، لانه افتتح المرثية بلفظ نطق به على المذهب الذي ذهب اليه
منها في القصيدة ، فأشعر بك بمراده في أول بيت (٤) .

ومن جيد الابتداءات المشتملة على براعة الاستهلال قول حافظ
ابراهيم في تحية عام هجرى

أطل على الأكوان والخلق تنظر

هالان رآه المسلمون فكبروا

وقول شوقي في همزيته :

ولد انهدى فالكائنات ضياء

وفم الزمان تبسم وثناء

وقول في الأزهريته

قم في فم الدنيا وحى الأزهر

وانثور على سمع الزمان الجوهرا

والابتداءات المعيبة :

وقد يلحق بعض الشعراء العيب والذم بسبب ابتداءاتهم القبيحة

من جراء الغفلة والنسيان أو الغلظة في الطبع أو الاستغراق في الصنعة

واهمال قوانين البلاغة . ومن أمثلة ذلك :

دخل جرير على عبد الملك بن مروان فابتدأ ينشده :

أتصحو أم فؤادك غير صباح
عشية هم صحك بالروح

فقال له عبد الملك : بل فؤادك أنت يا بن الفاعلة * وكأنه استقبل
هذه المواجهة مع أنه لا يغيب عنه أن الشاعر يخاطب نفسه *

ودخل ذو الرمة على عبد الملك بن مروان فأنشده قصيدته :

ما بال عينك منها الماء ينسكب
كأنه من كل مفرية سرب

وكانت عين عبد الملك بها رمش وهي تدمع دائماً فظن أنه قد عرض
به فكان له : بل عينك أنت ، وأمر باخراجه *

وقيل أنه لما بنى المعتصم قصره ببغداد ، وجلس فيه في يوم حفل
مع عظماء دولته ورجاله أنشده اسحاق الموصلي :

يا أدار غيرك البسلي ومحباك
يا ليت شمسك في ماء الذي أنلاك

فتطير المعتصم بهذا الابتداء وأمر بهدم القصر (٥) *

وكان على هذا الشاعر أن يبتدأ ابتداءً مناسباً للمقام كالذي قاله
أشجع السلمي :

قصر عليك تحية وسلام خلعت عليك جمالها الأيام

وقد عاب النقاد على المتبني بعض ابتداءاته ومنها قوله في مدح
كافور :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا
وحسب المنايا أن يكن أمانيا

فالمتنبى وإن كان يخاطب نفسه على سبيل التجريد إلا أن هذا
الابتداء غير ملائم للمدح ولا يتناسب مع مخاطبة الملوك وأولى به أن
يكون بداية لقصيدة في الرثاء • أو الهجاء •

فواتح سور القرآن الكريم :

قد أجمع البلاغيون والنقاد على أن فواتح سور القرآن الكريم
بلغت أعلى درجات البلاغة ، وجاءت فاتحة كل سورة في غاية التلاؤم
والتناسب مع ما تتضمنه الصورة من أحكام وعظات وقصص وأمثال •

وقد ألف ابن أبي الأصبع كتابا في فواتح سور القرآن الكريم
سماه الخواطر السوانح في أسرار الفواتح • بين فيه أسرار الفواتح في
سور القرآن الكريم وذكر أن الله تعالى قد افتح سور القرآن الكريم
بعشرة أنواع من الكلام لا يخرج شيء من السور عنها : الأول : الثناء
عليه تعالى ، والثاني : حروف التهجي ، والثالث : النداء ، والرابع :
الجميل الخبرية ، والخامس : القسم ، والسادس : الشرط ، والسابع :
الأمر ، والثامن : الاستفهام ، والتاسع : الدعاء ، والعاشر : التعليل (٦) •
وقد أفاض في تفصيل ذلك وبين أسرار هذه الفواتح بدقة وعناية •

وابتداءات سور القرآن الكريم توظف السامعين ، وتنبيههم إلى
ما يأتي في سوره من تشريعات وعظات •

فابتداء سورة النور : « سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها
آيات بينات لعلكم تذكرون » (٧) ، يشير إلى عظمة هذه السورة وأهميتها

(٦) ينظر الخواطر السوانح : تحقيق : د. جفنى شرفه •

(٧) النور آية ١ •

ما تتضمنه من أحكام وتشريعات وآداب وعظات فيها اصلاح للاسرة
والمجتمع ووقايه وحماية لأعراض المسلمين وشرفهم •

وابتداء سورة التوبة : « براءة من الله ورسوله ألى الذين عاهدتم
من المشركين » (٨) ، يدل على اعلان المقاطعة للمشركين ، والأمر بقتالهم
واسقاط عهودهم ، وهذا ما فصلته السورة وبينته في آياتها بوضوح •

وهكذا ابتداءات جميع سور القرآن الكريم ، اذ تدبرتها جملتها
وتفصيلها ومفرداتها ومركباتها ، ومعجماتها ومعرباتها ، ونظرت في
أعداد حروفها وما يوافق أعدادها من العدد الحسابى وما نسبت اليه من
المعانى • رأيت من البلاغة والتقنن في أنواع الاشارة ما تقتصر عنه
العبارة (٩) •

٢ - حسن التخلص :

ويسمى « الخروج » وهو انتقال للشاعر من فن الى فن آخر بأحسن
اسلوب مع التلطف بحيث لا يشعر السامع بالانتقال لشدة الالتئام كأنهما
أفرغا في قالب واحد (١٠) •

والتلطف في الخروج وحسن التخلص يدل على حذق الشاعر وقوة
تصرفه ويحرك نشاط السامعين ويساعد على اصغائهم •

وأحسن التخلص ما وقع في بيت واحد ومنه قول مسلم بن الوليد
يمدح يحيى البرمكى :

(٨) التوبة آية ١
(٩) بديع القرآن ٦٤
(١٠) علوم البلاغة ٣٩١

أجدك ما تدرين ن رب ليلة
كأن دجاها من قرونك تنشر (١١)
سهرت بها حتى تجلت بغرة
كغرة يحيى حين يذكر جعفر

فقد تخلص من النسيب بالانتقال من غرة الصبح الى الممدوح بعد
أن جعل غرة الصبح كغرة فكان في الانتقال من الأول الى الثانى مناسبة
من جهة أن لكل غرة تشبه الأخرى (١٢) .

ويليه فى الحسن ما يأتى فى بيتين كقول المتنبى يمدح المغيـث العجلى:
هرت بنا بين تربيها فقلت لها
من أين جانس هذا الشادن العربا
فاستضحكت ثم قالت كالمغيث يرى
ليث الشرى وهو من عجل إذا انتسبا

فقد تخلص من النسيب الى المدح بالاستفهام وجوابه وهما فى
بيتين .

ومن التخلصات المختارة قول أبى تمام :
يقولون فى قومس قومه وقد أخذت
منا السرى وخطا المهرية القود (١٣)
أمطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا
فقلت كلا ولكن مطلع الجود

(١١) اجدك : بكسر الجيم وفتحها وهو منتسب على نزع الخافض
أى : اجدك . والقرون : خصل الشعر .
(١٢) بغية الايضاح ١٥٤/٤ .
(١٣) قومس : موضع متسع بين خرابيان وبلاد الجبل . والمهرية :
الابل المنسوبة الى مهرة ، والقود : الطويلة الظهر والأعناق .

وقد تخلص الشاعر بالانتقائين من مطلع الشمس الى الممدوح بأن
جعله مطلع الجود .

وقد اختلف في وقوع التخلص في القرآن الكريم فقليل لا يقع فيه
لانه يقع في الغالب متكلفا والقرآن منزه عن ذلك وقين : انه قد وقع فيه
كما في قوله تعالى في أول سورة يوسف : « آلر تلك آيات الكتاب المبين
انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلمكم تعقلون ، نحن نقص عليك احسن القصص
يما أوجينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين ، اذ قال يوسف
لأبيه يا أبت انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى
ساجدين » فالسورة موضوعة لقصة يوسف ، وقد افتتحت بذكر
القرآن الكريم وبعض ما يتصل به ثم تخلص الى قصة يوسف هذا
التخلص البديع (١٤) . ومنه قوله تعالى : « سأل سائل بعذاب واقع ،
للكافرين ليس له دافع ، من الله ذى المعارج ، تعرج الملائكة والروح
اليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » (١٥) ، ذكر أولا عذاب
الكافرين وانه لا دافع له من الله ، ووصف الله تعالى بذى المعارج تخلصا
الى قوله « تعرج الملائكة والروح اليه » وهذا من أطف التخلص
وأحسنه (١٦) .

وقد يقع التخلص جميعا لم يوفق الشاعر فيه ، فيتبع ويذم ، ومنه
قول أبى الطيب :

ها فانظرى أو فظنى بنى ترى حرقا
من لم يذق طزفا منها فقد وألا (٢٧) -
عل الأمير يرى ذلى فيشفيج لى
الى التى تركنتى فى الهوى مثلا

(١٤) بغية الايضاح ١٥٥/٤ .

(١٥) المعارج آية ١ - ٤

(١٦) الاقصى القريب ٨٤ .

(١٧) الخرق : جمع حرقه ، ما يجسده الانسان من الامم الحب او
الحزن ، وال : نجسا .

فقد تمنى أن يكون الأمير قوادا له .

والتخلص فن بدعى ذهب اليه المحدثون من الشعراء وقلما فات واحدا منهم في انتقاله من غرض الى غرض . أما الشعراء القدماء فلم يذهبوا هذا المذهب في الخروج من غرض الى غرض ، بل نجد أكثرهم يخرج من وصف الأبل وذكر الديار والنسيب الى ما قصد اليه بقوله :
دع ذا ، وعد عن ذا ، وما أشبه ذلك وهذا قد سماه البلاغيون الاقتضاب .

فالاقتضاب : هو انتقال الشاعر من فن الى فن آخر من غير تمهيد أو تخلص حسن ، وهو مذهب الشعراء الأوائل ومن يلينهم من المخضرمين ومن يتقلدون طريقتهم من المحدثين .

ومن الاقتضاب قول الشاعر :

فدع ذا وسلّ الهم عنك بجسرة
ذمول اذا صام النهار وهجرا (١٨)

ونظيره قول حسان :

فدع هذا ولكن من لطيف
يؤرقنى اذا ذهب العشاء

فانتقل من وصف الديار وما كانت عليه الى ذكر من يهواها بقوله
« فدع هذا » وهو من قبيل الاقتضاب .

ومن الاقتضاب قول أبي تمام :

لو رأى الله في الشيب خيرا

جاورته الأبرار في الخلد شيئا

(١٨) الجمرة : الناقة الطويلة الضخمة ، الذميتول : الناقة التي تسير سيرا حثيثا .

كل يوم تبدى صروف الليالى
خالقا من أبى سعيد غريبا

فقد انتقل الى المدح اقتضابا من غير تخلص •

ومن الاقتضاب ما يقرب من التخلص وهو فصل الخطاب ، ويكون كقول القائل : بعد حمد الله أما بعد • ومن الفصل الذى هو أحسن من الموصل لفظة هذا ، وهى علاقة وكيدة بين الخروج من كلام الى كلام آخر غيره كقوله تعالى : « هذا ذكر وان للمتقين لحسن مآب » (١٩) •

ومنه قوله تعالى : « هذا وان للطاغين لشر مآب » (٢٠). أى الأمر هذا أو هذا كما ذكر • فانتقلت الآيات من غرض الى غرض عن طريق لفظة « هذا » وذلك من فصل الخطاب الذى هو أطف موقعا من التخلص (٢١) •

وبهذا ترى أن القرآن الكريم لم يترك واديا من أودية البلاغة الا أخذ منه بنصيب وعبر عنه تعبيرا معجزا •

ومنه استعمال « أيضا » وهذا كثير فى كلام المتأخرين وفيه ربط بين الكلام السابق واللاحق •

٣ - حسن الانتهاء :

وهو أن يختم المتكلم كلامه ختاما حسنا فى ألفاظه ومعانيه ، ملائما لما قبله ومناسبا للموضوع الذى يقول فيه ، لان ختام الكلام آخر ما يعيه السمع • ويرتسم فى النفس فان كان مختارا مستوفيا شروط

(١٩) ص ٤٩ •

(٢٠) ص ٥٥ •

(٢١) المثل السائر ٢٨٢ •

الحسن جبر ما سبته من تقصير ، ورسخ في الذهن ، وان كان بخلاف ذلك ترك انطبعا سيئا ، وربما أنسى محاسن ما قبله .

ومن الانتهات الحسنة قول أبي نواس :

واني جدير إذ بلغتك بالني
وأنت بما أملت منك جدير
فان تولني منك الجمين فأهله
والا فاني عبأذر وشيكور

ومثلها قول أبي تمام :

فما من ندى إلا إليك مخلصه
ولا رفعة إلا إليك تسير

وإذا تضمن الانتهاء ما يشعر بانتهاء الكلام وتمامه سمي : براعة المقطع ومنه قول أبي نواس :

بقيت للعلم الذي تهدي له
وتقاعست عن يومك الأييام

ومنه قول الشاعر :

بقيت بقاء الدهر يا كهف أهله
وهذا دعاء للبرية شامل

وقول الآخر :

فلاحظت لك الهجاء سرجا
ولا ذأقت لك الدتينا فراقا

خواتم سور القرآن الكريم :

وقد جاءت خواتم السور مثل فواتحها في الحسن ، فتضمنت المعانى البديعة مع ايدان السامع بانتهاء الكلام حتى لا يبقى معه للنفوس تشوف الى ما يذكر بعد .

وخواتم السور القرآنية تدور بين الأدعية والوصايا ، والفرائض ، والتحميد والتهليل ، والمواعظ ، والوعد والوعيد ، وغير ذلك مما يناسب جو السورة نفسها من بدايتها الى نهايتها (٢٢) .

ومن ختام السور القرآنية قوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » وهذا ختام سورة آل عمران ، وقد تضمن الختام وصية بالصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى وهي تتلاءم مع جو السورة حيث عرض فيها حديث النصر والهزيمة في بدر وأحد وما في ذلك من دروس وعبر .

وقوله تعالى : « هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو اله واحد وليذكر اولوا الالباب » وهذا ختام سورة ابراهيم . وهو مناسب لما في السورة من تهديد ووعيد للكافرين ، وترهيب بمشاهد يوم القيامة .

وقوله تعالى : « وقف رب اغفر وارحم وانت خير الراحمين » وهذا ختام سورة المؤمنون . وفيه دعاء بالمغفرة والرحمة ، وثناء على الله تعالى بأنه خير الراحمين استجلابا لرحمته تعالى ، وذلك عقيب ذكر ما يلحق الناس من هول يوم القيامة .

الفصل الثباني

فنون التخيل والايهام

يلعب الخيال دورا كبيرا في الأعمال الأدبية ، ويحظى الشعر منه بنصيب وافر ، وقد جعله « حازم القرطاجني » قوام لغة الشعر ، ومدار جودتها ، فلا تحبب اللغة الى النفس ما قصدت تحبيبه اليها ولا تكره اليها ما قصدت تكريهه الا بحسن الخيال (١) .

والفنون البديعية التي يبرز فيها التخيل والايهام كثيرة منها :
التورية — والمشاكلة — وحسن التعليل — والتجريد — وتأکید المدح بما يشبه الذم وعكسه — والتوجيه — وتجاهل العارف — والجناس .
وظهور عنصر الایهام في هذه الفنون لا يعنى أنها موقوفة عليه ، فكثير منها يلعب دورا له شأنه في ربط الاسلوب وتحقيق التناسب بين أجزائه وعناصره ، كما سيتضح لنا عند الحديث عن بلاغتها ، وانما آثرنا بحثها في هذا الفصل لظهور ما فيها من ايهام وتخيل .

(١) منهاج البلاغ ٧٣ .

التورية

وتسمى الايهام ، والتخييل ، والمغالطة المعنوية وغير ذلك • ورجح الحموى مصطلح التورية لقربه من مطابقة المسمى (١) • وهى مصدر وريت الخبر تورية اذا سترته وأخفيته وأظهرت غيره ، كأن المتكلم يجعل المعنى المقصود وراءه بحيث لا يظهر •

والتورية فى اصطلاح البلاغيين : أن يطلق لفظ له معنيان : قريب وبعيد ، ويراد به اليعيد منهما ، اعتمادا على قرينة خفية • والمراد بالقرين ما قريب من الفهم لكثرة استعمال اللفظ فيه ، ويسمى « المورى به » الذى حصل به الخفاء ، والمراد بالبعيد ما بعد عن الفهم لقلته استعمال اللفظ فيه ، ويسمى « المورى عنه » أى الذى وقع عليه الخفاء • والمعنى القريب فى التورية يستر المعنى البعيد ويخفيه ، حتى كأن المعنى البعيد وراءه وخلفه وهذا وجه المناسبة بين المعنى اللغوى والاصطلاحى للتورية • واشترط خفاء القرينة لان وضوحها يجعل المعنى البعيد ظاهرا غير مستتر ، فلا يكون فى الكلام تورية (٢) •

ومن أمثلة التورية قول أبى بكر رضى الله عنه وهو فى طريق الهجرة وقد سئل عن النبى صلى الله عليه وسلم من هذا ؟ فقال : هاديهدينى • فكلامه له معنى قريب ، هو الدليل الذى يدل على الطريق فى السفر ، وهذا المعنى غير مراد ، وله معنى بعيد ، هو : الهادى الذى يهديه الى الاسلام ، وهذا المعنى هو المراد •

(١) انظر حدائق السحر ١٣٥ ، ومفتاح العلوم ٢٠١ ، والمثل السائر ٢٥٨ ، وخزانة الأدب ٣٩/٢ •
(٢) حاشية الدسوقي ٣٢٣/٤ •

ومنها قول المتنبي :

برغم شبيب فارق السيف كفه
وكانا على العلات يصطحبان
كأن رقاب الناس قالت لسيفه
رفيقك قيسى وأنت يمانى (٣)

ففى لفظ « يمانى » تورية ، ومعناه القريب السيف اليمانى ، ومعناه البعيد الرجل المنسوب الى اليمن ، وهو المعنى المراد . والمتنبي يريد أن يقول : ان شبيبا لما قتل وفارق السيف كفه بعد ان كانا صاحبين ، كأن الناس أوقعت بينهما ، فقالوا للسيف أنت يمانى وصاحبك قيسى ، ونظرا لما بين القيسيين واليمانين من العداوات ، جانبه السيف ، وفارقه (٤) .

أقسام التورية :

قسم البلاغيون التورية الى أربعة أقسام :

١ - التورية الجردة :

وهى التى لم يذكر فيها لازم من لوازم المورى به أو المورى عنه أو ذكر فيها ملائم لكن منهما .

ومن أمثلتها قول النبى صلى الله عليه وسلم فى خروجه الى بدر وقد قيل له : ممن ، انتم ؟ فقال : من ماء . ففى لفظ ماء تورية ومعناه القريب اسم بطن من بطون العرب ، ومعناه البعيد أنهم مخلوقون من ماء (٥) ، وهذا المعنى هو المراد ولم يذكر قبل التورية ولا بعدها لفظ يلائم المعنى القريب أو البعيد ، فالتورية مجردة .

(٣) شبيب هذا هو : شبيب بن جرير العقيلي ، خرج على كافور وحاصر دمشق وقتل فى حصارها ، وكان أصله من قيس وقيس من عدنان ، واليمن من قحطان وكانت بين القبيلتين حروب وعداوات شديدة . شرح ديوان المتنبي ٣٧٣/٤ .

(٤) المثل السائر ٢٥٨ .

(٥) انظر المثل السائر ٢٥٩ .

ومن أمثنتها قول أبي بكر الصديق رضى الله عنه الذى ذكرناه آنفاً .
ومنها قول التامى عياص فى سنة أزهرت فيها الأشجار مبكرة :

كأن نيسان أهدى من ملابسه
لشهر كانون أنواعاً من الحلل
أو الغزاة من طول الذى خرفت
فما تفرق بين الجدى والحمى

ففى الفاظ الغزاة والجدى والحمل تورية ، ومعناها القريب
الحيوانات المعروفة ، ومعناها البعيد : الشمس وبرج الجدى وبرج
الحمل ، ولم يذكر الشاعرين قبيل التورية ولا بعدها ما يناسب المعنى
القريب أو المعنى البعيد ، ومن ثم فالتورية مجردة . وقد عد الخطيب
التورية فى لفظ الغزاة من قبيل المرشحة ، حيث ذكر بعدها ما يلائم
المعنى القريب وهو : الجدى والحمل (٦) ، وفى هذا نظر لان شرط
الترشيح أن تكون دلالة على المعنى القريب صريحة لا تحتل الاشتراك ،
والجدى والحمل مشتركان بين الحيوانين المعروفين والبرجين الفلكيين ،
فدلالتها غير صريحة ، وعلى هذا فليس من قبيل الترشيح (٧) .

ومن هذا قول القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر يصف وأديا :

ويظلم من واد يروك حسنه

ولا سيما ان جاد غيث مبكر

به الفضل يبدو والربيع وكم غدا

به العيش يحيى وهو لا شك جعفر

ففى كل من : الفضل ، والربيع ، ويحيى ، وجعفر تورية ، فهؤلاء
الأربعة من كبار رجال البرامكة ، وهذا هو المعنى القريب ، أما المعنى

(٦) الايضاح ٤٠/٦ .

(٧) ينظر خزنة الأدب ٢٤٤/٢ ، وفض الختام ١٦٤ .

البعيد فالفضل يعنى الزيادة ، والربيع فصل من فصول السنة ، ويحيى
بمعنى يعيش ، وجعفر هو النهر • ولم تقترن التورية بما يلائم واحدا من
المعنيين فهي مجردة •

ومثال المجردة التي ذكر فيها ملائم لك من المورى به والمورى عنه
قول الشاعر :

ومولع بفخاخ يميدها وثسبأك
قالت لى العين ماذا يصيد قلت كسراكى

ففى لفظ « كراكى » تورية ، ومعناه القريب : أنه جمع كركى ،
وهو طائر رمادى اللون يأوى الى الماء ، ومعناه البعيد : النوم ، وقد
ذكر ما يلائم المعنى القريب وهو « يصيد » وما يلائم المعنى البعيد وهو
« العين » ، ومثل هذه التورية التي يذكر فيها ملائم لكل من المعنيين
تورية مجردة •

ومنها قول البحتري :

وراء تسدية الوشاح ملية
بالحسن تملح فى القلوب وتعذب

ففى لفظ « تملح » تورية ، فانه يحتمل أن يكون من الملوحة ، وهو
المعنى القريب ، ولازمه « تعذب » ، وأن يكون من الملاحه ، وهو المعنى
البعيد ، ولازمه ملية بالحسن ، فاجتمع فى الكلام ملائم للمعنى القريب،
وملائم للمعنى البعيد ، فالتورية مجردة •

٢ - التورية المرشحة :

وهى التي ذكر معها ما يلائم المعنى القريب - المورى به - وهذا

الملائم قد يذكر قبل التورية أو بعدها • فمثال ما ذكر فيه الترشيح قبلها
قول الشاعر :

حملناهم طرا على الدهم بعدما
خلعنا عليهم بالطعان ملابسا

فالدهم جمع أدهم ، وفيه تورية ، ومعناه القريب الفرس الأسود ،
ومعناه البعيد قيد الحديد وهو المراد • وذكر قبل التورية ما يلائم المعنى
القريب وهو « حملناهم » فالتورية مرشحة •

ومن هذا قول الشاعر :

فلما نأت عن العشيرة كلها
أنخنا فحانفنا السيوف علا الدهر
فما أسلمتنا عند يوم كريمة
ولا نحن أغضينا الجفون على وتر

فالتورية في لفظ « الجفون » ومعناه القريب جفن العين ، وقد رشح
بذكر الاغضاء قبله لانه مما يلائمه ، ومعناه البعيد جفن السيف وهو
المراد •

ومن هذا قول ابن عبد الظاهر :

شكرا لنسمة أرضكم كم بلغت عنى تحيية
لا غرو أن حفظت أحبا ديث الهوى فهي الذكبة

ففي لفظ « الذكبة » تورية ، ومعناه القريب سرعة اللفظة والفهم ،
ومعناه البعيد سطوع الرائحة ، وقد ذكر قبل التورية ما يلائم المعنى
القريب وهو قوله « حفظت أحاديث الهوى » •

ومثال ما ذكر فيه الترشيح بعد لفظ التورية قول الشاعر :

مذهمت من وجدى فى خالها
ولم أصل منه الى اللثم
قالت قفوا واستمعوا ما جرى
خالى قد هام به عمى

ففى لفظ « خالى » تورية ، ومعناه القريب خال النسب ، وقد
رشح بذكر العم بعده ، ومعناه البعيد نكتة سوداء فى الخد وهو من
علامات الحسن والجمال .

٣ - التورية المبينة :

وهى التى ذكر معها ما يلائم المعنى البعيد - المورى عنه -
وسميت بذلك لان المورى عنه قد تبين وظهر بذكر لازمة ، ولولاه لكان
خفيا (٨) . وهذا الملائم قد يكون قبل لفظ التورية أو بعده . فمثال
ما جاء فيه الملائم قبل لفظ التورية قول الحموى :

قالنوا أما فى جلق نزهة
تتسبك من أنت به مغسرى
يا عاذلى دونك من لحظه
سهما ومن عارضه سطرًا

ففى السهم والسطر تورية ومعناها القريب سهم اللحظ وسطر
العارض ، ومعناها البعيد موضعان مشهوران بمتنزهات دمشق وهذا
هو المراد ، وقد ذكر قبل التورية ما يلائم هذا المعنى ويبينه وهو النزهة
فى جلق أى دمشق .

(٨) انظر شرح عقود الجمان ٩٨/٢ .

ومن هذا قول السيوطى فى رثاء « غصون » أم أولاده :

يا من رآنى بالهموم مطوقا
وظللت من فقدى غصونا فى شجون
أتلومنى فى عظم نوحى والبكا
شأن المطوق أن ينوح عنى غصون

فالتورية فى لفظ « غصون » فى البيت الثانى ومعناه القريب غصون الأشجار ، ومعناه البعيد مرثية السيوطى ، وقد بين ذلك بذكر ما يلائمه وهو « فقد غصون » وما ناله من هموم وما جرى له من نوح وبكاء .

ومثال ما جاء فيه الملائم بعد لفظ التورية قول الشاعر :

أرى ذنب السرحان فى الأفق ساطعا
فهل ممكن أن الغزالة تطلع

والشاهد هنا فى موضعين أحدهما « ذنب السرحان » فإنه يحتتمل أول ضوء الفجر وهذا معناه البعيد المورى عنه ، وقد ذكر لازمة بعده على جهة التبيين ، وهو « ساطعا » ويحتتمل ذنب الذئب ، وهذا معناه القريب المورى به وهو غير مراد (٩) . وثانيهما فى لفظ « الغزالة » ومعناه البعيد الشمس وقد بين بقوله « تطلع » ومعناه القريب الحيوان المعروف ، وهو غير مراد .

ومن هذا قول ابن سناء الملك :

أما... والله لولا خوف سخطك
لهنان على ما ألقى برهطك
ملك الخافقين فتت عجباً
وليس هما سوى قلبى وقرطك

ففى لفظ « الخافقين » تورية ومعناه القريب المشرق والمغرب ،
ومعناه البعيد قلبه وقرط محبوبه وقد بين ذلك بالنص عليه فى آخر
البيت .

٤ — التورية المهيأة :

وهى التى لا تقع التورية فيها ولا تنهياً الا بلفظ قبلها أو بعدها ،
ولولا أحدهما لفانت التورية ، أو تكون التورية فى لفظين لولا كل منهما
ما وجدت التورية فى الآخر . وعلى هذا فهى ثلاثة أنواع (١٠) :

الأول : ما تهيأت فيه التورية بانظ قبلها كقول ابن سناء الملك
يمدح الملك المظفر صاحب حماة :

وسيرك . فينا . سيرة . عميرة
فروحت عن قلب وفرجت عن كسرب
وأظهرت فينا من سميك سنة
فأظهرت ذاك الفرض من ذلك الغدب

فالتورية فى « الفرض والغدب » ومعناها القريب الحكمان الشرعيان
ومعناها البعيد : الفرض بمعنى العطاء ، والغدب الرجى السريع فى
قضاء الحوائج ، وهذا هو المراد ، ولولا ذكر « السنة » قبل التورية
ما تهيأت التورية ولا فهم من الفرض والغدب الحكمان الشرعيان اللذان
صحت بهما التورية .

والثانى : ما تهيأت فيه التورية بلفظ بعدها كقول على كرم الله
وجهه فى الأثعث بن قيس : انه كان يحوك الشمال باليمين . فالتورية
فى لفظ « الشمال » ومعناه القريب ضد اليمين ، ومعناه البعيد جمع

(١٠) انظر هذه الأنواع فى خزنة الأدب ٢/٢٤٧ ، ونص الختام ١٧١ ،
وشرح عقود الجمان ٢/٩٨ .

شملة وهو المراد ، ولولا ذكر « اليمين » بعد « الشمال » ما فهم السامع معنى اليد الذي صحت به التورية وتهيات • ونحوه قول الشاعر :

لولا التطير بالخلاف وأنهم

قالوا مريض لا يعود مريضا

لقضيت نحبي في جنابك خدمة

لأكون مندوبا قضى مفروضا

فالتورية في لفظ « مندوبا » ومعناه القريب الحكم الشرعى ، ومعناه البعيد الميت الذى يبكى عليه ، ولولا ذكر المفروض بعد المندوب ما تنبه السامع لمعنى المندوب القريب الذى تهيات به التورية •

والثالث : ما تقع فيه التورية في لفظين لولا كل منهما ما تهيات التورية في الآخر ، ومثال ذلك قون عمر بن أبى ربيعة لما تزوج سهيل الثريا وكان دميما وكانت في غاية الحسن :

أيها المنكح الثريا سهيلا

عمرك الله كيف يلتقيان

هي شامية اذا ما استقلت

وسهيل اذا استقل يمانى

فالتورية في « الثريا » و « سهيل » وذلك لان الثريا يحتمل أن تكون ثريا السماء وهذا معناها القريب ، وأن تكون بنت على بن عبد الله ابن الحارث وهذا معناها البعيد المراد ، وسهيل يحتمل أن يكون نجم السماء وهذا معناه القريب ، وأن يكون سهيل بن عبد الرحمن بن عوف ، وهذا معناه البعيد المراد ، ولولا ذكر كني وإحد من اللفظين ما تهيات التورية ، وما تنبه السامع للمعنى القريب الذى جعل كلا من اللفظين يصلح للتورية ، والتورية هنا لا تصلح أن تكون مرشحة ولا مبينة ، لان الترشيح والتبيين لا يكون كل منهما الا بلازم خاص •

والفرق بين اللفظ الذى تنهياً به التورية واللفظ الذى تترشح به واللفظ الذى تتبين به : أن اللفظ الذى تقع به التورية مهياًة لو لم يذكر فى الكلام ما تهيات التورية أصلاً وما وجدت ، واللفظ المرشح أو المبين يقوى التورية ، فلو لم يذكر لكنت التورية موجودة (١١) •

التورية فى الأساليب وبلاغتها :

إذا فتننا عن التورية فى القرآن الكريم وجدنا أنها قليلة فيه ، بل ان الأمثلة القرآنية التى ذكروها للتورية لم يقطع العلماء بتخريجها عليها ، بل خرجوها على وجوه أخرى غير التورية ، ولعل من أسباب هذا ما فى التورية من خفاء وإيهام لا يتلاءم مع ما بنى عليه الذكر الحكيم من وضوح يبسر هدايته لكل طالب وراغب •

ومما ذكره من أمثلتها القرآنية قوله تعالى : « وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار » (١٢) ، ففى « جرحتم » تورية ومعناه القريب شق بعض البدن ، ومعناه البعيد ما اكتسبتم من الذنوب من جرح الرجل أى اكتسب ، فهو جارح • وقوله تعالى : « والنجم والشجر يسجدان » (١٣) ، ففى « النجم » تورية ومعناه القريب نجم السماء ، ومعناه البعيد ما لا ساق له من النبات • وقوله تعالى على لسان أولاد يعقوب لأبيهم : « قالوا تالله انك لفى ضلالك اقديم » (١٤) ، ففى الضلال تورية ومعناه القريب ضد الهدى ، ومعناه البعيد حبسه ليوسف (١٥) •

-
- (١١) خزانة الأدب ٢/٢٤٩ •
 - (١٢) الأنعام آية ٦ •
 - (١٣) الرحمن آية ٦ •
 - (١٤) يوسف آية ٩٥ •
 - (١٥) انظر بديع القرآن ١٠٢ •

وتتدر التورية في الشعر العربي القديم ، وقد جعلوا منها قول
عمرو بن كلثوم :

مشعشنة كان الحص فيها
إذا ما الماء خالطها سخينا (١٦)

فالتورية في لفظ « سخينا » ومعناه القريب نه صيغة مبالغة من
انسخونة ضد البرودة ، ومعناه البعيد أنه من السخاء الذي هو الكرم
وهو المعنى المراد (١٧) .

وقول النابغة الذبياني :

خيل صيام وخيل غير صائمة
تجت العجاج وأخرى تعلق اللجما (١٨)

أراد بالصيام وهنا القيام ، والتورية في قوله « تعلق اللجما »
حيث وري بها عن صيامها (١٩) .

ولعل ندرتها في الشعر القديم راجعة الى أنها لون يحتاج في المجيء
به الى عمق في التفكير وطول تدبر في الكلمات ومعانيها ، والشاعر
العربي القديم مطبوع يمين الى التعبير الفطري الذي لا يكبده مشقة
في التفكير .

ومن هنا رأينا التورية تكثر في شعر المتأخرين الذين يعمدون الى
الصنعة ، ويدورون في فلك الصبغ البديعي ، ويذهبون مذهب الألفاظ
والتعمية في شعرهم معجبين بقدرتهم على ذلك ، ومن هؤلاء القاضي

(١٦) الحص : الزعفران وهو ذو لون أصفر .

(١٧) انظر خزانة الأدب ٤١/٢ .

(١٨) العجاج : الغبار . واللجم : جمع لجام ، جديدة توضع في فم

الفرس .

(١٩) انظر البديع في نقد الشعر : ٦٠ .

الفاضل ، وصلاح الدين الصفدى ، وابن نباته ، وابن سناء الملك ،
وعز الدين الموصلى ، والسراج الوراق ، وأبو الحسن الجزار ،
ونصير الدين الحمامل .

وقد أطل صاحب خزانة الأدب فى ذكر أمثلة للتورية وردت على
السنة هؤلاء الشعراء وغيرهم (٢٠) ، وحفها بالثناء البالغ طبقا لمقاييس
الجودة فى عصره ، والحقيقة أن أكثرها مصنوع جاءت فيه التورية
متكلفة متعمدة مما حط من شأنها . وجعلها لا تعدو أن تكون تلاعبا
بالألفاظ ومباراة كلامية يفصح بها الشاعر عن قدرته على الالغاز
والإيهام .

ومثل هذا لا ينقص من قدر التورية كفن بديعى له سحره وجماله
إذا ورد فى الكلام سهلا سلسا بعيدا عن شطط التكلف وهوان الابتذال ،
مشيرا الى معنى لطيف ، أو موحيا بشىء طريف ، أو رامزا الى ما لا
يمكن الإفصاح به .

وللتورية مقامات تحسن فيها . بل ربما تتعين دون سواها من
الاساليب ، فالتعبير المستور عن المطالب ، والغزل العفيف ، والمسامرات
بين الاخوان . والسخرية والاستهزاء بذوى الجاه والسلطان ، والثورة
على الأعداء والظالمين ، ونحو ذلك حقول خصبة تزدهر فيها اساليب
التورية .

ومن لطيف التورية قول صلاح الدين الصفدى :

بسمهم أجفسانه رمانى فذبت من هجره وبينه
ان مت مالى سواء خصم لانه قساتلى بعينه

فعينه يحتمل أن يكون ذات المحبوب وهو المعنى القريب ، وأن
يكون عين المحبوب وهو المعنى البعيد المراد .

وقول نصير الدين الحماسي :

جدوا لنسجع بالمديح على علاكم سرمدا
فالطير أحسن ما تغرد عندما يقع الندى

فالندى معناه القريب الططرات التي تتساقط آخر الليل ، ومعناه
البعيد الكرم •

وقول أبي الحسين الجزار :

كيف لا أشكر الجزار ما عشت حفاظا وأرفض الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجيني وبالشعر كنت أرجو الكلابا

ففي لفظ الكلاب الثاني تورية ومعناه القريب الحيوان المعروف
ومعناه البعيد لئام الناس وأصحاب النفوذ الذين لم يلبوا رغبات
الشاعر •

والتورية لون بديعي لطيف ، يداعب العقول ، ويروض الأفهام بما
فيه من خداع وإيهام ، وتفنن في الكلام واتساع فيه • وهو من أحلى
ما استعمل من الكلام والطفه ، ويبدل على تصرف بالغ ، وقسوة على
تصريف الألفاظ ، واقتدار على المعاني (٢١) •

والتورية أثر جليل في تمكين المعاني وتثبيتها ، فهي تحتاج في
ادراكها الى فكر وتأمل ، لذا تبعث المثقلى على الهاب عقله ، وشحذ
فكره ، وتحثه على التدبر وإطالة النظر فيما يعرض عليه حتى يهتدى
الى المعنى المراد ، فاذا ما اهتدى اليه بعد هذا الجهد عرف قدره
وأحس بقيمته ، فثبت في ذهنه وتأكد لديه •

(٢١) انظر المثل السابق ٢٥٨٧ ، والطرار ٦٢/٣ ، ٦٣ •

المشاكلة

وهي لغة المماثلة ، وفي اصطلاح البلاغيين : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقا أو تقديرا (١) • نقول : أساء الى فأسأت اليه ، نقصد أنك عاقبته باساءته وكان الأصل أن تقول : أساء الى فعاقبته ، ولكنك عبرت عن العقوبة بلفظ الاساءة على سبب المشاكلة ، لوقوعه في صحبة الاساءة الأولى • وتقول للجائع : أسقيك ماء ، فيقول لك : بل اسقني طعاما ، فعبر بالسقى عن الاطعام مشاكلة لسقى الماء حيث وقع في صحبته •

ولا يقصد بلفظ الغير نفس اللفظ المذكور في الكلام دون سواه ، بل تأتي المشاكلة أيضا بلفظ يكون مضادا للمذكور أو مناسبا له • فمن المضاد قول القاضي شريح لرجل شهد عنده : انك لسبب الشهادة ، فقال : انها لم تجعد عنى • فعبر بالجعودة مشاكلة للسبوبة وبينهما تضاد ، وسيأتى بيان لهذا المثال ، ومن المناسب ، ما ورد أن رجلا كان لوهب : أليس قد ورد أن لا اله الا الله مفتاح الجنة ؟ فقال وهب : بلى ، ولكن من مفتاح الا له أسنان ، فان جئت بالأسنان فتح لك والا لم يفتح لك • فعبر بالأسنان مشاكلة للتعبير بالمفتاح ، وهما متناسبان (٢) •

والمشاكلة على قسمين :

١ - تحقيقه ، وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقا • فاللفظ الذي شوكل ونسج على هيئته موجود حقيقة في الكلام • كقوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى

(١) الايضاح ٢٦/٦ •

(٢) مواهب الفتاح ٣١٠/٤ ، والمراد بالأسنان الأعمال المعتبرة في

الاسلام •

عليكم « (٣) ، فقوله « فاعتدوا » وارد على سبيل المشاكلة ، حيث سمي
جزاء الاعتداء اعتداء مشاكلة لقوله « اعتدى » المذكور في الكلام .
ونظير هذا قوله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » (٤) ، إذ أطلق
لفظ السيئة الثاني على الجزاء المقابل للسيئة الأولى على سبيل المشاكلة .
وفي التعبير عن المجازاة بالاعتداء وبالسيئة إشارة الى أن الجزاء من
جنس العمل ، ودعوة الى الصفح والعفو والزهد في المجازاة ، لأنها وان
كانت مباحة الا انها وسمت بأنها عدوان وسيئة . وفي اللفظين بجانب
المشاكلة مجاز مرسل علاقته السببية ، حيث ذكر السبب وهو الاعتداء
والسيئة ، وأريد المسبب وهو الجزاء والعقوبة .

ومن هذا قوله تعالى : « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم
به » (٥) ، ففي قوله « عوقبتم » مشاكلة ، حيث عبر به لوقوعه في
صحبة « عاقبتم فعاقبوا » والمراد به العدوان أى بمثل ما اعتدى به
عليكم . وفيه أيضا مجاز مرسل علاقته السببية ، حيث ذكر المسبب وهو
العقوبة وأريد السبب وهو العدوان .

وقوله تعالى : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » (٦) ، فالله
تعالى بطل مكر أهل الكتاب وعاقبهم عليه ، وسمى هذا في جانب الله
تعالى مكرًا لوقوعه في صحبة مكرهم المذكور وذلك على سبيل المشاكلة ،
وفي التعبير به إشارة الى أن الله تعالى قد قابل عملهم بعمل من جنسه
أشد وأنكى ، وفي اللفظ مع المشاكلة مجاز مرسل علاقته السببية ، فالمكر
سبب في الايقاع بهم .

ومن المشاكلة الحقيقية قوله تعالى : « فأعرضوا فأرسلنا عليهم
سيل العرم وبدلناهم بجناتهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من

(٣) البقرة آية ١٩٤ .

(٤) الشورى آية ٤٠ .

(٥) النحل آية ١٢٦ .

(٦) آل عمران آية ٥٤ .

سدر قليل « (٧) ، فتسمية البديل جنتين — وهو بديل سيء — من قبيل المشاكلة ، وفي التعبير عنه بالجنتين تهكم بهم وسخرية منهم (٨) .

ومنها قوله تعالى : « ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو اذن قل اذن خير لكم » (٩) ، فالمنافقون يذكرون الرسول صلى الله عليه وسلم بالسوء ، وينكرون ذلك امامه ، ومن حامه صلى الله عليه وسلم لم يكن يواجههم بما يقولون ، فكانوا يظنون أنه صدقهم ، وأنه يصدق كل ما يسمع ويقال من غير تدبر فقالوا : انما هو اذن سامعة . فأمره الله تعالى ان يرد عليهم ردا بليغا « اذن خير لكم » كأنه قيل : نعم هو اذن ولكن نعم الأذن ، انه اذن في الخير والحق وفيما ينبغي سماعه وقبوله لا في غير ذلك (١٠) . فوصف النبي صلى الله عليه وسلم من قبل الله تعالى بأنه اذن وارد على سبيل المشاكلة لما قاله المنافقون ، وفيه إفحام والجام لهم .

ومنها قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا

فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فقوله « فنجهل » وارد على سبيل المشاكلة لقوله « لا يجهلن » لانه ليس جهلا ولكنه مجازاة ورد للعدوان والجهل .

وروى عن أبي الرقعمق أنه قال : كان لى اخوان أربعة وكنت أنادمهم أيام كافور الاخشيدى ، فجاءنى رسولهم فى يوم بارد وليست لى كسوة تحصنتى من البرد ، فقال : اخوانك بقرأون عليك السلام

(٧) سبأ آية ١٦ .

(٨) انظر البديع فى ضوء أساليب القرآن ٧٧ .

(٩) التوبة آية ٦١ .

(١٠) تفسير أبى السعود ٧٧/٤ .

ويقولون لك : قد اصطبحنا اليوم وذبحنا شاة سميينة فاشتته علينا
ما نطبخ لك منها ، قال : فكتبت اليهم :

اخواننا قصدوا الصبوح بسحرة
فأتى رسولهم الى خصوصا
قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخه
قلت اطبخوا لي جبة وقميصا

فذهب الرسول بالرقعة فما شعرت حتى عاد ومعه أربع خلع وأربع
صرر في ك صرة عشرة دنانير ، فلبست احدي الخلع وصرت اليهم (١١) .

ففى قوله « اطبخوا » مشكلة حقيقية ، وكان الأصل أن يقول :
« خيطوا لي جبة وقميصا » لكنه قال « اطبخوا » مشكلة لقولهم « نجد
لك طبخه » . واطلاق الطبخ على الخياطة من قبيل الاستعارة بجامع
المنفعة في كل ، وهذا لا يتنافى مع كون اللفظ واردا على سبيل
المشكلة لما قبله .

وعلى منوال هذا البيت قال ابن جابر الأندلسي :

قالوا اتخذ دهننا لقلبك يشنفه
قلت ادهنوه بخدها المتورد

فعبّر بقوله « ادهنوه » مكان « داووه أو اشفوه » مشكلة لقولهم
« اتخذ دهننا » .

ويعد من المشكلة الحقيقية ما لم يصرح فيه باللفظ الذى شوكت
ولكنه في حكم المصرح به لظهور الدلالة عليه ، كقول أبى تمام :

من مبلغ أفناء يعرب كلها
أنى بنيت الجبار قبل المنزل

(١١) معاهد التنصيص ٢/٢٥٢ ، وأبو الريحيق : أحمد بن محمد
الأنطاكي من شعراء التيمية (ت ٣٩٩ هـ) .

ففى قوله « بنيت الجار » مشاكلة ، لان الجار لا يبنى ، وانما الذى يبنى الدار ، وعبر ببناء الجار مشاكلة لقوله « قبل المنزل » لان تقديره : قبل بناء المنزل ، والمقدر كالمذكور ، لذا فالمشاكلة تحقيقية . ونظير هذا قول الصحاب بن عباد فى شأن قاض شهد عنده رجل برؤية هلال عيد الفطر فلم يقبل شهادته وأنكر ظهور الهلال :

أتسرى القضاضى أعمى أم تراه . يتصامى
سرق العيىد كأن الـ عيىد أموال اليتامى .

فقوله « سرق العيىد » مشاكلة ، اذ العيىد لا يسرق والذى يسرق المال ونحوه ، وقد جعل اخفاءه العيىد سرقة على سبيل المشاكلة ، لوقوعه فى صجة ما يسرق وهو مال اليتامى ، وان كان لم يصرح بلفظ السرقة فى جانب المال فهو مفهوم من الكلام فهما واضحا يبنى عن التصريح به ، والتقدير : سرق العيىد كما سرق أموال اليتامى . وفى التعبير بالسرقة مبالغة فى ذم القاضى والتشنيع والتشهير به وبمساوئه التى التى تتلقى مع ما وكل اليه من اقامة العدل ونصيب الحق .

والغالب فى الاساليب أن يتأخر اللفظ الذى يقع فيه المشاكلة عن اللفظ الذى يشاكله .، وقد يتقدم لفظ المشاكلة كما فى قول أبى تمام ، والصحاب بن عباد ، وكما فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم « خذوا من الأعمال ما تطيقون فان الله لا يمل حتى تملوا » ففى قوله « لا يمل » مشاكلة لان الملل لا ينسب الى الله تعالى ، ولكن المعنى : لا يقطع عنكم فضيله أو ثوابه حتى تملوا عبادته . وانما عبر بالملل على سبيل المشاكلة لقوله « حتى تملوا » الذى جاء بعده فى الكلام . ونجد ذلك فى قوله تعالى : « فاليوم نفساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا » (١٢) ، ففى « نفساهم » مشاكلة ، وهو واقع فى صجة « نسوا » ، والمعنى : نجازيهم ونعاقبهم جزاء نسيانهم يوم القيامة . وعدم الاستعداد له .

٢ - تقديرية : وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته
تقديرًا ، فاللفظ الدال على الغير غير مذكور في الكلام ، ولكن دلت عليه
قراءت الأحوال ، ومن هذا قوله تعالى : « صبغة الله ومن أحسن من الله
صبغة » (١٣) ، فصبغة الله أي تطهير الله ، وصبغة مصدر مؤكد لمضمون
قوله « آمننا بالله » (١٤) ، لان الايمان يطهر النفوس ، وقد استعمل
الصبغ في التطهير على سبيل المشاكلة لوقوعه في صحبة صبغة النصارى
المفهوم من الحال ، وهي هنا مشاكلة تقديرية ، لان لفظ الصبغ لم يتقدم ،
ولكن دلت عليه قرينة الحال وهي سبب النزول ، وذلك أن النصارى
كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ، ويقولون :
هو تطهير لهم ، فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم : قولوا - آمننا بالله -
وصبغنا الله بالايمان صبغة لا مثل صبغتنا ، وطهرنا به تطهيرا لا مثل
تطهيرنا ، أو يقول المسلمون : صبغنا الله بالايمان صبغته ، ولم نصبغ
صبغكم (١٥) .

واطلاق الصبغ على التطهير من قبيل الاستعارة المبنية على تشبيه
التطهير من الكفر بالايمان بصبغ الغموس في الصبغ الحسى ، بجامع
ظهور أثر كل منهما على صاحبه ، وهذا لا ينافي كونه من المشاكلة التي
يراعى فيها اعتبار الصحبة دون نظر الى كون اللفظ حقيقة أو
مجازا (١٦) .

ومن المشاكلة التقديرية أن ترى انسانا يغرس شجرا ، فتقول
لآخر اغرس الى الكرام هكذا ، وتريد باغرس اصنع المعروف الى
الكرام ، وعبرت عن الصنع بالغرس لمصاحبة للغرس الحاضر ولو لم

(١٣) البقرة آية ١٣٨ .

(١٤) البقرة آية ١٣٦ ، وصدر الآية « قولوا آمننا بالله وما أنزل

الينا . . . » .

(١٥) الكشاف ٣١٦/١ .

(١٦) مواهب الفتاح ٣١٣/٤ .

يذكر في الكلام ، فكأنك قلت : هذا يغرس الأسيجار فاغرس أنت
المحروف مثله (١٧) .

وحكى أن بعض الولاة كان يغرس سيالا في جامع بغداد ، فوقف
عليه وأنشد :

ان الولاية لا تدوم لواحد
ان كنت تتكبره فأين الأول ؟
واغرس من الفعل الجميل غرأسا
فاذا عزلت فانها لا تمزل

فأقام « اغرس » مقام اصنع ، ليشاكل فعل الوالى (١٨) .

المشاكلة والجناس والطباق :

قد تجتمع المشاكلة مع الجناس في موطن واحد ، كما في قوله
تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » (١٩) ، فاللفظان متحدران في
الحروف مختلفان في المعنى ، فالسيئة الأولى بمعنى الاعتداء ، والثانية
بمعنى الجزاء ورد الاعتداء ، وهذا من قبيل الجناس ، كما أن في اللفظ
الثاني مشاكلة كما قدمنا ، ولا تعارض بينهما ، ففي اللفظين جناس
باعتبار اتحادهما في الشكل واختلافهما في المعنى ، وفي اللفظ الثاني
مشاكلة باعتبار مجيئه على شاكلة ما تفهمه لوقوعه في صحبته .

كما قد تجتمع المشاكلة مع الطباق ، وذلك اذا كانت المشاكلة
قائمة بين لفظين متضادين ، كما في قول القاضى شريح لرجل شهيد

(١٧) السابق ٣١٤/٤ .
(١٨) الاشارات والتنبيهات ٢٦٨ ، والسيال : شوك أبيض طويل
اذا نزع خرج منه مثل اللبن .
(١٩) البسورى آية ٤٠ .

أمانته : ذلك لسنن الشهادة ، فقال الرجل : أنها لم تجعه عنى (٢٠) •
فبين السبوة والجعودة طباق لانهما متضادان (٢١) ، وفي لفظ «تجعد»
مشاكلة باعتبارها واقعا في صفة السبوة ، ولا تعارض بين المشاكلة
والطباق من حيث التضاد ، والمشاكلة من حيث مماثلة اللفظ كما تقدمه •

المشاكلة بين الحقيقة والمجاز :

من المعلوم أن اللفظ المستعمل فيما نوضع له في اصطلاح التخاطب
يكون حقيقة لغوية ، وأن اللفظ المستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح
التخاطب علامة وقريئة فائقة من ارادة المعنى الوضعي يكون مجازا
لغويا • واللفظ الذي وقعت فيه المشاكلة مستعمل حتما في غير ما وضع
له ، وبذلك لا يكون من قبيل الحقيقة • وبناء على هذا اعتبره قوم من
قبيل المجاز اللغوي ، وخرجوا بعض أمثلة المشاكلة على الجاز المرسل
لعلاقة المجاورة أو السببية كما بينا في اطلاق السيئة على جزائها ،
والاعتداء على جزائه ، والعقوبة على الاعتداء • كما خرجنا بعض
أمثلها على الاستعارة كما بينا في اطلاق الطبخ على الخياطة ، والطبخ
على التطهير •
وهو جعل بلفظهم نكل باب المشاكلة من قبيل الاستعارة ، وهو
يسمى قنفا ليدل على المشاكلة ، لا لتقصير اللفظ كالأستعارة المذكورة في علم
البيمان (٢٢) •

12- وبعض البلاغيين يرى أن المشاكلة من حيث هي مشاكلة ليست من
قبيل الحقيقة ولا المجاز ، لأنها مجرد ذكر المصاحب باللفظ غير

(٢٠) السبوة في الأصل : استرسال الشعر وامتداده ، والمراد هنا :
استمرار الشهادة وامتداد حفظها وعدم التقصير فيها • والجهودة في
الأصل : التواء الشعر ، والمراد بقوله لم تجعه عنى : أنني جأظ لشهادتي
ليست قاصرة عن أدراكى •

(٢١) البديع من المعاني والالفاظ ٢٦ •

(٢٢) الاشارات والتنبيهات ٢٦٨ •

لاصطحابهما ، وهذا ليس معتبرا في علاقات المجاز (٢٣) . وعلى هذا تكون المشاكلة واسطة بين الحقيقة والمجاز ، كما قالوا في الكناية انها واسطة بين الحقيقة والمجاز (٢٤) .

وما يجب أن نؤكد عليه أنه لا تعارض بين المشاكلة والمجاز ، فكل منهما ينظر الى اللفظ من ناحية معينة ، المجاز من حيث استعمال اللفظ في غير ما وضع له ، والمشاكلة من حيث مماثلة اللفظ لما هو واقع في صحبته (٢٥) .

بلاغية المشاكلة :

والمشاكلة لون بديعي خلاب يثير الانتباه ، وينشط العقول ، ويستدعي التفكير والتدبير ، وذلك لان المعنى المترادف يظهر في لفظ غير لفظه ، فيبدو في رداء غير مألوف ، ولجاس غير معتاد ، مما يثير انتباه المتلقى ، ويستدعي اصغاه ، ويبعث عقله على التفكير في اللفظ المعروض عليه ، والمعنى المراد منه ، فاذا علمه بعد ذلك تأكد لديه وثبت عنده .

ومن ناحية أخرى تخدع المشاكلة المتلقى ، ففي النظرة الأولى يتوهم ان المعنى الثاني هو عين الأول ، ولكنه بعد اقامة النظر واعمال الفكر يعلم أنه غيره ، وأن اللفظين وأن كانا على شاكلة واحدة ، إلا أن معنى كل منهما يختلف عن الآخر ، وهذا أدعى الى استقرار المعاني ورسوخها في الذهن .

والمشاكلة من الألوان التي تربط الكلام بين معانيها وتضمن على تلاحم أجزاءه ، بما فيها من تماثل لفظي ، وتماثل شكلي ، لا وقعت في صحبته من الألفاظ .

(٢٣) انظر شروح التلخيص ٤/٣٠٩ ، ٣١٠

(٢٤) البديع من المعاني والألفاظ ٢٨

(٢٥) انظر نظرات في البيان ٢٣٨

حسن التعليل

وهو أن يدعى لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقي (١) ،
فيعلل الشيء بعلة خيالية مناسبة ، تحتاج الى تأمل في ادراكها لما فيها
من لطف ودقة . ومن ذلك قول ابن المعتز :

صدت شرير وأزمت هجرى
وصغت ضمائرها الى الخدر
قالت كبرت وشبت قلت لها
هذا غبار وقائع الدهر

فرد على من صدته وعابته بالكبر والشيب ، بأن ما علاه ليس من آثار
الكبر والشيب كما تدعى ، ولكنه غبار وقائع الدهر ، وهذه كما ترى
علة خيالية لا أساس لها من الحقيقة ، ولكن فيها لطف وطرافة .

ولحسن التعليل باعتبار الوصف المعلن الأربعة أقسام :

الأول : أن يكون الوصف ثابتا ولا تظهر له في العادة علة غير
العلة الخيالية المدعاة . كقول أبي الطيب :

لم تحك نائلك السحاب وانما
حمت به فصيبها . الرخصاء

فتزول المطر من السحاب صفة ثابتة له لا يظهر لها في العادة علة ،
وان كان العلماء قد عللوا نزوله بتلاقى السحاب بطبقة جوية ذات درجة
حرارة معينة ، الا أن هذه العلة غير ملحوظة عادة عند الناس . وقد
جعل الشاعر علة نزول المطر من السحاب ما حصل له من الحمى بسبب

(١) الايضاح ١٧/٦

(٢) حمت : أصابتها الحمى . الرخصاء : عرق الحمى .

عدم محاكاته عطاء المدوح ، وهذا المطر هو عرق الحمى التي أصابته
وهذه علة خيالية لا أساس لها من الحقيقة .

وكقول أبي تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى

فالسيل حرب للمكان العالى

فخلو الكريم عن الغنى وصف ثابت لا تظهر له في العبادة علة ،
وقد تخيل الشاعر له علة غير حقيقية ، بناها على قياس تخيلى ، فالغنى
لا يصيب الكريم ولا يستقر لديه ، كما لا يستقر السيل على الأماكن
العالية ، بل سرعان ما ينحدر إلى الأماكن المنخفضة . وقد أسيد هذا
القياس على الحكم قوة وكساه ثوبا من الحقيقة .

ومنه قوله أيضا :

ان ريب الزمان يحسن أن يهـ

ندى الرزايا الى ذوى الأحساب

فلهذا يجف بعد اهتزاز

قبل روض الوهاد روض الروابي

فمن عادة الزمان أن ينزل المصائب على ذوى المكانة العالية
والحسب الكريم ، ويترك ما عداهم من الوضعاء ، وهذه صفة لا تظهر
لها علة في العادة ، وقد عللها الشاعر بقياس خيالى حيث قاسها على
جفاف رياض الأماكن المرتفعة قبل جفاف رياض الأماكن المنخفضة .
وعلى الرغم من أن هذا المقياس تخيلى إلا أنه أبرز الحكم في معرض
الحقيقة التي لا يمارى فيها أحد .

ومنه قول ابن نباتة السعدى في صفة فرس

وأدهم يستعد الليل منه
وتطلع بين عينيه الثريا
سرى خلف المسباح يطير مشيا
ويطوى خلفه الأملك طيبا
فلما خاف وشك الفوت منه
تثبت بالقوائم والمحيا

فبياض غرة الفرس وقوائمه صفة ثابتة لا يظهر لها في العادة علة،
وقد تخيل الشاعر لهذا الوصف علة غير حقيقية وهي : أن الصبح حينما
خشى أن يسبقه الفرس تشبث بقوائمه ووجهه ليمسوقه عن السبق ،
فانطبعت هذه الأطراف بلونه الأبيض .

الثاني : أن يكون الوصف ثابتا وتظهر له في العادة علة غير العلة
الخيالية التي يدعيها القائل . مثال ذلك قول أبي الطيب :

ما به قتل أعاديه ولكن
يتقي اخلاف ما ترجو الذئاب

فالذي يتعارفه الناس أن الرجل إذا قتل أعاديه فلأذته هلاكهم ،
ودفع مضارهم عن نفسه ، وليستلم من أذاهم ويأمن جانبهم ، وقد ادعى
المتنبي أن العلة في قتل هذا الممدوح لأعدائه غير ذلك ، انه يقتلهم كي
لا يخيب رجاء الذئاب فيه ، حيث عهدته مومض عليها في الرزق بما تناله
من قتل أعدائه ، وهي علة متخيلة ذهب إليها الشاعر ليحقق من وراءها
لطائف معنوية منها المتباعدة في وصف ممدوحه بالخفاء والجود ، وتحقيق
الرجاء والقدرة على هزيمة الأعداء ، وأنه ليس ممن يسرف في القتل
غيفا وحققا ولكن لغرض تجليل (٣) .

ومنه قول أبي طالب اللاموني في بعض الوزراء ببخارى :

(٣) انظر اسرار البلاغة ٢٥٧ .

مغرم بالثناء صب بكسب الـ
مجد يهتز للسماح ارتياحا
لا يذوق الاغفاء الا رجاء
أن يرى طيف مستريح رواحا

فابتغاء النوم وصف ثابت وعلته معروفة وهي طلب الراحة من
عناء العمل ونحو ذلك ، وقد علله الشاعر بعله أخرى من نسج خياله
هي : رجاء المدوح أن يرى طيف العفاة الذين يحضرون اليه لنيل
عظاياهم . والتقيد بالرواح مشير الى أن العقاة إنما يقصدونه في صدر
النهار على عادة الملوك ، فإذا كان الرواح قلوبا ، فهو يشفق اليهم ،
فينام ليأنس برؤية طيفهم (٤) .

وأصل هذا المعنى وهو داخل في هذا الضرب قول مجنون ليلي :

واني لاستغشى وما بي نعسة
لعل خيالا منك يلقي خياليا

حيث جعل علة النوم رجاء أن يرى طيف محبوبته ، وإن كانت
علة هنا لا تبعد عن العادة بعدها في قول المأموني ، فإنه قد يتصور أن
يريد المغرم المتيم إذا بعد عهده بحبيبه أن يراه في المنام ، فيريد النوم
لذلك خاصة (٥) .

ومن لطيف هذا الضرب قول ابن المعتز :

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم
من كثرة القتل نالها الوصب

(٤) انظر السابق ٢٥٨ .

(٥) الايضاح ٦٠/٦ .

حمرتها من دمباء من قتلت
والدم في النص شاهد عجب (٦)

فحمره العين وصف ثابت وعلته الحقيقية ما يقع في العين من قذى
أو ما يصيبها من رمد ، ولكن الشاعر ادعى لذلك علة خيالية ، هي :
أن هذه الحمره ناشئة من كثرة ما أسالت من دمء العشاق .

ومنه قول اشاعر :

أتنتى تؤنبنى بالبكاء فأهلا بها وبثأنيها
تقول وفي قولها حشمة أتبكي بعين ترانى بها
فقلت اذا استحسننت غيركم أمرت الدموع بتأديها

فدمع العين انما ينزل بسبب فراق الأحبة وهجرانهم ونحو ذلك ،
ولكن الشاعر عله بعة خيالية هي أنه يؤدب عينه بالدموع عقابا لها على
استحسانها غير المحبوب .

الثالث : أن يكون الوصف غير ثابت وأريد اثباته وهو ممكن .
كقول مسلم بن الوليد :

يا واثيا . جصفت . قينا . انشاءته

نجى حذارك انساني من الغرق (٧)

فاستحسان اساءة الواشى وصف غير ثابت ، ولم يعهد الناس أن
انسانا استقبلها بالرضا والسرور ، ولكن هذا ممكن لا يدخل في حيز
المستحيل . وقد عك الشاعر استحسانه اساءة الواشى بعة مقبولة هي

(٦) اشتكت : مرضت . والنصل : السيف ، وأطلق هنا على العين
على سبيل الاستعارة لشابقتها له في القتل .
(٧) حذارك : حذارى اياك . انساني : انسيان عيني وهر ما يرى في
سوادها أو هو سواد العين .

أن حذره من الواشى منعه من البكاء ، فسلم انسان عينه من الغرق في
الدموع ، وهذا شيء يشكر الواشى عليه •

ومنه قول عنصرة :

ولقد ذكرتك والرمح نواهل
منى وبيض الهند تنظر من دمي
فودجت تقبيل السيوف لانها
لمعت كبرق ثغرك المبتسم

فمحببة تقبيل السيوف وصف غير ثابت لكنه ممكن ، وقد عل
الشاعر محبته هذا الفعل بأن السيوف تلمع كثر محبوبته لذا فهو
يود تقبيلها •

ومن هذا قول الشاعر :

أهلا وسهلا بالمشيب فانه
سمة العفيف وحلية الزهاد

فالترحيب بالمشيب وصف غير ثابت ، ولكنه ممكن ، وقد عل
الشاعر ترحيبه به لما يسبغه على المرء من سمات العفاف وصفات الزهاد •

ومنه قول الآخر :

جزى الله الشدائد كل خير
وان جرعتنى غصصى بريقى
وما شيبكى لها الا لانى
عرفت بها عدوى من حديقى

فدعوته للشدائد بالخير وشكره لها شيء غير معهود في طباع
الناس وان كان غير مستهيل ، وقد عل الشاعر صدور ذلك منه بأنها
دلته على أصدقائه وأعدائه فلم يعد يخدع بأدغياء الصداقة •

ومنه قول الأخير :
عداتي لهم فضل على ومنسة
فلا أذهب الرحمن عنى الأعاديا
هم بحثوا عن زلتى فاجتنبتها
وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

فالاعتراف بفضل الأعداء ، والدعاء لهم شئ غير معهود ، لكنه
ممكن الحدوث ، وقد علق الشاعر صدور ذلك منه بأن الأعداء كانوا
سببا في اجتنابه الزلات واكتسابه المعالي ، اذ كانوا وراءه بالمرصاد
يتتبعون سقطاته ، وينافسونه في الفضل .

الرابع : أن يكون الوصف غير ثابت وأريد اثباته وهو غير ممكن
ومثل له الخطيب بقول الشاعر :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته
لما رأيت عليها عقد منتطق (٨)

فنية الجوزاء بخدمته الممدوح وصف غير ثابت ، وغير ممكن
لاستحالة عقلا وعرفا ، ولكن الشاعر ادعى ثبوته بعلقة لطيفة هي رؤية
الجوزاء منتطقة ، وهذا أمانة استعدادها لخدمة الممدوح .

واعترض على الخطيب بأن المقوم من البيت على ما هو أصل «أو»
من امتناع الجوزاء لامتناع الشرط ، أن تكون نية الجوزاء خدمته علة
لرؤية عقد النطاق عليه ، وبوئية عقد النطاق عليه - أي الحالة الشبيهة
بانتطاق المنتطق - صفة ثابتة قصد تطاهاها بنية خدمة الممدوح ، فيكون

(٨) الجوزاء : بزج تملكى حوله نجوم متصفي نطق الجوزاء ، وتواصل
النطاق ما يشهد في الوسيط

مع الضرب الأول من حسن التعليل، وهو ما كان في الوصف الثابت
الذي لا تظهر له في العادة غلة (٩) .

وقيل في الرد على هذا ، ان « لو » في البيت ليست لامتناع الجواب
لامتناع الشرط ، بل للاستدلال بانتفاء الجزاء على انتفاء الشرط كما
في قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » (١٠) ، فالانتطاق
وان كان معلولا مسببا عن النية في الخارج ، يجعل علة للعلم بوجود
النية ، لانه يستدل بوجود المسبب على وجود السبب ، وبانتفاء الملازم
على انتفاء الملزوم (١١) . ولم يسلم هذا الرد من الاعتراض والملاحقة
على عادة الشراح والمحشين (١٢) .

ومثل هذا قول أبي الحسن التهامي :

لو لم يكن أقحوانا ثغر مبسمها
ما كان يزداد طيبا ساعة السحر

فجعل ثغرها أقحوانا ، وهو لا يمكن أن يكون كذلك ، ولكنه التمس
لدعواه علة لطيفة هي ازدياد ثغرها طيبا ساعة السحر كزهور الأقحوان .

ومنه قول محمد بن هانيء :

قد طيب الأفواه طيب ثنائه
من أجل ذا تجد الثغور عذابتا

فطيب الثناء لا يطيب الأفواه ، ولكن اشتعر أثبت ذلك بدليل
غذوبة الثغور .

(٩) المطول ٤٣٧ ، ٤٣٨ .

(١٠) الأنبياء آية ٢٢ .

(١١) شروح التلخيص ٤/٣٨٠ ، ٢٨١ .

(١٢) انظر السابق ٤/٣٨٢ ، والمطول ٤٣٨ .

وَأَلْحَقَ الْبَلَاغِيُّونَ بِحَسَنِ التَّعْلِيلِ مَا كَانَ الْأَمْرُ الْمُدْعَى فِيهِ مَبْنِيًا عَلَى الشُّكِّ لَا عَلَى الْقَطْعِ كَمَا فِي الصُّورِ السَّابِقَةِ ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُ أَبِي تَمَامٍ :

رَبِي شَفَعْتَ رِيحَ الصَّبَا لِرِيَاضِهَا
إِلَى الْمِزْنِ حَتَّى جَادَهَا وَهُوَ هَامِعٌ
كَأَنَّ السَّحَابَ الْغَرِغِيينَ تَحْتَهَا
حَبِييبًا فَمَا تَرَقَّا لَهْنِ مَدَامِعِ (١٣)

فَقَدْ عَلَّلَ عَلَى سَبِيلِ الشُّكِّ نَزُولَ الْمَطْرِ مِنَ السَّحَابِ بِأَنَّهَا غِيِبَتْ تَحْتَ تِلْكَ الرَّبِي حَبِييبًا فَهِيَ تَبْكِي عَلَيْهِ بِاسْتِغْرَارٍ (١٤) .

وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ :

رَحَلَ الْعِزَاءُ بِرِحْلَتِي فَكَأَنِّي
أَتَّبَعْتُهُ الْأَنْفَاسَ لِلتَّشْيِيعِ (١٥)

فَعَلَّةٌ تَصْعِيدُ الْأَنْفَاسِ فِي الْعَادَةِ هِيَ التَّحَسُّرُ وَالتَّأْسُفُ ، لَكِنِ الشَّاعِرُ عَلَّلَهَا بِأَنَّهَا خَرَجَتْ تَشْيِيعَ الصَّبْرِ لِمَا رَحَلَ فَهُوَ رَفِيقُهَا دَاخِلَ الصَّدْرِ ، وَذَلِكَ قِضَاءٌ لِحَقِّ الصَّحْبَةِ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ أَيْضًا :

وَكَأَنَّ كُلَّ سَحَابَةٍ وَكَفَّتْ بِهَا

تَبْكِي بَعِيْنِي عُرْوَةَ بِنِ حِزَامِ (١٦)

فَعَلَّلَ عَلَى سَبِيلِ الشُّكِّ نَزُولَ الْمَطْرِ مِنَ السَّحَابِ بِأَنَّهُ يَبْكِي بَعِيْنِي عُرْوَةَ بِنِ حِزَامٍ وَهَذَا كُنْيَاةٌ عَنْ كَثْرَةِ مَا يَنْزِلُ مِنْهُ مِنَ الْمَاءِ .

(١٣) الْمِزْنُ : السَّحَابُ الْأَبْيَضُ ، وَالْهَامِعُ : الْمَطْرُ بِكَثْرَةِ الْغُرَّةِ وَالغُرَّةُ : السَّحَابُ نَوْ الْمَطْرِ الْغَزِيرُ ، وَتَرَقَّا : مَخْفَفٌ تَرَقُّأً أَيْ تَسْكُنُ . وَالضَّمِيرُ فِي تَحْتَهَا لِلرَّبِي .

(١٤) مَعَاهِدُ التَّنْصِيحِ ٦٩/٣ .

(١٥) الْعِزَاءُ : الصَّبْرُ . وَالتَّشْيِيعُ : التَّوْبِيْعُ .

(١٦) وَكَفَّتْ بِهَا : أَيْ قَطَرَتْ بِهَا . وَعُرْوَةُ بِنِ حِزَامٍ أُمُّ عِشْقِ الْعَرَبِ الْمَشْهُورِينَ وَصَاحِبَتُهُ عَفْرَاءٌ .

ومنه قول ابن نباتة السعدي في وصف فرس :

فكأنما أطم الصباح جبينه
فاقتص منه فخاض في أحشائه

فعل على سبيل الشك بياض غرة الفرس وقوائمه بأن الصباح
اعتدى على الفرس واطمه في جبينه فابيضت جبهته ، فأراد الفرس أن
يقتص منه لنفسه فهاجم الصباح وخاض بقوائمه في أحشائه فابيضت
كذلك .

وانما كان هذا النوع ملحقا بحسن التعليل ولم يكن منه لان في
حسن التعليل ادعاء لتحقيق الأمر واضراراً على هذا الادعاء ، وأداة
الشك تتنافى مع هذا الاصرار ، فلما اشتمل هذا اللون على أداة الشك
جعلوه ملحقا بحسن التعليل وليس منه .

وينبغي التنبيه الى الاختلاف بين حسن التعليل والتعليل الحقيقي،
فحسن التعليل الذي شرحناه لونه بديعي يقوم على التخيل والادعاء
لا على الحقيقة ، والعلل فيه علة خيالية غير مطابقة للواقع كما رأينا
فيما عرضناه من أمثلة . ومن هنا لا توجد لحسن التعليل شواهد في
القرآن الكريم لانه لونه مرتبط بالخيال والبعد عن الواقع والحقيقة ،
والقرآن الكريم كتاب الحق الذي ينطق بالحق ، ويتحدث بالحقيقة .

أما التعليل الحقيقي ففيه يعلل الشيء بعلة حقيقية التي
لا يشوبها شيء من الخيان ، وقد جاء بكثرة في القرآن الكريم ، وأفرد
له الزركشي بابا بين فيه الحكمة من ذكر الشيء معللا ، وفصل فيه
الطرق الدالة على العلة (١٧) . وخط الحصري بين أمثلة التعليل
الحقيقي وحسن التعليل ، وبحث ذلك تحت عنوان التعليل ومثل له

بقوله تعالى : « لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » (١٨) • وعلق عليه بقوله : فسبق الكتاب من الله تعالى علة النجاة من العذاب ، كما مثل له بقون البحترى :

ولو لم تكن ساخطا لم أكن
اذم الزمان وأشكو الخطوبيا

وعلق عليه بقوله : فوجود سخط المدوح هو علة في شكوى الشاعر (١٩) •

وواضح أن التعليل في الآية تعليل حقيقي ، ولا صلة له بحسن التعليل ، في بيت البحترى فهو مبنى على التخييل والادعاء ، وكان على الحموى أن يفصل بينهما •

حسن التعليل في الاساليب وبلاغته :

يرتبط حسن التعليل بقدر من الفكر والتأمل ، وشيء من الصنعة ، ومن هنا ندر وجوده في الشعر القديم ، وأخذ في الازدياد والانتشار لدى شعراء العصر العباسي وما تلاه من عصور • فنجد منه نماذج جيدة في موضوعات مختلفة لدى مسلم بن الوليد ، وأبي تمام ، والبحترى ، وابن المعتز ، وابن الرومي ، والمقنبي ••• وغيرهم • ومن روائعه قول مسلم بن الوليد :

ان يقعدوا فوقى لغير نزاهة
وعلو مرتبة وعز مكان
فالنار يعلوها الدخان وربما
يعلو الغبار عمائم الفرسان

(١٨) الأنفال آية ٦٨ •
(١٩) خزائن الأدب ٣٩١/٢ •

فهو لا يعبأ بمن يفتنون فوقه دون استحقاق ، ولا يقيم لهم وزناً ،
لان انوار يعلوها الدخان ، والغبار يعلو عمائم الفرسان •

وقول أبي تمام :

ولا يروعك ايماض القتير به

فان ذاك ابتسام الرأي والأدب (٢٠)

فبياض الشيب في المدوح ينبغي ألا يخيف ، فهو نور العقل
والأدب قد انتشر ، وبان من وجهه وظهر •

وقول البحتري :

وبياض البازي أصدق حسنا

ان تأملت من سواد الغراب

فهو لا يرى في الشيب بأسا ، لان اللون الأبيض مفضل على
الأسود ، وبياض البازي أبهى وأحسن في العيون من سواد الغراب •

وكان عبد الملك بن ادريس الحريري بين يدي المنصور أبي عامر
في ليلة يبدو فيها القمر تارة ويختفي بالسحاب تارة ، فأشدد على
البدية :

أرى بدر السماء يلوح حيناً

ويبدو ثم يلتحف السحابا

وذاك لانه لما تبدى

وأبصر وجهك استحيا وغابا (٢١)

فعل اختفاء البدر في السحاب باستحيائه من المدوح لما أبصر

(٢٠) القتير : الشيب .

(٢١) معاهد التنصيصي ٣/٧٤ .

وجبه الذى يفوق البدر فى النضارة والفضياء * وقال أبو الحسن النوبختى
فى هذا المعنى :

لم يطلع البدر الا من تشوقه
أليك حتى يوافى وجهك النضرا
ولا تغيب الا عند خجلته
لما رآك فولى عنك واستترا

فعل طلوع البدر بتشوقه لرؤية مخاطبه ، واستتاره بخجله من
حسنه لما رآه * .

وقد أكثر الشعراء المتأخرون فى عصور الضعف الأدبى من هذا
الفن وتباروا فى الاتيان به دون احتراز عن التكاف ، والغلو ، ودون
مبالاة بكونه سمجاً خالياً من الطرافة والاطافة ، فجاء كثير منه معيباً على
الرغم مما تضمنه من خيال * من ذلك قول الشاعر :

بكت ففدك الدنيا قديما بدمعها
فكان لها فى سالف الدهر طوفان

فعل الطوفان الذى أهلك الكافرين من قوم نوح عليه السلام
بكونه دموعاً قديمة الدنيا بكت بها مقدماً فقد هذا الرجل العظيم وهذا
غلو ممقوت ليس فيه ما يؤهله للقبول * .

وقول الآخر

تجاسر عود اللهو يشبه صوتها
فمن أجل هذا أصبح العود يضرب

د يضرب على أوتاره ليصدر عنه الصوت الجميل الذى يطرب
ولكن من عل ضربه بأنه تجراً على محاكاة صوت تلك المغنية ،

فأدب بالضرب على أوتاره ، وهى وان كانت علة خيالية الا أنها خالية
من التلطف والخلابة ولا تتفعل بها النفس •

وحسن التعليق لا يكون فنا جميلا الا اذا صدر عن احساس
صادق ، وتتضمن معنى لطيفا وعلّة طريفة ، وفائدة شريفة ، وكان له وقع
فى النفس وتأثير فيها •

وقد أكد الشيخ عبد القاهر على هذا فى حديثه عن التخيل والتعليق
فى بيت المتنبى :

ما به قتل أعاديه ولكن
يتقى اخلاف ما ترجو الذئاب

فبعد أن بين أن المتنبى تجاوز العلة الحقيقية فى قتل الأعداء
وادعى علة متخيلة ذكر أن هذا لا يقبل ولا يكون حتى يكون فى استئناف
العلة المدعاة فائدة شريفة فيما يتصل بالمدوح ، أو يكون لها تأثير فى
الذم (٢٢) ، وما أشبه ذلك حسب أغراض الكلام ومقاصد القائلين •

ولحسن التعليق المقبول شأن جليل فى صنعة الشعر ، واخراجه
من قيود البراهين العقلية والحجج المنطقية الى التحليق فى سماء الخيال،
حيث يجد عالما غير محدود ينمو فيه ويزدهر ، والصنعة انما يمتد باعها ،
وينشر شعاعها ، ويتسع ميدانها ، وتتفرع أفنانها حيث تعتمد الاتساع
والتخييل ، ويدعى الحقيقة فيما أصاه التقريب والتمثيل ، وحيث يقصد
التلطف والتأويل ، ويذهب بالقول مذهب المبالغة ••• فى سائر المقاصد
والأغراض ، وهناك يجد الشاعر سبيلا الى أن يبدع ويزيد ، ويبدىء
فى اختيار الصور ويعيد ••• ويكون كالمعترف من غدير لا ينقطع ،
والمستخرج من معدن لا ينتهى (٢٣) •

• (٢٢) أسرار البلاغة ٢٥٧

• (٢٣) أسرار البلاغة ٢٣٧

التجريد

التجريد أسلوب بديع استعمله فصحاء العرب استعمالاً فطرياً ،
وجرى على السنة شعرائهم ، وبرز عنى وجه الخصوص فى مطالع
قصائدهم .

ومن قديم ما ورد منه قول امرىء القيس :

تطاون ليك بالاثمد ونام الخلى ولم ترقب

وقول علقمة بن عبدة :

طحا بك قلب فى الخسان طروب

بعيد الشباب عصر جان مشيب

وقول الخنساء :

قذى بعينك أم بالعين عوار

أم ذرفت اذ خلت من أهلها الدار

وغير ذلك مما يضيق المقام عن ذكره .

وورد هذا الأسلوب فى القرآن الكريم بنسبة غير قليلة (١) ،
وظل دائراً على السنة الشعراء والفصحاء لى يومنا .

والتجريد مأخوذ من « جرد » وهى تدور حول القشر والينزع
وتأخذ شىء عن شىء ونحو ذلك . يقال : جرد الشىء وجرده أى قشره ،
وجرد الجلد وجرده ، أى نزع عنه الشعر ، والجرید : الذى يجرد عنه
الخوص ، ولا يسمى جریداً ما دام عليه الخوص وإنما يسمى سعفاً ،

(١) ينظر للإفوائد ١٦٨ . وقد عرضنا لأسلوب التجريد وبلاغته فى
بحث موسع ضمن كتابنا : « بحوث فى البلاغة والنقد » .

وكل شيء قشرته عن شيء فقد جردته عنه ، والجرد : أخذ الشيء عن الشيء عسفا وجرفا ، (٢) •

والتجريد عند البلاغيين مأخوذ من ذلك ، فهو عندهم : أن ينتزع من أمر ذي صفة أمر آخر مثله في تلك الصفة مبالغة في كمالها فيه (٣) •

وبمقتضى تعريف التجريد يكون لهذا الأسلوب ثلاثة أركان (٤) :

المجرد منه : وهو الموصوف المنتزع منه أمر آخر •

المجرد : وهو الأمر الذي انتزع من الموصوف •

الصفة : وهي التي يراد بيانها والمبالغة فيها •

فاذا قلت : لى من محمد صديق حميم • فالمجرد منه : محمد •
والمجرد : صديق حميم ، والصفة : الصداقة •

وإذا قلت سألت بخالد البحر • فالمجرد منه : خالد • والمجرد :
البحر • والصفة : الكرم •

أقسام التجريد :

ذكر الخطيب أن التجريد أقسام ، ولم يحصر عدد هذه الأقسام ، ولم يحدد ضوابطها ، وإنما ذكر أمثلة لسبعة أقسام ، واهتم شرح التلخيص ببيان ضوابطها ، وهي على النحو التالي :

١ - ما يكون بمن التجريدية ، نحو قولهم : لى من فلان صديق حميم •

(٢) لسان العرب : مادة جرد •

(٣) الأيضاح ٥٤/٦ •

(٤) ينظر عروس الأبحاث ٣٥٧/٤ ، والبديع من المعاني والألفاظ ٧٧ •

أى بلغ فلان من انصدائة حدا صح معه أن يستخلص منه صديق
آخر مثله فى الصداقة (٥) • ومنه قول الشاعر :

ترى منهم الأسد الغضاب اذا سطوا
وتتنظر منهم فى اللقاء بدورا

ولم يمثلوا لهذا القسم الا بما دخلت فيه « من » على المنتزع
منه • و « من » فى هذه الحالة تكون للابتداء ، لان المنتزع مبدؤه
ونشأته من المنتزع منه الذى هو مدخول « من » ، وما جعلها للبيان
فلا تفيد المبالغة ، فان بيان شىء بشىء لا يدل على كمال البين فى
الوصف بخلاف جعله مبتدأ ومنشأ لذى وصف ، فانه يدل على كمال
ذلك الشىء باعتبار ذلك الوصف ، فاذا قيل : لى من فلان صديق
حميم ، فكأنه قيل : خرج لى من فلان وأتانى منه صديق آخر ، ولا شك
أن هذا يفيد المبالغة فى وصف فلان بالصداقة (٦) •

وكلام الزمخشري يقتضى أنها بيانية ، حيث قال فى قوله تعالى :
« هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين » (٧) يحتمل أن تكون « من »
بيانية كأنه قيل : هب لنا قررة أعين ثم بين القررة بقوله « من أزواجنا »
وهو من قولهم : رأيت منك أسدا ، لى أنت أسد (٨) •

والأحسن أن تكون ابتدائية لما قدمناه ، ولان من البيانية شرطها
أن يتقدم عليها المبين (٩) ، وهذا مخالف لما نحن فيه •

وهذا القسم لا يقصد منه تشبيه الشىء بغيره • وزعم بعضهم
أنه على حذف المضاف فمعنى قولهم : لقيت من زيد أسدا ، لقيت من

(٥) بغية الإيضاح ٤/٤٤ • والمطول ٤٣٢ •

(٦) الزرغان آية ٧٤ •

(٧) مواهب الفتاح ٤/٣٤٩ • وحاشية الدسوقي ٤/٢٤٩ •

(٨) الكشاف ٣/١٠٢ •

(٩) عروس الأشراف ٤/٣٥٧ :

لقائه أسدا ، وانغرض تشبيهه بالأسد • ولا يخفى ضعف هذا التقدير في مثل قولنا : لى من فلان صديق حميم ، لفوات المبالغة في تقدير : حصل لى من حصوله صديق (١٠) •

٢ — ما يكون بالباء التجريدية الداخلة على المنتزح منه نحو قولهم : لئن سألت فلانا لتسألن به البحر • فقد بالغ في أتصافه بالسماحة حتى انتزح منه بحرا في السماحة (١١) •

والباء هنا يناسبها أن تكون للمصاحبة ، أى لتسألن مع فلان حين سؤالك له بحرا آخر معه ، أى شخصا كريما كالبحر مصاحبا له • ويحتمل أن تكون لاسيوية ، أى لتسألن بسببه البحر • بمعنى انه كان سببا لوجود بحر آخر معه مجردا منه مماثلا له في كونه يسأل (١٢) •

ويشير كلام الزمخشري الى أنها سببية ، حيث قال في قوله تعالى : « فاسأل به خيرا » (١٣) أى فاسأل بسؤاله خيرا كقولك : رأيت به أسدا أى برؤيته (١٤) •

وهذا القسم يقصد فيه تشبيه الشيء بغيره (١٥) ، وهذا واضح من كلامهم السابق في بيان معنى الباء • ومن قول الدسوقي ان كان المراد بالسؤال في قوله لتسألن به البحر ، سؤال دفع الحاجة فيكون التشبيه بالبحر في السماحة ، وان كان السؤال لدفع الجهل فيكون التشبيه بالبحر في كثرة العلم (١٦) •

-
- (١٠) الطول ٤٣٢ •
(١١) بغية الايضاح ٤٤/٤ • والطول ٤٣٢ •
(١٢) مواهب الفتاح ٣٥٠/٤ • وحاشية الدسوقي ٣٥٠/٤ •
(١٣) الفرقان آية ٥٩ •
(١٤) الكشاف ٩٨/٣ •
(١٥) عروس الأفراح ٣٥٠/٤ •
(١٦) حاشية الدسوقي ٣٥٠/٤ •

وقد بين الامام عبد القاهر أن قولهم : لقيت به أسدا ورأيت به
لهيئا ، من قبيل التشبيه (١٧) .

٣ — ما يكون بدخول الباء التجريدية على المنتزع نحو قول
الشاعر :

وشوهاء تعدو بي الى صارخ الوغى
بمستلثم مثل الفنيق المرحل

والشوهاء : الفرس القبيحة المنظر لسعة أشداقها أو لما أصابها
من شدائد الحرب ، وتعدو بي : تسرع بي ، وصارخ الوغى : المستغيث
في الحرب ، والمستلثم : لابس الألأمة وهي الدرع ، والباء للمصاحبة ،
والفنيق : الفحل المكرم من الابل ، الذي ترك أهله ركوبه تكرامة له ،
والمرحل : المرسل عن مكانه غير المربوط .

أى : تعدو بي ومعنى من نفسى لكمال استعدادها للحرب لابس
درع . وبذلك بالغ في وصف نفسه بالشجاعة والاستعداد للحرب حتى
انتزع منها مستعداً آخر لابساً لأمة (١٨) .

وهذا القسم لا يدل على التشبيه ، والباء فيه للمصاحبة والملابسة،
ولا يناسبها هنا الا هذا المعنى ، لأنها لو جعلت للسببية كان التقدير :
تعدو بي بسبب مستلثم ، فيكون المستلثم الذى هو المنتزع سبباً للمجرد
منه وهو الذى يلبس الألة حقيقة ، والمقرر أن المجرى منه هو السبب
والمنشأ لا العكس ، واذلك جعلت الباء للمصاحبة (١٩) .

٤ — ما يكون بدخول « فى » على المنتزع منه نحو قوله تعالى :

(١٧) أسرار البلاغة ٢٩١ .
(١٨) بغية الأيضاح ٤٥/٤ ، والمطول ٤٣٢ .
(١٩) مواهب الفتح ٣٥١/٤ . وينظر عروس الأعراف ٣٥٠/٤ .

« لهم فيها دار الخلد » (٢٠) ، أى : للكافرين فى جهنم دار الخلد ،
وجهنم — أعاذنا الله منها — هى نفسها دار الخلد ، لكن انتزعت منها
دار أخرى مثلها ، وجعلت معدة فيها لأجل الكفار ، وفى ذلك تهويل
لأمرها (٢١) ، وبيان لكونها محلا لخلاودهم .

و « فى » هنا للظرفية ، وقد بولغ فى وصف جهنم بكونها دارا ذات
عذاب مخلد حتى صارت بحيث تفيض وتصدر عنها دار أخرى هى
مثلها فى اللزوم وقوة العذاب بلا ضعف مع التخليد (٢٢) .

وهذا القسم لا يقصد فيه تشبيهه بشىء غيره (٢٣) ، وقد أشار
الامام عبد القاهر الى ذلك فى بيانه للآية السابقة (٢٤) .

٥ — ما يكون بدون توسط حرف من حروف التجريد نحول قول
قتادة بن مسلمة الحنفى :

فلئن بقيت لأرحلن بغزوة
تحوى الغنائم أو يموت كريم

وتحوى الغنائم : تجمعها . والجملة صفة غزوة ، وأو بمعنى الا ،
والفعل يموت منصوب بأن مضمرة والتقدير : ألا أن يموت كريم .
والتجريد فى قوله : أو يموت كريم ، حيث عنى بالكريم نفسه ، فكأنه
انتزع من نفسه كريما مبالغة فى وصفها بالكرم ، ولذلك لم يقل أو
أموت ، كما هو مفهوم من الكلام اذ المعنى : لأجمعن الغنائم أو أموت .
فترك هذا وعبر بطريقة التجريد للمبالغة فى وصف نفسه بالكرم ،

(٢٠) فصلت آية ٢٨ .

(٢١) بغية الايضاح ٤/٤٥٠ ، والطول ٤٣٣ .

(٢٢) مواهب الفتاح ٤/٣٥٢ .

(٢٣) عروس الأفرنج ٤/٣٥١ .

(٢٤) ينظر أسرار البلاغة ٢٩١ .

لدلالة الانتزاع على أنه بلغ في الكرم انى حيث يفيض ويخرج عنه كريم
آخر مثله في الكرم (٢٥) .

وعلى هذا قراءة من قرأ « فاذا انشقت السماء فكانت وردة
كالدهان » برفع « وردة » بمعنى : فحصلت سماء وردة ، وهما شيء
واحد . فيكون ذلك من قبيل التجريد بغير حرف من حروف التجريد .

وقيل تقدير البيت : أو يموت منى كريم ، وتقدير الآية : فكانت
منه وردة كالدهان وعلى هذا يكون التجريد في البيت والآية بواسطة
« من » التجريدية ، وللخطيب نظر في ذلك (٢٦) . وفسر السعد هذا
النظر بأن التجريد حاصل والمعنى تام بدون هذا التقدير ، ولا قرينة
عليه (٢٧) ، ومن ثم فلا حاجة اليه .

وهذا القسم لا يدل على التشبيه (٢٨) .

٦ — ما يكون بطريق الكناية نحو قول الأعشى :

يا خير من يركب المطى ولا

يشرب كأسا بكف من بخلا

والشاهد في قواه : ولا يشرب كأسا بكف من بخلا . فهو كناية
عن شربه الكأس بكف كريم . والشأن أن الانسان يشرب بكف نفسه ،
فانتزع الشاعر من ذلك الممدوح شخصا كريما يشرب من كفه الممدوح
مبالغة في كرمه ، فصار الأصل : ويشرب بكف كريم ، ثم عبر عن ذلك
المعنى بالكناية ، بأن أطلق المألوم وهو نفى الشرب بكف البخيل وأراد
اللازم وهو الشرب بكف الكريم (٢٩) .

(٢٥) المطول ٤٣٣ ، ومواهب الفتاح ٣٥٢/٤ :

(٢٦) بغية الايضاح ٤٠/٤٥ ، ٤٦ .

(٢٧) مختصر السعد ٣٥٤/٤ ، والمطول ٤٣٣ .

(٢٨) بغية الايضاح ٤٥/٤ ، وعروس الافراح ٣٥٢/٤ .

(٢٩) المطول ٤٣٣ ، وخاشعة الذنوب ٣٥٤/٤ .

ونحو هذا قول الشاعر :

ان تلقنى لا ترى غيرى بناظرة
تنس انسلح وتعرف جبهة الأسد

والشاهد في قوله : وتعرف جبهة الأسد • حيث كنى بذلك عن معرفة الأسد نفسه ، فكأنه قال : وتعرف الأسد (٣٠) • وهو يقصد بالأسد نفسه ، فانترع من نفسه أسدا على سبيل التجريد مبالغة في شجاعته ، والتقدير : وتعرف منى الأسد •

وهذا القسم كالذى قبله لا يقصد به التثبيته (٣١) ، والتجريد فيه بغير حرف ، الا أن الذى قبله تجريد بمنطوق ، وهذا تجريد بمفهوم ، لان قوله : بكف من بخلا • ليس فيه تجريد ، بـ مفهومه أنه يشربها بكف من لم يبخل ، فكأنه جرد من نفسه غير بخيل ، وأثبت بالمفهوم أنه يشربها بكفه (٣٢) •

٧ — ما يكون بمخاطبة الانسان نفسه • كقول الأعشى :

ودع هريرة ان اتركب مرتحل
وهل تطيق وداعا أيها الرجل

وكقول أبي الطيب :

لا خيل عندك تهديها ولا مال
فليسعد النطق ان لم يسعد الحال

فقد انتزع من نفسه شخصا آخر مثله في فقد الخيل والمال ووجه اليحه الخطاب (٣٣) •

(٣٠) بغية الايضاح ٤٦/٤ .
(٣١) ينظر أسرار البلاغة ٢٩١ .
(٣٢) عروس الأفراس ٣٥٥/٤٤ .
(٣٣) بغية الايضاح ٤٤/٤٧ ، والطول ٤٣٢

وهذا القسم لا يدل على التشبيه ، وبيان التجريد فيه : أن المتكلم ينتزع من نفسه شخصا آخر مثله في الصفة التي سيق لها الكلام ثم يخاطبه ، فمخاطبة الانسان نفسه تستلزم التجريد (٣٤) •

وأشهر السبكي في بيانه لهذا القسم الى أمرين :

الأول : أن هذا اللون من التجريد قد يكون بغير المخاطبة •

والثاني : وجه المبالغة في هذا اللون من التجريد • حيث قال : فان قيل أين المبالغة في التجريد بخطاب الانسان لنفسه ؟ قلت : كأنه يجعل نفسه لكامل الادراك كأن فيها نفسا أخرى • ومن أحسنه قوله تعالى : « يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها » (٣٥) ، صيرها لشدة جدالها كأنها تجادل عن غيرها (٣٦) •

وبهذا تنتهي أقسام التجريد السبعة التي مثل لها الخطيب وفصلها شراح تلخيصه ، وأشبار السبكي الى أقسام أخرى للتجريد ، فبعد أن انتهى من شرح الأقسام السبعة المذكورة قال : وبقي من أنواع التجريد أن يقصد التشبيه ويكون بمن أو في نحو : رأيت من فلان أو فيه البحرء أو لا يقصد التشبيه ويكون بالباء أو في نحو : لي به أو فيه صديق حميم (٣٧) •

وبهذا تكون أقسام التجريد عند السبكي عشرة هي :

١ - ما يكون بمن ولا يقصد به التشبيه • نحو : لي من محمد صديق حميم •

-
- (٣٤) المطول ٤٣٤ ، ومواهب الفتح ٣٥٦/٤ •
(٣٥) النحل آية ١١١ •
(٣٦) عروس الأعراس ٣٥٧/٤ •
(٣٧) عروس الأعراس ٣٥٧/٤ •

- ٢ — ما يكون بمن ويقصد به التشبيه • نحو : رأيت من خالد البحر •
- ٣ — ما يكون بالباء الداخلة على المنتزع منه ولا يقصد به التشبيه •
نحو لى بمحمد صديق حميم •
- ٤ — ما يكون بالباء الداخلة على المنتزع منه ويقصد به التشبيه •
نحو : لتسألن به البحر •
- ٥ — ما يكون بالباء الداخلة على المنتزع كقول الشاعر :
وشوهاء ••• الخ •
- ٦ — ما يكون بفى ولا يقصد به التشبيه • نحو : لى فى محمد
صديق حميم •
- ٧ — ما يكون بفى ويقصد به التشبيه • نحو : رأيت فى محمد
البحر •
- ٨ — ما يكون بغير حرف •
- ٩ — ما يكون عن طريق الكناية •
- ١٠ — ما يكون بمخاطبة النفس ، وهذه الأقسام الأخيرة لا يقصد بها
التشبيه ، وأمثلتها قد تقدمت •

التجريد والالتفاتات :

أثار شراح التلخيص مسألة اجتماع التجريد والالتفاتات فى
توضيحهم للتجريد فى قول قتادة بن مسلمة :

فلئن بقيت لأرحلن بغزوة تحوى الغنائم أو يموت كريم

فقوله : أو يموت كريم • شاهد للتجريد بدون حرف ، حيث عنى
بالكريم نفسه ، والتقدير : أو أموت • فجرد من نفسه كريما مبالغة فى
وصفها بالكرم • وهو فى ذات الوقت يصلح شاهداً للالتفاتات ، حيث

انتقل من التكلم في « لأرحلن » الى الغيبة في « يموت » ، ولو سار
الكلام على مقتضى الظاهر لقال أو اموت •

ومن هنا أثرت المناقشات حول هذه المسألة • وللبلاغيين فيها
رأيان :

الأول : رأى الجمهور وهو أنه لا تعارض بين التجريد والالتفات
فيمكن اجتماعهما •

وكلام السكاكى فى الالتفات يفهم منه ذلك ، حيث أشار فى كلامه
عن التفات امرئ القيس الى ما فيها من تجريد • ففى تعليقه على
أبيات امرئ القيس :

تطاول ليك بالاثمد ونام الخلى ولم ترقد
وبات وباتت له لياله كيلة ذى العائر الأرمد
وذلك من نبأ جاعنى وخبرته عن بنى الأسود

يقول : وليس ابن الحجر الكندى يبعد — وهو المشهود له فى شأن
البلاغة ، اذا التفت تلك الالتفات وكان يمكنه ألا يلتفت لبته ••• — أن
يكون حين قصد تهويل الخطب واستفظاعه فى النبأ الموجه والخبر
المفج ••• فعل ذلك منها فى التفاتة الأول على أن نفسه وقت ورود ذلك
النبأ عليها ولهمت وله الثكى ، فأقامها مقام المصاب الذى لا يتسلى
بعض التسلى الا بتفجع الملوك له ، وتحزنهم عليه ، وأخذ يخاطبه :
بتطاول ايلى ، تسلية • أو نبه على أن نفسه لفظاعة شأن النبأ ، أو
استشعارها معه كمدا وارتماضا ، أبدت قلقا ••• وضجرا ••• وكان
من حقا أن تثبت وتتصبر ••• فحين لم تفعل ذلك شكته فى أنها
نفسه ، فأقامها مقام مكروب ذى حرق ، قائلا له • تطاول ليلى ،
مسليا •••

أو نبه في التفاتة الأول على أن نفسه حين لم تثبت ولم تتصبر ،
غازه ذلك فأقامها مقام المستحق للعتاب قائلاً له على سبيل التوبيخ
وانتكير : تطاول ليك (٣٨) .

فهذا التحليل ناطق بوجود التجريد بجانب الالتفات ، حيث أقام
الشاعر نفسه مقام المصاب أو المكروب أو المستحق للعتاب ، وخاطبه
بقوله : تطاون ليك . . . وهذا ما جعل السبكي يقول : وقد صرح
السكاكي بلفظ التجريد في أثناء كلامه عن الالتفات في أبيات امرئ
القيس (٣٩) .

وبجانب ما ذكره السكاكي نرى عدداً من ابلاغيين يمثلون في
التجريد بيت قتادة بن مسلمة (٤٠) ، مع جواز تخريجه على الالتفات ،
وهذا يشعر بأنهم لا يرون مانعاً من اجتماع التجريد والالتفات .

والى هذا الرأي ذهب السبكي ، وبين أن بينهما عموماً وخصوصاً
من وجه ، فيوجد التجريد دون الالتفات كقولك : رأيت منه أسداً ،
ومثل : تطاول ليك . . . على رأى الجمهور في الالتفات . ويوجد
الالتفات دون التجريد نحو قوله تعالى : « والله الذى أرسل الرياح
فتثير سحاباً فسقناه الى بلد ميت » (٤١) ، ففى « سقناه » التفات
لا تجريد . ويجتمع الالتفات والتجريد نحو قوله تعالى : « انا أعطيناك
الكوثر فصل لربك وانحر » (٤٢) ، ففى « ربك » التفات وتجريد ، ونحو
قول الشاعر : طحا بك قلب فى الحسان طروب . . . ففى « بك » التفات
على رأى السكاكي وتجريد (٤٣) .

-
- (٣٨) مفتاح العلوم ٢٠٣ ، ٢٠٤ .
(٣٩) عروس الأفراح ٤٧٧/١ .
(٤٠) ينظر حسن التوسل ٢٨٦ ، وبغية الإيضاح ٤٥/٤ .
والتبيان ٢٩١ .
(٤١) فاطر آية ٩ .
(٤٢) الكوثر آية ١ ، ٢ .
(٤٣) عروس الأفراح ٤٧٦/١ .

والى مثل هذا ذهب السعد ، اذ يرى أن التجريد لا ينافى الالتفات،
ومن ثم يمكن اجتماعهما ، بل هو واقع بأن يجرد المتكلم نفسه من ذاته
ويجعلها مخاطبا لنكتة كالتوبيخ في : تطاول ليك بالاثمد • والتشجيع
وانصح في قوله :

أقول لها إذا جشأت وجاشت

مكانك تحمدي أو تستريحي (٤٤)

ويرى السعد أنه لا تجريد في قوله تعالى : « انا أعطيناك الكوثر
فصل لربك وانحر » وانما فيه الالتفات من التكلم الى الغيبة فقط •

لانه لا معنى للانتزاع فيه بأن يقال : انتزع تعالى من ذاته ربا
مبالغة في ربوبيته للنبي صلى الله عليه وسلم ، لانه يلزم الأمر بالصلاة
لرب المنتزع (٤٥) • وبذلك خالف رأى السبكي في الآية •

والثاني : رأى السيد الشريف ، وهو عدم اجتماعهما وفي ذلك
يقول : المقصود من الالتفات المشهور عند الجمهور ارادة معنى واحد
في صور متفاوتة استجلابا لنشاط السامع له ، واستدرارا لاصغائه اليه،
والمقصود من التجريد المبالغة في كون الشيء موصوفا بصفة وبلوغه
النهاية فيها بأن ينتزع منه شيء آخر موصوف بتلك الصفة ، فمبنى
الالتفات على ملاحظة اتحاد المعنى ، ومبنى التجريد على اعتبار التباين
ادعاء ، فكيف يتصور اجتماعهما ! نعم ربما أمكن حمل الكلام على كل
واحد منهما بدلا عن الآخر ، وأما أنهما مقصودان معا فكلا ، مثلا اذا
عبر المتكلم عن نفسه بطريق الخطاب أو الغيبة : فان لم يكن هناك
وصف يقصد المبالغة في اتصافه به لم يكن ذلك تجريدا أصلا ، وان كان
هناك وصف يحتمل المقام المبالغة فيه : فان انتزع من نفسه شخصا

(٤٤) اللطول ٤٣٣ .

(٤٥) المطول ٤٣٣ . وحاشية الدسوقي ٣٥٣/٤ .

آخر موصوفا به فهو تجريد وليس من الالتفات في شيء ، وإن لم ينتزع
بل قصد مجرد الافتتان في التعبير عن نفسه كان التفاتا (٤٦) .

وبذلك يرى السيد أن التجريد والالتفات متنافيان ، لأن الالتفات
مبنى على ملاحظة اتحاد المعنى ، والتجريد مبنى على اعتبار التشاير
ادعاء ، فلا يتصور اجتماعهما معا في آن واحد . لكن يمكن حمل الكلام
على كل واحد منهما بدلا من الآخر .

ورد السيد على القول بدلالة كلام السكاكي على اجتماعهما فقال :
فان قيل كلام المفتاح حيث قال في بيان الالتفات : فأقامها مقام المصاب ،
يدل على أنه تجريد أيضا فيجتمعان . قلنا : معنى كلامه : أنه أقام
نفسه مقام المصاب ، لا أنه جرد منها مصابا آخر ليكون تجريدا ، فما
ذكره فائدة اطلاق لفظ المخاطب على المتكلم ، وبيان النكتة الخاصة
بالالتفات في هذا الموضع . وان شئت زيادة توضيح فاعلم أن قوله :
تطاوُل ليلىك . . ان حمل على الالتفات ، كان فيه إيهام الخطاب وملاحظة
أن المراد به نفس المتكلم ، ولم يكن هناك مبالغة في اتصافه بالمحزونية
بطريق انتزاع محزون آخر منه ، وان حمل على التجريد كان فيه دعوى
الخطاب واظهار أن المراد به مغاير للمتكلم منتزع منه ، وكان فيه مبالغة
في اتصافه بالمحزونية بطريق الانتزاع (٤٧) .

فالسيد يرى أن كلام السكاكي لا يدل على أن في قول امرئ
القيس تجريدا ، بل هو بيان لفائدة الالتفات . وهذا غير دقيق لأن
السكاكي أشار بوضوح إلى أن الشاعر انتزع من نفسه شخصا آخر ،
وبين ذلك ثلاث مرات ، كما هو واضح من كلامه الذي سقناه آنفا .

وقد دافع عبد الحكيم وغيره عن وجهة نظر السعد في أنه لا تنافي

(٤٦) حاشية السيد الشريف على المطول ٤٣٣ .
(٤٧) حاشية السيد على المطول ٤٣٣ .

بين التجريد والالتفات فيمكن اجتماعهما ، وبينوا. أن اجتماعهما واقع في صورة يكون الأسلوب المنقلب انيه دالا على صفة كما في قول قتادة : أو يموت كريم . فهو الالتفات من حيث انه انتقل من التكلم للغيبة ، وتجريد من حيث التعبير بصيغة اصفة لأجل المبالغة في الكرم (٤٨) .

وردوا على السيد الشريف في حكمه بالتنافي بينهما : اذ أن قوله : أن الالتفات يقتضى الاتحاد والتجريد يقتضى التغير ولو ادعاء فيبينهما تناف ، مردود عليه باختلاف جهة وجود كل منهما في التعبير ، وبذلك لا يكون بينهما تناف ، لان التنافي انما يلزم لو كان اعتبار المتنافيين من جهة واحدة بحسب اقتضاء المقام ، وهنا ليس كذلك ، لان الالتفات من حيث انه انتقل من التكلم للغيبة لأجل تجديد الأسلوب ، والتجريد من حيث اتعبير بصيغة الصفة لأجل المبالغة فيها . فاجتماعهما في مادة واحدة لا ضرر فيه ، لان كل واحد منهما باعتبار خاص به (٤٩) .

كما أن المراد بالاتحاد في الالتفات الاتحاد في نفس الأمر ، لا الاتحاد فيه وفي الاعتبار . والتعدد في التجريد تعدد بحسب الاعتبار لا في نفس الأمر أيضا حتى ينافي الالتفات ، فالحاصل أنه تجريد نظرا للتغير الادعائي ، والتفات نظرا للاتحاد الواقعي (٥٠) .

واللفظ في بيت قتادة يحتمل كليهما بالانفراد ، ويحتمل الجمع بينهما ، وهو أكمل فعليه يحمل (٥١) .

وبذلك يترجح رأي الجمهور الذي يقضى بإمكان اجتماع التجريد والالتفات لعدم التنافي بينهما ، والنكات البلاغية لا تتراحم ، ويمكن اجتماعها نظرا لاعتباراتها المختلفة .

(٤٨) حاشية عبد الحكيم على المطول ٥٠٤ ، وحاشية الدسوقي ٣٥٣/٤ .

(٥١) المرجع السابقان .

تجريد ~~البيت~~ ٣٩٠ ، ٣٩٥ .

(٥١) تقرير الانباني ٣٩٥/٤ .

بلاغة التجريد وأغراضه :

التجريد أسلوب بديع يكسو العبارة حسنا وجمالا ، ويبرز المعنى قويا بالغاً غايته ، وينبه الأسماع ويؤثر في النفوس • ومن هذه الجهات الثلاث تأتي بلاغة التجريد •

فأما أنه ينبه الأسماع ويؤثر في النفوس فبما فيه من إيهام وخداع أن هناك مخاطبا يوجه إليه الكلام ، أو حقيقة غير المتحدث عنها لها من الصفات أكثر مما لها • وهذا يستدعى التنبيه والتيقظ ، وينشط الفكر للوقوف على حقيقة الأمر ، كما أن المخاطب يسمع من خلال التجريد خلاف ما يترقب ويواجه بغير ما يتوقع فينشط ويصغى إلى الكلام ، حيث يترقب أن يتحدث المتكلم عن نفسه فإذا هو يخاطب غيره •

كما أن هذا الأسلوب يحدث افتقانا في الكلام وتوينا في التعبير وفي هذا تجديد لنشاط السامع ، فإن نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب يكون أحسن تطرية لنشاط السامع ، وأكثر إيقاظا للأصغاء من أجرائه على أسلوب واحد (٥٢) •

وأما أنه يبرز المعنى قويا بالغاً غايته ، فلأنه يقوم على أن ينتزع من أمر ذي صفة أمر آخر مثله في تلك الصفة مبالغة في كمال الصفة فيه حتى أنه ليتجرد منه مثله فيها • والمقرر في العقول أن الأصن والمنشأ لما هو مثله يكون في غاية القوة حتى صار يفيض بمشالاته ، فإذا أخذ موصوف بصفة من موصوف آخر بها فهم أنك بالغت في وصفه حتى سيرته في منزلة هي أن من كانت فيه تلك الصفة صار متصفا بتفريع أمثاله عنه ، فهي فيه كأنها تفيض بمشالاتها لقوتها ، كما تفيض الأشعة عن شعاع الشمس ، وكما يفيض الماء عن ماء البحر (٥٣) •

(٥٢) الكشف ٦٤/١ . وكلام الزمخشري وإن كان في الالتفات إلا أنه ينطبق أيضا على التجريد ، حيث يشتركان معا في ذلك عندما يتصلان في أنشاء الكلام •

(٥٣) عروس الأفراح ٣٤٨/٤ . وحاشية الديبوتي ٣٤٩٤٣٤٨/٤ •

فعندما تقول : لك في محمد البحر ، فقد جعات محمدا بالغاً في الكرم والعطاء مبلغاً عظيماً ، حتى انه صار أصلاً ومنشأً لهذه الصفة يفيض منها على غيره ويمد منها سواه ، ومن ثم انتزعت منه البحر الذي هو مضرب الأمثال في العطاء والجود •

كما أن فيه مبالغة بنقل الشيء من حقيقة الى حقيقة أخرى ، فاذا قلت : لئن أقيت زيدا ليلقينك منه الأسد ، فقد جعلته يرى منه الأسد ، على القطع ، فيخرج الأمر عن حد التوهم في مثل : كأن زيدا الأسد ، الى حد اليقين هنا (٥٤) • واذا قلت : لى في دارى بيت السرور ، فقد بالغت حتى جعلت بيت السرور حقيقة أخرى موجودة في دارك هي محل سرورك ومقر فرحك ، مع أن بيت السرور هو دارك نفسها •

ثم ان هذا الاسلوب يحتاج في ادراكه والوقوف على مراد المتكلم الى مزيد من الفكر والروية ، وذلك باعث على تمكينه في النفس ، وتثبيته في الفهم ، للحصول على المراد بعد جهد وكد •

كما أن أكثر صورته تبرز المعانى مصورة بما فيها من دلالة على التشبيه ، فتكون أكثر وضوحاً ، وأسرع ادراكاً ، تقول : وجدت في الاسلام وطناً ، ولقيت بالمسامين اخواناً ، ورأيت من العلم نوراً ، فتخرج المعانى في صورة محسنة ، قوية الظهور بالغة التأثير •

وفي مخاطبة النفس عن طريق الغير تعميم في الخطاب ، واشراك للغير في فعل المطلوب ، وحث لكل سامع على الادلاء بدلوهم. فقول
أبى نواس :

دع الأطلال تسفيها الجنوب وتبلى عهد جدتها الخطوب
وخل لراكب الوجداء أرضاً تخب به النجبية والنجيب

فيه دعوة لكن شاعر أن يدع الوقوف على الأطلال وبسكاء الديار
على عادة الشعراء العرب في مطالع قصائدهم ، وفي هذا افصاح عن
شدة ثورته على هذه العادة ، ورغبته في هدمها والقضاء عليها .

وقول شوقي :

قم في فم الدنيا وحى الأزهرا
وانثر على سمع ازمان . الجوهرا
واجعل مكان الدر ان فصلته
في مدحه خبز السماء النيرا

فيه دعوة لكل سامع أن يفعل ذلك ، وان كان الشاعر يخاطب
نفسه على سبيل التجريد . وفي هذا مزيد اهتمام بشأن الأزهر . واعلاء
مكانته ورفع لوائه ، والتعريف بأمجاده ومآثره .

وقول حافظ ابراهيم في الشكوى :

ماذا أصبت من الأسفار والنصب
وطيك العمر بين الوخد والخبب ؟

فيه تعميم نلتحسر والندم على فوات العمر وضياعه دون فائدة ،
وذلك عن طريق الاستفهام من ك مخاطب عما أصابه من أسفاره
ونصبه .

وأما أنه يحسن العبارة فلما فيه من دقة في الصياغة تجعل له وقعا
مؤثرا في النفس ، فقولنا : لي منك صديق حميم ، ووجدت فيك أخا لم
تلده أمي ، يفضل قولنا : أدت صديقتي الحميم ، ووجدتك أخا لم تلده
أمي ، لما فيه من احكام في الصياغة ، وجمال في المبني . وغزارة في
المعنى ، وبعد عن الاساليب المعتادة المتعارفة بين عامة الناس .

وقد بين ابن الأثير أن التجريد فائدتين : التوسع في الكلام ،
والتمكن من اجراء الأوصاف المتصودة على النفس (٥٥) • وهاتان
الفائدتان قاصرتان في بيان أغراض هذا الأسلوب لبديع الذي تتأتى
بلاغته من جهات عديدة كما أوضحنا •

وكان الطيبي أكثر دقة في بيان أغراض التجريد ، وان كان لم
يبين الا الأغراض التي تتأتى من مخاطبة الانسان نفسه ، فذكر منها :
التوبيخ ، والنصح ، والتحريض ، والتعريض ، والتمكن من اجراء
الأوصاف على النفس (٥٦) •

ونقول ان للتجريد فائدتين أساسيتين لا ينفك عنهما أسلوب وارد
على نهجه هما :

١ — التوسع في الكلام والافتتان فيه •

٢ — المبالغة في وصف المنتزع منه بما يقصد من صفات •

وتأتى بجانب هاتين الفائدتين أغراض متنوعة تدل عليها سياقات
الكلام وقرائن الأحوال • ومنها ما ذكره الطيبي وغيره من البلاغيين •
وممن اهتموا بذكر بعض أغراض التجريد السيوطي في شرح عقود
الجمالان • حيث ذكر أن التجريد على قسمين :

الأول : أن ينتزع من أمر ذي صفة أمر آخر مثله مبالغة في كمالها
نحو لى من فلان صديق حميم ، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم :
« اياك ومحقرات الذنوب فان لها من الله طالبا » •

والثانى : أن تجرد نفسك فتخاطبها كأنها غيرك وذلك انكث منها :

(٥٥) المثل السائر ٢/ ١٦٠ •
(٥٦) التبيين ٢٨٧ — ٢٩٠ •

قصد النصيح لها كقوله :

اقول لها وقد جشأت وجاشت
مكانك تحمدي أو تستريحي

لما أراد أن يوطن نفسه على احتمال المكروه جردها مخاطبا لها
نصحا •

ومنها قصد التوبيخ كقول امرئ القيس :

تطاول ليك بالاثمد ونام الخلى ولم ترقد

خاطب نفسه على جهة التجريد موبخا لها ، فان نفسه نفس ملك
فكان من حقها الصبر وعدم الجزع •

ومنها التعريض بآخر كقوله :

أتبكي على ليلى وأنت تركتها
وكنت عليها بالمالا أنت أقدر

ومنها قصد التحريض كقول أبي الطيب :

لا خيل عندك تهديها ولا مال
فليسعد النطق ان لم تسعد الحال

جرد نفسه وخاطبها على جهة التحريض على مدح المدوح •

وادعى السيوطي أن هذه النكت من زياداته ، وأيده المرشدي في
ذلك (٥٧) ، وهذا غير صحيح فقد سبق أن ذكرها الطيبي كما أشرنا
أنفنا •

تأكيد المدح بما يشبه الذم

وهو من الفنون البديعية التي بحثها ابن المعتز ، وتحدث بعض البلاغيين عنه تحت عنوان الاستثناء (١) • وهو من الاساليب الخادعة، حيث يوهم صدر الكلام أن عجزه من قبيل الذم فاذا به من قبيل المدح • فحين تقول : لا عيب في محمد الا أنه أمين • فبداية كلامك توهم أنك لا ترى فيه عيبا الا عيبا ستذكره بعد الاستثناء.، فاذا قلت : انه أمين ، زال اللوهم.، وتبين المتلقى أنك ماض في مدحك له على نهج بديع من الكلام •

وتسمية هذا اللون بتأكيد المدح بما يشبه الذم. باعتبار الأعم الأغاب لانه يقع في غير المدح والذم كما سترى في بعض الأمثلة التي سنعرضها ، ومن هنا يحسن أن يسمى : تأكيد للشيء بما يشبه نقيضه (٢) •

وهذا الفن على ثلاثة أضرب :

الأول : أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح بتقدير دخولها فيها • كقول النابغة الذبياني :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بهن فلول من اقبراع الكتائب

فنفي العيب عنهم. ، ثم استثنى من ذلك صفة مدح على تقدير دخولها في العيب ، وهي صفة الشجاعة. ، التي يدان عليها ما بسيفوفهم من آثار ضرب الخصوم ومقارعتهم في الحروب ، ولما كان دخول

(١) انظر البديع ٦٢ ، والصناعتين ٣٢٤ ، والعمدة ٤٨/٢ •

(٢) انظر المطبول ٤٣٩ •

الشجاعة في العيب محالا كان ثبوت العيب فيهم محالا ، وبهذا. تأكد مدحهم ، وخلوصهم من كل صفات العيب .

ومثله قول الشاعر :

ولا عيب فيكم غير أن ضيوفكم
تعاب بنسيان الأجابة والوطن

: فنفي عنهم العيب ، واستثنى منه صفة الكرم. وهي صفة مدح ، بعد أن أوهم السامع أن المستثنى منه صفة ذم ، كأنه قال لا عيب في هؤلاء القوم الا هذا العيب وهو أنهم كرماء . ولما كان دخول الكرم في العيب محالا كان ثبوت العيب لـ هؤلاء الخاطبين محالا كذلك .

وقد نسج كثير من الشعراء على هذا المنوال ، فقال ابن الرومي :

ليس به عيب سوى أنه
لا تقع العين على شبيهه

فجعل انفراده بالحسن دون ان يكون له قرين في ذلك عيبا مستثنى من عموم العيوب التي نفاها ، ولما كان هذا الوصف ليس بعيب على الحقيقة فقد ثبت إتصافه بالحسن على نهج مؤكد .

وقال أبو هفان :

ولا عيب فينا غير أن سماحنا
أضر بنا ، والبأس من كل جانب
فأفنى الردى أرواجنا غير ظالم
وأفنى الندى أموالنا غير عائب

فاستثنى من العيب المنفى السماح والبأس ، فأوهم السامع أنهما من قبيل العيب ، ولكن دخولهما في العيب محال ، فوجود العيب في هؤلاء القوم محال كذلك .

وقال ابن نباتة المصرى :

ليس فيه عيب سوى أن احسا
ن يديه يستعبد الأحرار

فالصفة المستثناة ليست بعيب ، وهذا تأكيد مدحه عن طريق يوهام
الذم ، وبه يثبت نفي العيب عنه نفيا قاطعا •

ومن هذا الضرب قوله تعالى : « لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ،
الا قليلا سلا ما سلا ما » (٣) ، فقد نفي عنهم سماع اللغو والتأثيم ،
واستثنى من ذلك سماع السلام وهذا من قبيل تأكيد المدح بما يشبهه
الذم ، لان في كل من المنفى والمثبت مدح وتكريم لجماعة السابقين •

ونظيره قوله تعالى : « لا يسمعون فيها لغوا الا سلا ما » (٤) ،
فسماع اللغو منفي منهم ، وسماع السلام ثابت لهم ، وكلاهما مدح
وتكريم لأهل الجنة •

والذى ذكرناه فى الآيتين السابقتين هو الظاهر المتبادر وان أمكن
تخريجها على وجه آخر (٥) •

ومنه قوله تعالى : « لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الأولى » (٦)
فالأية بشارة لاهل الجنة بخلودهم فيها ، حيث نفي عنهم ذوق الموت ،
واستثناء الموتة الأولى من قبيل تأكيد الشئ بما يشبهه ضده ، زيادة
تحقيق انتفاء ذوق الموت عن أهل الجنة ، فكأنه قيل : لا يذوقون الموت
البنية ، يعنى ان كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها فانهم يذوقونها ،
لكنها ليست كذلك لمضى وقتها فى الدنيا (٧) •

(٣) الواقعة آية ٢٥ ، ٢٦ •

(٤) مريم آية ٦٢ •

(٥) انظر الايضاح ٧٦/٦ ، والطول وحاشية السيد عليه ٤٤١ •

(٦) الدخان آية ٥٦ •

(٧) انظر التبيان ٣٩٢ ، والتحرير والتنوير ٣١٩/٢٥ •

وسر التأكيد في هذا لضرب أمران :

١ — أنه كدعوى الشيء ببينة وبرهان ، حيث يستدل فيه على نفي العيب عن المدوح بتعليق وجوده على المحال ، لان المتكلم عرق ثبوت العيب الذى هو نقيض المدعى على كون استثنى عيبا ، وكونه عيبا محال، والمعلق بالمحال محال ، فيكون ثبوت العيب محالا وبذلك يلزم ثبوت نقيضه وهو عدم العيب (٨) .

٢ — أن الأصل في مطلق الاستثناء ان يكون متصلا ، بأن يكون المستثنى من جنس المستثنى منه ، فاذا نطق المتكلم بأداة الاستثناء توهم السامع قبب ذكر ما بعدها أن ما يأتى بعدها مخرج مما قبلها فيكون شىء من الذم ثابتا ، فاذا جاء بعد الأداة صفة مدح وتحول الاستثناء من الاتصال الى الانقطاع جاء التأكيد ، لما فى الاستثناء من زيادة المدح على المدح ، والاشعار بأنه لم يجد صفة ذم يستثنىها ، فاضطر الى استثناء صفة مدح وتحويل الاستثناء الى الانقطاع (٩) .

يضاف الى ذلك ما فى الاسلوب من الخلافة والطرافة ، واشتماله على عنصر المفاجأة والمباغطة الذى يثير الانتباه ، ويوقظ الحس .

والثانى : أن يثبت لشيء صفة مدح ، وتعقب بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى له . كقول انبى صلى الله عليه وسلم : أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش (١٠) . فوصف نفسه بصفة من صفات المدح وهى الأفصحية ، ثم أتى بأداة الاستثناء ، وهذا يشعر بأنه أراد اثبات صفة أخرى مغايرة لما قبلها ، فلما أثبت أنه من قريش ، وقريش أفصح

(٨) انظر حاشية الدسوقي ٣٨٨/٤ .

(٩) انظر مختصر السعد ومواهب الفتح ٣٨٨/٤ ، ٣٨٩ .

(١٠) بيد هنا بمعنى غير الاستثنائية . وتأتى حرف تعليل بمعنى

من أجل .

العرب كان ذلك تأكيدا للمدح ، حيث اصبحت مدحا على مدح ، ومزيلا
لما توهمه السامع •

ومن هذا قول النابغة الجعدي :

فتى كملت أخلاقه غير أنه
جواد فما يبقى من المال باقيا

فقد أثبت له كمال الاخلاق ، ثم استثنى فأوهم أنه سيثبت صفة
مغايرة لما تقدم ، ولكنه أثبت صفة مدح أخرى وهي الجود ، فتأكد
المدح بمدح آخر جاء على خلاف ما يتوقع السامع •

ومنه قول الشاعر :

يسعى به البرق الا أنه فرس
في صورة الموت الا أنه رجل

فالاستثناء في الشطرين يوهم أن المستثنى شيء معيب ، لكنه
جاء على خلاف المتوهم ، فتأكد به المدح •

والضرب الأول أفضل من هذا الضرب قوة وتأكيذا ، لانه يفيد
التأكيد من جهتين كما أسلفنا ، وهذا الضرب لا يفيد الا من جهة
واحدة هي : أن ذكر أداة الاستثناء قبل ذكر المستثنى يوهم اخراج
ما بعدها مما قبلها ، فاذا جاء على خلاف ذلك أفاد التأكيد • ولا يفيد
التأكيد من جهة أنه كدعوى الشيء ببينة وبرهان كما في الضرب الأول ،
وذلك لان مبنى الضرب الأول على اعتبار أن الأصل في الاستثناء
الاتصال ، بخلاف هذا الضرب فان مبناه على اعتبار أن الأصل في
الاستثناء الانقطاع ، فتقدير الاتجمال هنا غير ممكن ، لعدم عموم
الصفة الواقعة قبل الأداة ، فلا يتصور شمولها لما بعدها بخلاف الضرب
الأول ، فان تقدير دخول ما بعد الأداة فيما قبلها ممكن لكونه من الصفات

العامة ، نحو : ولا عيب ••• (١١) •

والثالث : أن يؤتى بمستثنى فيه معنى المدح معمولاً لفعل فيه معنى الذم ويكون الاستثناء حينئذ مفرغاً • ومنه قوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل » (١٢) ، فان الاستثناء بعد الاستفهام الخارج مخرج التوبيخ والانكار على ما عابوا به المؤمنين من الايمان يوهم بأن يأتي بعده ما يوجب أن ينقم على فاعله مما يذم به ، فلما أتى بعد الاستثناء ما يوجب مدح فاعله كان الكلام متضمناً المدح بما يشبه الذم (١٣) •

ومنه قوله تعالى : « وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا » (١٤) ، أى ما تعيب منا إلا أصل المناقب والمفاخر كلها ، وهو الايمان بآيات الله عز وجل (١٥) • وهذا ليس بعيب ، فلا عيب فينا يستوجب النعمة •

ومن هذا قوله تعالى : « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » (١٦) ، وقوله تعالى : « وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله » (١٧) ، وقوله تعالى : « الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » (١٨) ، أى بغير موجب سوى التوحيد الذى ينبغى أن يكون موجب التمكين والاقرار لا موجب الاخراج والتسيير (١٩) •

(١١) البديع في ضوء اساليب القرآن ٨٥ • وانظر مواهب الفتاح

• ٣٩٢/٤

(١٢) المائدة آية ٥٩ •

(١٣) بديع القرآن ٥٠ •

(١٤) الاعراف آية ١٢٦ •

(١٥) الكشاف ١٠٤/٢ •

(١٦) البروج آية ٨ •

(١٧) التوبة آية ٧٤ •

(١٨) الحج آية ٤٠ •

(١٩) الكشاف ١٦/٣ •

والتأكيد في هذا الضرب من الوجهين المذكورين في الضرب الأول ،
وذلك أنه كدعوى الشيء ببيينة ودليل ، لان الشيء فيه معق على محال
فيكون محالا ، ولان فيه اشعارا بطلب ذم وعيب فلم يجده فاستثنى
المسح (٢٠) .

والاستدراك يجرى مجرى الاستثناء في باب تأكيد المدح بما يشبه
الذم ، لانها من وايد واحد ، اذ كل منهما لاخراج ما هو بصدد الدخول
في شيء وهما أو حقيقة (٢١) ، فانك اذا قلت : زيد شجاع لكنه قليل
الحيلة ، فقد اخرجت صفة يتوهم أنها داخلة في الشجاعة ، مثلما نقول:
جاء الطلاب الا زيدا ، فتخرج زيدا من مجيء انطلاب .

وعلى هذا فاذا جئت بصفة مدح أو نحوها ثم جئت بعدها بأداة
استدراك توهم السامع أن ما بعد أداة الاستدراك مخرج من الصفة
الأولى وليس من قبيلها ، فاذا جاء على نمطها وشاذلتها تأكد المدح بمدح
آخر . مثال ذلك أن تقول : صديقي بحر في العلم لكنه جبن في الحلم ،
فقد أوهمت بالاستدراك أنك ستذكر عيبا في صديقك ، لكنك ذكرت مدحا
آخر ، فأكدت مدحك الأول بمدح ثان .

ومن هذا قول بديع الزمان الهمذاني :

هو البدر الا أنه البحر زاخر
سوى أنه الضرغام ، لكنه الويل

فالاستدراك بلكن يجرى مجرى الاستثناء بالا وسوى ، وعلى
هذا فالاستثناءان والاستدراك في هذا البيت من قبيل تأكيد المدح بما
يشبه الذم ، وهو من الضرب لثاني ، لان الشاعر أثبت صفة مدح ثم
عقبها بأداة استثناء جاء بعدها صفة مدح أخرى ، لذا جعلوا التأكيد

(٢٠) مواهب الفتاح ٣٩٤/٤ .

(٢١) انظر السابق .

فيه من الوجه اذى ذكروه فى الضرب الثانى ، وهو أنه مشعر بطلب
استدراك ذم ، فلم يجده فاضطر الى استدراك مدح ، فكان كلامه
مدحا على مدح •

ومثله قول ابن قلاقس :

هو الثغر الا أنه الفجر طالعا
على أنه الكافور لكنه البدر

ومثله قول السرى الرفاء :

أما ترى الثلج قد خاطت أنامه
ثوبا يزر على الدنيا بأزرار
نار ولكنها ليست بمبديية
نورا ، وماء ولكن ليس بالجارى

تأكيد الذم بما يشبه المدح

وهذا اللون عكس سابته ، وماض على منواله فى التقسيم
والفائدة ، فهو على أقسام ثلاثة :

الأول : أن يستثنى من صفة مدح منفية عن ائىء صفة ذم ثابتة
له بتقدير دخولها فى صفة المدح المنفية • كقولك : فلان لا خير فيه الا
أنه يسىء الى من أحسن اليه ، فنفيت عنه الخيرية ، ثم استثنيت صفة
ذم أخرى وهى اساءته الى من أحسن اليه ، ولما كانت الاساءة للمحسن
لا تدخل فى باب الخير بحال من الأحوال كان وجود الخير فيه محالا •
والتأكيد فيه حاصل من وجهين : وذلك لأنه كدعوى ائىء ببينة ، حيث
يلق وجود ائىء على محال • ولان الاستثناء يشعر بأن المتكلم طلب

صفة مدح مغايرة للذم السابق ، فلما لم يجدها استثني ذما ، فجاء
الكلام ذما على ذم على وجه أبلغ. (٢٢) •

ومن هذا قول الشاعر :

فان من لامنى لا خير فيه سوى
وصفى له بأخس الناس كلهم

فنفى الخير عن لامة ، واتى بالاستثناء موهما أن فيه صفة خير،
ولكنه أتى بصفة سوء ودم تؤكد عدم خيريته ، فأكد ذمه بدم آخر •

ومثله قول الآخر :

وظن السوء لا يأتى بنفع
سوى اشعان نار البغض فينا

فنفى عن ظن السوء أى نفع ، الا صفة يتوهم السامع في بادىء
الأمر أن فيها نفعاً ، وهى اشعال نار البغض ، ولما كان وجود النفع في
هذه الصفة محالاً كان وجود النفع في ظن السوء محالاً ، وبهذا تؤكد
ذمه •

ومن هذا قول الشاعر :

خلا من الفضل غير أنى
أراه في الحمق لا يجارى

فذمه أولاً بخلوه من الفضل ، وأكد ذمه بالحمق على نهج لطيف
كما أوضحنا في الأمثلة السابقة •

والثانى : أن يثبت للشئ صفة ذم ، وتعقب بأداة استثناء تليها

(٢٢) انظر مواهب الفتح ، وحاشية. الدموقى ٤/٣٩٦ •

صفة ذم أخرى • كقولك : للص خائن الا أنه جاهل • فوصفته أولا بالخيانة ، وأتيت بأداة الاستثناء فأشعرت السامع أنك ستثبت له صفة مدح بعدها ، ولكنك أثبت له صفة ذم ، فأكدت ذمك الأول له بضم آخر على نمط بليغ •

ومنه قون القائل :

هو الكذب الا أن فيه ملالة

وسوء مراعاة وما ذك في الكلب

فذمه اولاً بأنه الكلب لوّما وخسة ، ثم ذمه بعد أداة الاستثناء بما ليس في الكلب من صفات الذم ، فأنزله دركا سحيقا • والتأكيد في هذا الضرب من وجه واحد وهو أن الاستثناء مشعر بمجىء صفة مدح فتأتى صفة ذم ، وبذلك يتأكد الذم بضم آخر على وجه دقيق • ومنه قول الأخر :

لئيم الطبع سوى أنه

جبان يهون عليه الهوان

فذمه باللؤم ثم استثنى فأوهم أن فيه صفة مدح ولكن وصفه بالجبن فأكد بذلك ذمه الأول •

والثالث : أن يؤتى بمستثنى فيه معنى الذم معمولاً لفعل فيه معنى المدح ، ويكون الاستثناء حينئذ مفرغاً • كقولك : لا يستحسن منه الا جهله ، ولا يحمد منه الا لؤمه • ولا يشكر منه الا انكاره المعروف • فالاستثناء في كل هذا مفرغ ، والعامل صفة مدح منفية ، والمستثنى صفة ذم وبها يتأكد ذمه على نهج بليغ • والتأكيد في هذا الضرب يأتي من وجهين كالضرب الأول •

والاستدراك في هذا الباب كالاستثناء كما مر بك في الباب السابق،

ومنه قول الشاعر :

يا رسولا أعداؤه أراذل النا
س جميعا لكنهم في الجحيم

فأثبت لهم صفة ذم ثم استدرك بصفة ذم أخرى ، وهو من
الضرب الثاني •

وزاد بعضهم ضربا رابعا هو : أن يؤتى بصفة ذم مثبتة ثم بصفة
بعدها توهم رفع صفة الذم ، ثم يعلق بها ما يبين أنها ذم ، فتكون ذما
بعد ذم كقولك : رأيت عنق زيد عاطلا فحليته بانصع • فأثبت صفة
ذم وهي كونه عاطلا ، ثم أثبت تحليته فأوهمت رفع الذم ، فلما قلت :
بالصنع تبين أن هذه التحلية ذم آخر أكد الأول • ومنه قول الشاعر :

يا زاعما أنك لى ناصح
انى بهذا غير مغرور
لما بدا قببح الذى قلته
حسنك ذاك القول بالزور

والشاهد في البيت الثاني ، حيث ذمه أولا بقبح قوله ، ثم أثبت
تحسينه ، فأوهم زوال الذم ، ثم بين أن هذا التحسين تابع من قول
الزور ، فبين أنه ذم آخر تأكد به الذم الأول • وهذا الضرب أبلغ في
الذم لما فيه من التهكم والاستهزاء (٢٣) •

بلاغة تأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه :

علمت من خلال حديثنا عن ضروب هذين اللونين ما فيهما من تأكيد
وتقوية في اثبات المراد مدحا أو ذما أو غيرهما • وتبينت السر في افادتهما
التأكيد ، فبعض ضروبهما يفيد التأكيد من ناخيتين : أنه اثبات للشئ
ببينة وبهان ، بتعليق وجوده على المحال ، وأن النطق بأداة الاستثناء

يوهم أن ما بعدها مخرج مما قبلها ، ولكنه هنا يأتي من جنسه ، لذا يكون مؤكداً ومقرراً له ، فان كان مدحا تأكد المدح ، وان كان ذمياً تأكد الذم ، وبعض ضروبهما يفيد التأكيد من ناحية الاستثناء ، وعلى كل ففى الأسلوبين تأكيد وتقوية .

وفى هذين اللونين البديعيين طرف من الخداع وانخلاء، ومشمئتان على عنصر المفاجأة والمباغته ، فتأتى النتيجة فيهما غير متوقعة ، وعلى خلاف ما تفيد المقدمات ، وهذا يثير الفكر ، ويوقظ العقل ، ويشوق النفس ، ويدفع الى التأمل والتدبر ، والاندماج فى خبايا الأسلوب لكشف الحقيقة .

والأونان يساعدان على ربط الكلام ، ويعملان على تقوية أواصر العلاقة بين مفرداته من خلال الاستثناء الذى يجعل ما قبله شديداً الصلة بما بعده ، اذ بهما تكتمل الفائدة ، ويتحدد المراد .

واذا كان عنوان هذين اللونين يوحى بقصرهما على معانى المدح والذم الا أن التحقيق يبين عدم اقتصرهما على ذلك ، فبأنتيان فى كافة المعانى ، وقد نبه العلامة التفتازانى على هذا الأمر الدقيق ، فذكر أن هذه التسمية جارية على الأعم الأغلب ، والا فقد يكون ذلك فى غير المدح والذم ، ويكون من محسنات الكلام كقوله تعالى : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف » (٢٤) ، يعنى ان أمكن لكم أن تنكحوا ما قد سلف فانكحوه ، فلا يحل لكم غيره ، وذلك غير ممكن ، والغرض المبالغة فى تحريمه (٢٥) .

وبناء على هذا اختار التفتازانى أن يسمى تأكيد الشيء بما يشبهه

(٢٤) النساء آية ٢٢ .

(٢٥) المطول ٤٣٩ .

نقيضه ، وهي تسمية جديدة بالقبول ، لأنها تجمع اللونين تحت عنوان واحد ، تنضوي تحته معانى المدح والذم وغيرها •

ومن حديث البلاغيين عن هذين اللونين نراهم جعلوا الاستثناء عنصرا أساسيا فيهما ، الا أنه لا مانع من مجيئهما بغير أداة استثناء ، وقد مثل بعضهم لتأكيد ألذم بما يشبه المدح بقول ابن أبي الاصبغ (٢٦):

خير ما فيهم ولا خير فيهم
انهم غير مؤثمي المغتصاب

فنفي عنهم الخير وأثبت لهم صفة بادعاء أنها خير ، وهي أنهم لا ينكرون على من عاب أحداً في مجالسهم ولا يمنعونه عن ذلك ، وهي صفة لا خير فيها كذلك وبها تأكد ذمهم •

ويمكن أن يأتي هذا في تأكيد المدح بما يشبه الذم كأن تقول :
شر ما فيه ولا شر فيه كرمه الزائد • أو تقول : أعيب فيه ولا عيب فيه
صفحه عن المسيء • وبهذا تتسع دائرة التعبير في هذا الفن الخلاب •

الجناس

ويسمى المجانسة ، والتجنيس ، والتجانس • وهو مصدر جانس الدال على المشابهة والمشاكلة • وأقرب تعريف له عند البلاغيين : هو التشابه في اللفظ مع الاختلاف في المعنى • والجناس من الألوان التي عرفها البحث البلاغي في خطواته الأولى ، فذكره الخليل بن أحمد ، وألف الأصمعي كتاب الأجناس (١) ، وتحدث عنه ابن المعتز ضمن أبواب البديع الخمسة التي ذكرها وعرفه بقوله : أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام ، ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها ، وضرب له أمثلة كثيرة (٢) • وتواصل حديث البلاغيين عنه حتى قل أن يخلو كتاب قديم من الحديث عنه •

وللجناس أقسام مختلفة إليك بيانها :

ينقسم الجناس بداية إلى قسمين : تام ، وغير تام •

أولا — الجناس التام :

وهو ما اتفق فيه اللفظان في نوع الحروف ، وعددها ، وهيئتها ، وترتيبها • ومنه قوله تعالى : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة » (٣) ، فقد اتفق لفظا « ساعة » في الآية الكريمة في نوع الحروف ، وعددها ، وهيئتها ، وترتيبها ، واختلفا في المعنى • فالساعة الأولى بمعنى « القيامة » ، والثانية : الساعة الزمنية •

والجناس التام على ثلاثة أنواع : المماثل ، والمستوفى ، والمركب •

(١) البديع ٢٥ •

(٢) البديع ٢٥ — ٣٥ •

(٣) الروم آية ٥٥ •

فالمئات : أن يتفق اللفظان في نوع الكلمة بأن يكونا أسمين ،
أو فعلين ، أو حرفين ، فمثال الجناس بين اسمين الآية الكريمة السابقة ،
ومنه قوله تعالى : « يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ، يقلب الله الليل
والنهار ان في ذلك لعبرة لأولى الأبصار » (٤) • فالأبصار الأولى :
الأنظار ، والأبصار الثانية : العقول •

ومنه قول الشاعر :

حَدَقَ الآجَالِ آجَالِ وَالهُنَى لِلْمَرْءِ قَتَانِ

فالآجال الأولى جمع اجل بكسر فسكون وهو القطيع من البقر
الوحشى والثانية جمع اجل بفتح الهمزة والجيم وهو منتهى العمر •
والمراد أن عيون النساء الشبيهة بعيون البقر الوحشى جالبات
للموت •

ومنه قول أبى تمام :

إذا الخيل جابت قسطل الحرب صدعوا

صدور العوالى فى صدور الكتائب (٥)

والجناس بين لفظى : صدور ، وصدور ، فالأون بمعنى : أعالى ،
والثانى بمعنى : نحور • والمعنى : إذا الخيل دخلت غبار الحرب أمال
المحاربون أعالى الرماح فى نحور الكتائب المعادية •

ومثال الجناس بين فعلى قولك : الجندى يضرب فى البيداء فلا
يضل ، ويضرب فى الهيجاء فلا يكل • فيضرب الأولى بمعنى يقطع
ويسير ، والثانية بمعنى يحمل على الأعداء • ومنه قولك : لما قال لديهم
قال لهم • فالأول من القبولة ، والثانى من القول •

(٤) النور آية ٤٣ ، ٤٤ •

(٥) قسطل الحرب : غبارها ، صدعوا : أمالوا • صدور العوالى :

أعالى الرماح • صدور الكتائب : نحورها •

ومنه قول الشاعر :

يا اخوتى منذ بانى النجب
وجب الفؤاد وكان لا يجب
فارقتمكم وبقيت بعدكم
ما هكذا كان الذى يجب .

والجناس بين يجب ويجب ، فالأولى بمعنى يضرب ويخفق ،
والثانية بمعنى يلزم •

ومنه قول الشاعر فى ذم من يتعاطى قون الشعر وليس بشاعر

والمعدمون من الابداع قد كثروا
وهم تليلون ان عدوا وان حصروا
قوم لو انهم ارتاضوا لما قرضوا
أو أنهم شعروا بالنقص ما شعروا

والجناس بين شعروا وشعروا ، فالأولى بمعنى : أحسوا ، والثانية
بمعنى لم يقولوا الشعر •

والجناس بين حرفين مختلف فى وروده ، فبعضهم يرى أنه لا يمكن
تصوره لان الحروف معلومة الصيغ مضبوطة ، فلا يتفق ورود كلمتين
من الحروف قد تساوت حروفهما وصيغتهما مع الاختلاف فى المعنى (٦) •

وبعضهم يرى امكان وجوده بين معانى الحرف الواحد ، حيث
ان الحرف الواحد يأتى بمعان متعددة ومنه قولهم : قد وجود الكريم
وقد يعثر الجواد ، فان قد الأولى للتكثير ، والثانية للتقليل ، ومنه
قولهم تذرع بالصبر تظفر به ، فالباء الأولى للتعدية ، والثانية للسببية •

(٦) جنان الجناس ٢١٠ •

وعلى كل فهذه الصورة من الجناس لا ضرورة لها ، فأمثلتها نادرة
ومتكافئة غالباً .

والمستوفى : أن يختلف اللفظان في نوع الكلمة بأن يكون أحدهما
اسماً والآخر فعلاً أو أحدهما حرفاً والآخر اسماً أو فعلاً .

فمثال الاسم مع الفعل قول أبي تمام :

ما مات من كرم الزمان فانه

يحيا لدى يحيى بن عبد الله

فيحيا : فعن مضارع ، ويحيى : اسم الممدوح .

ومثله قول الآخر :

وسميته يحيى ليحيا فلم يكن

الى رد أمر الله فيه سبيل

ومنه قول الغزى :

لو زارنا طيف ذات الخاء أحيانا

ونحن فى حفر الأجدات أحيانا

ومنه قول الآخر :

دهرنا أمسى ضنينا باللقا حتى ضنينا

يا ليالى الوصل عودى واجمعينا اجمعينا

ومثال الفعل مع الحرف قولك : علا محمد صلى الله عليه وسام على

جميع الأنام . فعلا : فعل ماض بمعنى ارتفع ، وعلى : حرف جر .

ومنه قول الشاعر :

ولو أن وصلا علوه بقربه

لأ أن من حمل الصبابة والجوى

فإن الأولى : حرف ينصب الاسم ويرفع الخبر • وأن الثانية : فعل ماض من الأتئين • ومثال الاسم مع الحرف قوله صلى الله عليه وسلم : انك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله تعالى الا أجرت بها حتى ما تجعل في فم امرأتك • • ففى الأولى حرف جر ، والثانية اسم بمعنى الفم •

وهذا النوع والذي قبله من الأنواع النادرة فى الاساليب الادبية •

والمركب : أن يكون كلا اللفظين أو أحدهما مركبا ويسمى جناس التركيب • وهو على قسمين :

١ — أن يكون أحد اللفظين مركبا •

٢ — أن يكون اللفظان مركبين •

القسم الأول : ما كان أحد اللفظين مركبا وهو على ثلاثة أنواع مرفوع ، ومنتشابه ، ومفروق •

فالرفوع : ما كان اللفظ المركب فيه مركبا من كلمة وجزء كلمة • كما فى قول الحريرى :

ولا تله عن تذكار ذنبك وابكه

بدمع يحاكى الوبل حال مصابه

ومثل لعينك الحمام ووقعه

وروعة ملقاة ومطعم صابه

والجناس بين : مصابه فى نهاية ابيتين ، والأول لفظ مفرد ، من صاب المطر اذا انصب ، والثانى لفظ مركب من الليم فى نهاية لفظ « مطعم » وصاب وهو شجر مر شديد الحرارة •

والمنتشابه : ما كان اللفظ المركب فيه مركبا من كلمتين مع تشابه اللفظين فى الخط ، كما فى قول الشاعر :

إذا ملك لم يكن ذاهبة
فدعه فدولته ذاهبة

فاللفظ الأول مركب من كلمتين هما : ذا بمعنى صاحب و « هبه »
بمعنى عطاء ، واللفظ الثاني مفرد وهو اسم فاعل من ذهب وهما
متشابهان في الخط .

والمفروق : ما كان اللفظ المركب فيه مركبا من كلمتين مع اختلاف
اللفظين في الخط كما في قول الشاعر :

كلكم قد أخذ الجا م ولا جام لنا
ما الذي ضر مدير الـ جام لو جاملنا

فلفظ « جام لنا » في البيت الأول مركب من كلمتين : « جام » بمعنى
كأس ، و « لنا » جار ومجرور ولفظ « جامنا » في البيت الثاني مفرد
وهو فعل ماض من المجاملة واللفظان مختلفان في الخط . ومدير الجام
هو الساقى .

ومنه قول الشاعر :

لا تعرض على الرواة قصيدة
ما أم تكن بالغت في تهذيها
فاذا عرضت الشعر غير مهذب
عدوه منك وساوسا تهذى بها

فلفظ « تهذيها » في البيت الأول مفرد ، وهو مصدر هذب والضمير
مضاف إليه بمثابة جزء منه . ولفظ « تهذى بها » في البيت الثاني
مركب من كلمتين « تهذى » فعل مضارع من الهذيان و « بها » جار
ومجرور وقد اختلف اللفظان في الخط .

والقسم الثانى من المركب : هو ما كان اللفظان مركبين من كلمتين
أو كلمة وبعض كلمة أخرى ويسمى هذا النوع : الملقق •

والجناس الملقق على ضربين :

١ — ملقق موافق وهو ما توافق طرفاه فى الخط مع كونهما مركبين
كقول الشاعر :

وليت الحكم خمسا بعد خمس
لعمري والصبا فى العنقوان
فلم تضع الأعدى قدر ثمانى
ولا قالوا فلان قد رثمانى

فقوله : « قدر ثمانى » الأول مركب من القدر والثمان ، والثانى
مركب من « قد » والفعل الماضى « رشى » من الرشوة وهما متفقان
فى الخط •

٢ — ملقق مفارق : وهو ما اختلف طرفاه فى الخط مع كونهما
مركبين كقول الشاعر :

خبروها بأنه ما تصدى لسلو عنها ولو مات صدا

فقوله : « ما تصدى » مركب من « ما » النافية والفعل الماضى
« تصدى » بمعنى تعرض ، و « مات صدا » مركب من « مات » وهو
فعل ماض و « صدا » وهو اسم ، وهما مختلفان فى الخط •

وبهذا ينتهى حديثنا عن الجناس التام وأقسامه .

ثانياً — الجناس غير التام .

هو ما اختلف فيه اللفظان فى نوع الحروف ، أو عددها ، أو هيئتها ،
أو ترتيبها • وعلى هذا فله أربعة أحوال :

١ — الاختلاف في نوع الحروف :

إذا اختلف اللفظان في نوع الحروف كان الجناس على نوعين :
سارِع ولاحق •

فالمضارع : ما كان فيه الحرفان المختلفان متقاربين في المخرج
وإاء أكانا في أول اللفظ أو في وسطه أو في آخره •

فالأول كقول الحريري : بينى وبين كنى ليل داس ، وطريق
امس (٧) ، فالدال في داس والطاء في طامس متقاربتان في المخرج
نهما خارجتان من اللسان •

والثاني كقوله تعالى : « وهم ينهون عنه وينأون عنه » (٨) ،
لهاء في ينهون ، والهمزة في ينأون من الحروف الحلقية •

والثالث كقول النبي صلى الله عليه وسلم : « الخين معقود
وأصيها الخير » فاللام في الخيل والراء في الخير يخرجان من
لسان •

ومنه قول الشاعر :

وأطعن للقرن يوم الوغى
وأطعم في الزمن الماحل

فجانس بين أطعن وأطعم ، وهما صيغتا تفضيل على أفعل ،
النون والميم متقاربان في المخرج (٩) •

(٧) المكن بكسر الكاف : المنزل ، وداس : مظلم ، وطامس : داس ،
مرح المقامات ٨٧/٢ •

(٨) الأتبعام آية ٢٦ •

(٩) البديع من المعاني والألفاظ ١١١ •

واللاحق : ما كان فيه الحرفان المختلفان متباعدين في المخرج
سواء أكانا في أول اللفظ أو في وسطه أو في آخره .

فالأول كقوله تعالى « ويك لكل همزة لمزة » (١٠) ، فالهاء واللام
متباعدتان في المخرج فالأولى حلقيه والثانية لسانية .

ومنه قول الشاعر :

هل للفتى من بنات الدهر من واق
أم هل له من حمام الموت من راق

فالواو في « واق » والراء في « راق » متباعدتان في المخرج .

والثاني كقوله تعالى : « وانه على ذلك لشهيد ، وانه لحب الخير
لشديد » (١١) ، فبين الهاء في « شهيد » والداو في « شديد » تباعد في
المخرج . والثالث كقوله تعالى : « واذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف
أذاعوا به » (١٢) ، فبين الراء في « أمر » والنون في « أمن » تباعد
في المخرج .

ومنه قول البحترى :

هل لما فات من تلاق تلاف
أم لشاك من الصبابة شاف

فبين القاف في « تلاق » والفاء من « تلاف » تباعد في المخرج .

٢ - الاختلاف في عدد الحروف :

إذا اختلف اللفظان في عدد الحروف سمي « الجناس
الناقص » لنقصان أحد اللفظين عن الآخر ويكون ذلك على وجهين :

-
- ١٠) الهمزة آية ١ .
 - ١١) العاديات آية ٧ ، ٨ .
 - ١٢) النساء آية ٨٣ .

أحدهما : أن يختلفا بزيادة حرف واحد ، وهذا الحرف قد يكون في أول الكلمة كقوله تعالى : « والتفت الساق بالساق انى ربك يومئذ المساق » (١٣) ، فبين الساق والمساق جناس ناقص بزيادة الميم في أول كلمة « المساق » .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « لايمان يمان » فالاختلاف بينهما بزيادة الهمزة في أول الكلمة الأولى .

وقد سمي بعضهم هذا النوع : « المردوف » لان حرف الزيادة مردوف بما وقع فيه التجانس (١٤) ، وأصحاب البديعيات يسمونه « المطرف » (١٥) .

وقد يكون الحرف الزائد في وسط الكلمة كقوله صلى الله عليه وسلم : « الشيطان ذئب الانسان كذئب الغنم يأخذ الشاة المشاة » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « ما أنزل الله داء الا أنزل له دواء » ، وكقولهم : جدى جهدى ، ويسمى هذا النوع « المكتف » لان حرف الزيادة فيه مكتف أى متوسط بين ما اكتفاه (١٦) .

وقد يكون الحرف الزائد في آخر الكلمة وسماه الخطيب « المطرف » ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « من أوى ضالة فهو ضال » .

ومنه قول أبى تمام :

يمدون من أيد عواص عواصم

تصول بأسياف قواض قواضب (١٧)

(١٣) القيلامة آية ٢٩ ، ٣٠ .

(١٤) شرح عقود الجمان ١٦٤/٢ .

(١٥) خزنة الأدب ٨٤١/١ .

(١٦) شرح عقود الجمان ١٧١/٢ .

(١٧) عواض : جمع عاصية من عصاه اذا ضربه بالعصا ، أى : ضاربات بالعصا والمراد بها هنا السيف ، وعواصم من عصمه حفظه وحماه

وقول البحتري :

لئن صدفت عنا فريت أنفس
صواد الى تلك النفوس الصوادف

وقول كعب بن زهير :

ولقد علمت وأنت خير عليمه
ألا يقربني الهوى لهوان

وثانيهما : أن يختلفا بزيادة أكثر من حرف *

وهذه الزيادة قد تكون في أول الكلمة ويسمى « المتوج » ومنه
قوله صلى الله عليه وسلم : « في الحبة السوداء الشفاء من كل داء »
وقوله صلى الله عليه وسلم : « ضع بصرک موضع سجودك » *

ومنه قول البستي :

أبا العباس لا تحسب بأني
بشيء من حلى الأشعار عارى
فلى طبع كسلسال معين
زال من ذرى الأحجار جارى

والجناس بين « أحجار ، وجار » *

وقد تكون الزيادة في وسط الكلمة ويسمى « الزائد » ومنه قواهم
بناء المساجد مجد خالد *

= أى : حاميات للأولياء ، وقواض : قوائل ، وقواضب : قاطعة ، جمع
قاضبة من قضبه اذا قطعه . والمعنى : يمدون أيديها ضاربات للأعداء ،
حاميات للأولياء ، صائلات بسبوف قاتلة قاطعة .

وقد تكون الزيادة في آخر الكلمة وهو كثير في الاسانيب الأدبية
ويسمى « المذيل » ومنه قول الخنساء :

ان البكاء هو الشفا ء من الجوى بين الجوانح

وقول حسان بن ثابت :

وكنا متى يغز النبي قبيلة

نصل جانيه بالقنا واقنابل (١٨)

ومنه قول الشاعر :

فيالك من حزم وعزم طواهما

جديد الردى تحت الصفا والصفائح

ومنه قول النابغة :

لها نار جن بعد انس تحولوا

وزان بهم صرف النوى والنوائب

ووجه الحسن في « المذيل » وما سماه الخطيب « المطرف » أن
السامع يتوهم قبل سماع آخر الكلمة التي فيها الزيادة أنها هي الكلمة
التي مضت وقد جاء بها المتكلم للتأكيد ولكنه بعد أن ترد عليه ويتمكن
آخرها في نفسه ويعيه سمعه ينصرف عنه هذا التوهم ويعرف أنه قد
حصل على فائدة جديدة ومعنى لم يرد عليه فيمكن في نفسه فضل
تمكن : ومن ثم كان هذان اللونان من أهم صور الجناس •

(١٨) القنابل جمع قنبلة بفتح القاف وهي الطائفة من الخيل ومن
الناس ، والمعنى : عندما يغزو النبي جماعة نلتف حوله بخيلنا وسلاحنا
ذائدين مدافعين . شرح ديوان حسان ٣٦٨ •

٣ — الاختلاف في هيئة الحروف :

إذا اختلفت اللفظان في هيئة الحروف كان الجناس على نوعين
محرف ومصحف •

فالمحرف : ما اختلف فيه اللفظان في الحركات والسكنات ، كقوله
تعالى : « ولقد أرسلنا فيهم منذرين ، فانظر كيف كان عاقبة
المنذرين » (١٩) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « ان الله وملائكته يصلون
على الذين يصلون الصوف » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « ما حسن
الله خلق رجل ولا خلقه فتطعمه النار » •

ومنه قولهم : البدعة شرك الشرك •

ومنه قول أبي تمام :

عن الحمام فان كسرت عيافة
من حائهن فانهن حمام (٢٠)

ومنه قول أبي العلاء :

والحسن يظهر في شيئين رونقه
بيت من الشعر أو بيت من الشعر

واختلاف الحروف بالتخفيف والتشديد يدخل في هذا القسم
وذلك كقولهم : الجاهل اما مفرط أو مفرط •

ولا اعتبار باختلاف الحرف الأخير في حركات الاعراب بسبب
العوامل وانما المعتبر حركة ما قبل الحرف الأخير من حروف •

(١٩) الصافات آية ٧٢ ، ٧٣ •

(٢٠) عيافة : من تولهم : عنت الطير أعينها عيافة : زجرتها ، وكانوا
يتفاطون أو يتشاعرون على حسب الأماكن والاتجاهات التي تطير إليها •

والمصحف : ما اختلف فيه اللفظان في نقط الحروف ، وبعضهم يسميه جناس الخط ، ومنه قوله تعالى : « والذى هو يطعمنى ويسقئنى واذا مرضت فهو يشفين » والجناس بين : يسقين ويشفين •

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا » ، والجناس المصحف هنا بين : يسروا وبشروا •

ومنه قول على كرم الله وجهه : قصر ثوبك فانه أتقى وأنقى وأبقى •

ومنه قول الشاعر :

من بحر جودك أغترف وبفيض علمك اعترف

ومنه قول البحترى :

ولم يكن المغتر بالله اذ سرى
ليعجز والمعتز بالله طالبه

ويرجع بعض الباحثين جناس التصحيف الى جناس المضارعة وذلك لان اختلاف الحروف في النقط ناتج من اختلافها في النوع (٢١) •

ولنا في هذا نظر نوضحه فنقول : ان الجناس المصحف يرجع الى المضارع اذا تقاربت الحروف المختلفة في المخرج ويرجع الى اللاحق اذا تباعدت في المخرج •

ومع هذا فبينهما فرق يتضح فيما يلى :

أن المضارع واللاحق يتحققان باختلاف نوع الحرفين فقط دون نظر الى مسألة النقط •

ومن ثم يوجد المضارع أو اللاحق والحرفان المختلفان منقوطان
كقول الحريري : لإ أعطى زمامى لمن يحفز زمامى فالاختلاف فى الزاى
والذال وهما منقوطان •

ويوجدان والحرفان غير منقوتين كقوله صلى الله عليه وسلم :
« الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة » • فالاختلاف فى
اللام والراء وهما غير منقوتين •

ويوجدان والحرفان مختلفان كقوله تعالى : « ذاكم بما كنتم
تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفرحون » (٢٢) ، فالجناس
بين تفرحون وتفرحون وهما مختلفان فى الفاء والميم وأولهما منقوط
وثانيهما غير منقوط •

أما الجناس المصحف فيتحقق بالاختلاف فى النقط مع لزوم
التشابه فى الرسم بحيث إذا زال النقط اتحدت صورة الحرفين •

ومن ثم فلا يأتى المصحف إلا فى الحروف التى يتشابه رسمها
وتختلف من حيث النقط فقط كالأدال والذان والزاى والراء ، والسين
والشين ، والصاد والضاد ، والعين والغين وهكذا •

وعلى هذا فالجناس المصحف أخص من المضارع واللاحق •

٤ — الاختلاف فى ترتيب الحروف :

إذا اختلف اللفظان فى ترتيب الحروف سمي : جناس القلب ، وهو
على نوعين :

الأول : قلب الكل وهو ما اختلف فيه ترتيب كل الحروف كقولهم
حسامه فتح لأوليائه حتف لأعدائه ومنه قول الشاعر :

حسامك فيه للأحباب فتح
ورمحك فيه للأعداء يخفق

ومنه قول الشاعر :

ساق يرينى قلبه قسوة وكن ساق قلبه قاس

فالجnas بين ساق وقاس ، وهذا قاب للكل •

وفي لفظ « قلبه » تورية ومعناه القريب : قلب الانسان وهو غير
مراد ومعناه البعيد قلب حروف كلمة ساق وبذلك تصبح قاس وهذا
هو المراد •

والثانى : قلب بعض الحروف وهو ما اختلف فيه ترتيب بعض
الحروف ، كما فى قوله تعالى : « فرقت بين بنى اسرائيل » (٢٣) ،
والجناس فى : بين بنى وهما مختلفان فى ترتيب بعض الحروف •

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم استر عوراتنا وآمن
روعاتنا » •

ومنه قول المتنبى :

منعمة ممنعة رداح يكف لفظها الطير الوقوعا

ومنه قول عبد الله بن رواحه يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم :

تحمله الناقة الأدماء معجرا

بالبرد كالبرد جلى نوره الظلما

أنواع أخرى من الجناس :

١ - الجناس المزدوج :

وهو ما توالى فيه المتجانسان ويسمى المكرر والردد . كقوله
تعالى : « وجئتك من سبأ نبأً يقين » (٢٤) ، وقوله صلى الله عليه وسلم :
« المؤمنون هيئون لينون » .

ومنه قول البحتري :

من كل ساجى الطرف أعيد أعيدي

ومنه قولهم : من جد وجد ، ومن لج ولج .

٢ - الجناس المجنح :

وجعته الخطيب نوعاً من جناس القلب وسماه المقلوب المجنح :
وهو أن يقع أحد المتجانسين جناس القلب في أول البيت والآخر في
آخيره .

ومنه قول الشاعر :

لأج أنوار الهدى من كفه في كل حال

والجناس بين « لاج و حال » .

ومنه قول الشاعر :

رمت فؤادي غداة ما كنت أحسبها تضر

ردت رسولاً خائباً فهدامع أبصاره تضر

(٢٤) النمل آية ٢٢ :

والجناس في البيت الأول بين : « رضى و تضر » وفي البيت الثانى
بين « ردت و قدر » •

واعترض البهاء السبكى على تخصيص الخطيب هذا النوع بجناس
القلب وتسميته له : المقلوب المجنح • وقال : ان تسميته مقلوبا لكونه
جناس قلب وتسميته مجنحا لكون كلمتى الجناس فيه واقعتين فى جناحى
البيت فلا بدع أن يسمى الجناس التام وغيره من الأقسام السابقة :
تاما مجنحا وكذلك جميع الأقسام : (٢٥) •

وهو اعتراض له وجاهته • ومن ثم ينبغى أن يكون الجناس المجنح
لونا قائما بذاته يوجد فى أى نوع من أنواع الجناس ولا يختص
بالمقلوب ومن التام المجنح قول الشاعر :

قالت جهدت أما لنا من راحة
فالحر يشوى والخلائق قالت

٣ — جناس الاشتقاق :

وهو ما يجتمع فيه اللفظان فى أصل الاشتقاق كقوله تعالى :
« فأقم وجهك للدين القيم » (٢٦) وقوله تعالى « فروح وريحان » (٢٧)
وقوله صلى الله عليه وسلم « انظلم ظلمات يوم القيامة » •

ومنه قول الشافعى رضى الله عنه وقد سئل عن النبيذ : أجمع أهل
الحرمين على تحريمه •

ومنه قول البحتورى :
يعشى عن المجد الغيبى ولن ترى
فى سؤدد أربيا لغير أريب..

(٢٥) شروح التلخيص ٤/٢٩٩ •
(٢٦) الروم آية ٢٠ •
(٢٧) الواقعة آية ٨٩ •

وقول محمد بن وهيب :

قسمت صرف الدهر بأسا ونائلا
فمالك موتور وسيفك واتر

وقول البهاء زهير :

بعزمه مأمور مطيع وأمر
مطاع فلا يلقى لحزمهم مثل

٤ — جناس المشابهة :

ويسمى جناس الأطلاق ، وإيهام الاشتقاق ، وهو ما يجتمع فيه
اللفظان في المشابهة فقط دون الاشتقاق . كقوله تعالى : « اناقلتم الى
الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة » (٢٨) ، وقوله تعالى :
« وجنى الجنتين دان » (٢٩) ، وقوله تعالى : « قال انى لعمركم من
القالين » (٣٠) .

ومنه قول البحتري :

وإذا ما رياح جودك هبت
صار قول العذول فيها هباء

وللجناس صور أخرى تفنن فيها أصحاب البديعيات (٣١) ،
وأغلبها متكاف مصنوع ولا خير في التعرض لها . فكفانا هذا القدر من
صور الجناس وأنواعه .

(٢٨) التيسير في التيسير ٣٨ .
(٢٩) الرحمن آية ٥٤ .
(٣٠) الشعراء آية ١٦٨ .
(٣١) ينظر شرح عقود الجناس ١٧٢/٢ .

بلاغة الجناس :

لا يكون الجناس مقبولا عند البلاغيين الا اذا جاء مطبوعا غير متكلف ولا مصنوع وكان المعنى يقتضيه والمقام يستدعيه وله اثر جليل في الاسلوب لا يتحقق بدونه ، فاذا خرج عن هذا الحد كان مجرد تلاعب بالألفاظ وأصبح ممجوجا مكروها • وقد يؤدي الى تعقيد الكلام واخراجه عن نطاق الفصاحة •

وقد فصل الامام عبد القاهر القول في بلاغة الجناس وبيان سر الحسن في هذا الفن البديعي وذلك في مقدمة كتابه « اسرار البلاغة » ومن الخير أن نعرض عليك ما ذكره في هذا الموضوع ، لتتأمل من ورده العذب وتقف من خلال حديثه على سر بلاغة التجنيس •

يقول عبد القاهر (٣٢) : أما التجنيس فأنك لا تستحسن تجانس اللفظتين الا اذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميدا ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا ، أترك استضعفت تجنيس أبي تمام في قوله :

ذهبت بمذهبه السماحة فانتوت

فيه الظنون أمذهب أم مذهب (٣٣)

واستحسن تجنيس القائل : حتى نجا من خوفه وما نجا (٣٤) ، وقول المحدث :

(٣٢) ينظر هذا النص كاملا في اسرار البلاغة ٤ - ١٢ •
(٣٣) مذهبه : طريقته ، أي غلبت عليه السماحة ، كما يقال : ذهب فلان بالمجد أي بهازه . والتوت فيه الظنون : اختلفت ولم تحقق شيئا واحدا ، ومذهب الأولى بفتح الميم : الطريقة ، ومذهب الثانية بضم الميم أي أنجون ، أو الوهم . شرح ديوان أبي تمام ١/ ١٣٠ •
(٣٤) نجا الأول من النجو وهو ما يخرج من البطن من الغائط ، والثاني من اللجساة •

ناظرا فيما جنى ناظرا
أو دعاني أمت بما أودعاني

لأمر يرجع إلى اللفظ؟ أم لأنك ريت الفائدة، ضعفت عن الأول وقويت في الثاني؟ ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب، على أن أسمعك حروفا مكررة، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكثرة، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخذعك عن الفائدة وقد أعطاها ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفأها فبهذه السريرة صار التجنيس وخصوصا المستوفى منه المتفق في الصورة من حلى الشعر، ومذكورا في البديع •

فقد تبين لك أن ما يعطى التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به، وذلك أن المعاني لا تدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه، إذ الألفاظ خدم المعاني والمصرفة في حكمها، وكانت المعاني هي المالكة سياستها المستحقة طاعتها، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته، وأحاله عن طبيعته، وذلك مظنه من الاستكراه، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض لاشين •

وعلى الجملة فانك لا تجد تجنيسا مقبولا ولا سجعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغى به بدلا، ولا تجد عنه حولا، ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه وأحقه بالحسن وأولاه، بما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه، وتأهب لطلبه، أو لما هو أحسن ملاءمته — وإن كان مطلوبا — بهذه المنزلة وفي هذه الصورة •

وإن تجد أيمن طائرا، وأحسن أولادها، وأفضلهم، إلى

الاحسان ، وأجلب للاستحسان ، من أن ترس المعانى على سجيبتها ،
وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ . فانها اذا تركت وما تريد لم تكتس الا
ما يليق بها ، ولم تلبس من المعارض الا ما يزينها ، فأما أن تضع في
نفسك أنه لا بد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذى
أنت منه بعرض الاستكراه ، وعلى خطر من الخطأ والوقوع فى الذم ،
فان ساعدك الجد . . . فذاك ، والا أطلقت أنسنة العيب ، وأفضى
بك طلب الاحسان من حيث لم يحسن الطلب الى أفحش الاساءة
وأكبر الذنب . . .

واعلم أن النكتة التى ذكرتها فى التجنيس ، وجعلتها العلة فى
استيجابه الفضيلة وهى حسن الافادة ، مع أن الصورة صورة التكرير
والاعادة وان كانت لا تظهر الظهور التام الذى لا يمكن دفعه الا فى
المستوفى المتفق الصورة منه كقوله :

ما مات من كرم الزمان فانه

يحيا لدى يحيى بن عبيد الله

أو المرفو الجارى هذا المجرى كقوله : أو دعانى أمت بما أودعانى،
فقد يتصور فى غير ذلك من أقسامه أيضا فمما يظهر ذاك فيه ما كان
نحو قول أبى تمام :

يمدون من أيد عواص عواصم

تصول بأسياف قواص قواضب

وقول البحترى :

لئن صدفت عنا فربت أنفس

منواد الى تلك النفوس الضواذب . . .

وذلك أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة كاليم من عواصم
والهاء من قواضب أنها هى التى مضت ، وقد أراديتي أن تجعلك ثانية ،

وتعود اليك مؤكدة ، حتى اذا تمكن في نفسك تمامها ، ووعى سمعك
آخرها انصرفت عن ظنك الأول ، وزلت عن الذى سبق من التخيل ،
وفي ذلك ما ذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يطانك اليأس منها ،
وحصون الربح بعد أن تغالط فيه ، حتى ترى أنه رأس المال • فأما ما
يقع التجانس فيه على العكس من هذا وذلك أن تختلف الكلمات من
أولها كقول البحتري :

بسيوف ايماضها أوجال للأعدى ووقعها آجال

وكذا قول المتأخر :

وكم سبقت منه الى عوارف
ثنانى من تلك العوارف وارف
وكم غرر من بره ولطائف
لشكرى على تلك اللطائف طائف

وذلك أن زيادة عوارف على وارف بحرف اختلاف من مبدأ الكلمة
في الجملة فانه لا يبعد كل البعد عن اعتراض طرف من هذا التخيل
فيه ، وان كان لا يقوى تلك القوة ، كأنك ترى أن اللفظة أعيدت عليك
مبدلا من بعض حروفها غيره ، أو محذوفا منها •

وبهذا بين الشيخ عبد القاهر مقياس حسن الجناس ، وفائدته •
فالجناس لا يكون حسنا مقبولا الا اذا جاء مطبوعا غير متكلف ، وكان
المعنى هو الذى طلبه وقاد اليه •

وفائدة الجناس عنده تتمث في حسن الافادة مع أن الصورة
صورة التكرير والاعادة ، فهو فن خادع موهم ، تشعر من خلاله أن
الكلم قد أعاد عليك اللفظة كأنه يقصدك عن الفائدة وقد أعطاه ، ويوهمك
كأنه لم يزدك شيئا وقد أحسن الزيادة ووفاه • وهذه الفائدة تظهر في
بعض أنواعه قوية جليلة ، ولا تخلو أنواعه الأخرى من وجودها •

وللجناس أثر جلى فى تشويق النفس ، وتنشيط الفكر ، للوقوف على المراد من اللفظين المتشابهين ، وهذا أذعى إلى تثبيته وتأكيدده فى الذهن بعد معرفته • وجاء فى جوهر لكثر عن فائدة الجناس : ان تشابه ألفاظ التجنيس تحدث بالسمع ميلا إليه ، فان النفس تتشوق إلى سماع اللفظة الواحدة اذا كانت بمعنيين ، وتتشوق إلى استخراج المعنيين المشتمل عليهما ذاك اللفظ ، فصر للتجنيس وقع فى النفوس وفائدته (٣٥) •

والجناس من أسباب تلاحم الاسلوب وترابطه • لما بين طرفيه من المماثلة الشكلية ، وله وقع موسيقى ملحوظ ، يجعل الاسلوب مميزا وذا أثر قوى فى النفس •

* * *

الفصل الثالث

فنون الاجمال والتفصيل

يدور البحث في هذا الفصل حول بعض الفنون ابداعية التي تقوم على الاجمال والتفصيل ، والابهام ، والايضاح ، والجمع والتفريق ، وما أشبه ذلك .

وفي هذه الفنون يتم عرض المعنى في صورتين مختلفتين ، مجملة ومفصلة ، أو مجموعة ومفرقة ، مما يفخم المعنى ويؤكد ، وبثير الانتباه نحوه ويشوق اليه .

والفنون التي سنتناولها بالبحث هي : اللف والنشر ، والجمع ، والتفريق ، والتقسيم ، والجمع مع التفريق ، والجمع مع التقسيم ، والجمع مع التفريق والتقسيم .

وهي فنون أصيلة داخلة في صميم البلاغة ، ومنها ما له نظير بحثه البلاغيون في باب الاطناب حيث جعلوا من أنواعه الايضاح بعد الابهام ، والتوشيح ، ولا يبعدان كثيرا عما نحن بصدد الحديث عنه في هذا الفصل .

الف والنشر

الف لغة الضم والجمع ، والنشر عكسه وهو البسط والتفريق .
واللف والنشر عند لبلاغيين : ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الاجمال ،
ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين ، ثقة بأن السامع يرده اليه (١) .

وقولهم من غير تعيين أى من غير أن يعين لشيء مما ذكر أولا ما
هو له مما ذكر ثانيا ، وهذا قيد في التعريف يخرج ما كان معينا ، فهو
من باب التقسيم ، وليس من هذا الباب . وترك التعيين يكون من أجل
الوثوق بأن السامع يرد الى كل ما هو له بناء على القرينة . وهى تكون
لفظية كقولك : رأيت زيدا وهندا ضاحكا وعابسة ، فتأنيث عابسة
قرينة لفظية على أنها راجعة الى هند . وتكون معنوية كقولك : لقيت
الصاحب والعدو فأكرمت وأهنت ، فالقرينة هنا معنوية ، وهى أن
المستحق للاكرام الصاحب ، وللأهانة العدو .

واللف والنشر على قسمين — مفصل ومجمل :

١ — المفصل : وهو ما ذكر فيه المتعدد على سبيل التفصيل وهو
ضربان :

الأول : المرتب : وهو ما جاء النشر فيه على ترتيب اللف ، ومنه
قوله تعالى : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا
من فضله ولعلكم تشكرون » (٢) ، فذكر في الآية الليل والنهار مفصلان ،
ثم ذكر فائدة كل منهما على الترتيب من غير تعيين ، فإسكون يرجع الى
الليل لان فيه الراحة والنوم ، وابتغاء الفضل يرجع الى النهار لان فيه
السعى والكدح . والضمير في « فيه » وان كان يعود الى الليل الا أنه

(١) الايضاح ٤٢/٦ .

(٢) القصص آية ٧٣ .

بحسب ظاهر اللفظ يحتمل أن يكون ليل والنهار ، وهذا الاحتمان كاف في عدم التعيين ، فلا تكون الآية من قبيل التقسيم .

قال الزمخشري : زأوج بين الليل والنهار الأغراض ثلاثة : لتسكنوا في أحدها وهو الليل ، ولتبتغوا من فضل الله في الآخر وهو النهار ، ولإرادة شكركم ، وقد سلكت بهذه الآية طريقة اللف في تكرير التوبيخ باتخاذ اشركاء ، ايذانا بأن لا شيء أجلب لغضب الله من الاشرار به ، كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيدده (٣) .

ومنه قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » (٤) ، فاللوم راجع الى البخل ، ومحسورا راجع الى الاسراف ، لان معناه منقطعا لا شيء عندك (٥) .

ومنه قول ابن الرومي :

أراؤكم ووجوههم وسيوفكم
في الحادثات اذا دجون نجوم
فيها معالم لهدى ومصابيح
تجاو الدجى والأخريات نجوم

فعدد ثلاثة أشياء مفصلة هي : الآراء والوجوه والسيوف ، ثم ذكر ما يرجع الى ك واحد منها على الترتيب ، فمعالم للهدى للآراء ، ومصابيح تجلو الدجى للوجوه ، والنجوم للسيوف . وبجانب هذا تجد في البيت الأول فنا بديعيا آخر هو الجمع ، حيث جمع بين الأتسياء الثلاثة المذكورة في حكم واحد هو أنها نجوم في ظلام الحادثات . وللبياه السبكي في التمثيل بقول ابن الرومي نظر من وجوه لا يحتمل المقام ذكرها (٦) .

(٣) الكشاف ١٨٩/٣ .

(٤) الاسراء آية ٢٩ .

(٥) معترك الاقربان ٤١٠/١ .

(٦) انظر عروس الأعراس ٣٣٠/٤ ، ٣٣١ :

ومنه قول أبي الطيب .

ان كوتبوا أو لقوا أو حوزبوا وجدوا
في الخط واللفظ والهجاء فرسانا

والمراد بقوله « لقوا » ملاقاته الاقتران في الخطابة والمكالمة ،
لامتلاقاتهم في القتال ، لانه ذكر الحرب بعده (٧) .

ومنه قول ابن حيوس . :

فعل المدام ولونها ومذاقها
في مقلتيه ووجنتيه وريقه

فذكر أن الخمر ولونها ومذاقها قد أثرت في مقلتيه ووجنتيه وريقه ،
فذكر متعددًا على سبيل اللف ثم ذكر ما لكن واحد على سبيل النشر
المرتب .

والثاني : غير المرتب : وهو ما جاء النشر فيه على غير ترتيب
اللف ، سواء كان معكوس انترتيب أم مختلطًا ، فمن المعكوس قول
ابن حيوس :

كيف أسلو وأنت حقف وغصن
وغزان ، لحظا وقدا وردفا (٨)

فلف بين الحقف والغصن والغزال ، ثم ذكر ما لكن واحد منها
على عكس الترتيب السابق فباللحظ للغزال ، والقدر الغصن ، والردف
للحقف .

ومنه قول الفرزدق :

(٧) شرح ديوان المتنبي ٣٥٨/٤ .
(٨) الحقف بكسر الحاء مجتمع الرمل إذا عظم واستدار .

لقد خنت قوما لو لجأت اليهم
طريد دم أو حاملا ثقل مغرم
لأفيت فيهم معطيا أو مطاعنا
وراءك شزرا بالوشيج المقوم (٩)

وانشاعر يهجو هيرة بن ضمضم لقتله القحطاع بن عوف ويقول
له : لقد ارتكبت جرما كبيرا بهذه الخيانة ، فلقد خنت قوما لو لجأت
اليهم لوجدت فيهم نعم الملجأ والملاذ ، ولأفيتهم يقدمون لك الماء
ويضحون بأنفسهم دفاعا عنك . وقد ذكر شيئين : طريد دم ، وحاملا
ثقل مغرم ، ثم ذكر ما لكل منهما على عكس الترتيب السابق ، فمعطيا
يرجع الى قوله : حاملا ثقل مغرم . ومطاعنا يرجع الى طريد دم .

ومنه قول الشاعر :

يا لهف قلبي غداة البين قد رحلوا
بظبية ضربت من دونها الكلال
قوامها ومحياها ومبسمها
كأس الرحيق وبدر التم والأسل (١٠)

فذكر متعددا مفصلا ثم ذكر ما لكل واحد على عكس الترتيب
الأول ، فكأس الرحيق يرجع الى مبسمها ، وبدر التمسام يرجع الى
محياها ، والأسل يرجع الى قوامها .

ومن المختلط أن نقول : هو شمس وأسد وبحر شجاعة وبهاء
وجودا ، فلففت بين الشمس والأسد والبحر ، وفكرت ما لها على سبيل

(٩) طريد دم : كناية عن كونه قاتلا . وحاملا ثقل مغرم : أى يحمل
ما لا طاقة له به في صلح أو دية . وشزرا : مصدر شزر أى طعن عن
بيئته وشماله . والوشيج : شجر الرماح ، والمقوم : المثقف .
(١٠) الكلال : جمع كلة وهى البستر الرقيق ، والأسل : جمع أسلة
وهى الرمح .

الاختلاط ، فلم تتبع ترتيبيا مطردا أو معكوسا ، فالشجاعة للأسد والبهاء للشمس ، والجود البحر .

٢. — المجلد : وهو أن يذكر المتعدد على سبيل الاجماف كقوله تعالى : « وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى » (١١) ، فان الضمير في « قالوا » لاهل الكتاب من اليهود والنصارى ، والتقدير وقالت اليهود والنصارى لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى والمعنى على النشر : وقالت اليهود : لن يدخل الجنة الا من كان هودا ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة الا من كان نصارى ، فلف بين القولين بقوله « وقالوا » ثقة بأن السامع يرد الى كل فريق قوله ، وأمثا من الالباس ، لما علم من التعادى بين الفريقين ، وتضليل كل واحد منهما لصاحبه (١٢) .

ومن اللف والنشر نوع لم يشر اليه الخطيب ، وذكره الزمخشري ، ويأتى فيه النشر فاصلا بين أجزاء اللف كما فى قوله تعالى : « ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله » (١٣) ، فاللف فى قوله منامكم وابتغائكم من فضله ، والنشر فى قوله بالليل والنهار ، وهو فاصل بين أجزاء اللف . وقد أشار الزمخشري الى ذلك فقال : هذا من باب اللف وترتيبه : ومن آياته منامكم وابتغائكم من فضله بالليل والنهار ، الا أنه فصل بين القرينتين الأولى بالقرينتين الآخريين لانهما زمانان والزمان والواقع فيه كشيء واحد مع اعانة اللف على الاتحاد (١٤) .

ومنه نوع آخر لطيف المنكأ أشار اليه الزمخشري أيضا فى قوله تعالى : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر

(١١) البقرة آية ١١١ .

(١٢) الكشاف ٣٠٤/١ .

(١٣) الروم آية ٢٣ .

(١٤) الكشاف ٢١٨/٣ ، وانظر التبيان ٤٠٠ .

فعدة من أيام نحر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا
العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » (١٥) ، فقال : الفعل
العلك محذوف مدلول عليه بما سبق تقديره — ولتكملوا العدة ولتكبروا
الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون — شرع ذلك ، يعنى جملة ما ذكر
من أمر الشاهد بصوم الشهر ، وأمر المرخص له بمراعاة عدة ما أفطر
فيه ، ومن الترخيص في اباحة النظر ، فقوله « لتكملوا » علة الأمر
بمراعاة العدة « وتكبروا » علة ما علم من كيفية القضاء والخروج عن
عهدة الفطر ، « ولعلكم تشكرون » علة الترخيص والتيسير ، وهذا نوع
من اللف لطيف المسلك لا يكاد يهتدى الى تبينه الا النقب المحدث من
علماء البيان (١٦) .

وقد تحدث سعد الدين عن هذا النوع وضبطه فقال : وهنا نوع
آخر من اللف لطيف المسلك وهو أن يذكر متعدد على التفصيل ، ثم يذكر
ما لكل ويؤتى بعده بذكر المتعدد ملفوظا أو مقدرًا فيقع النشر بين لفين
أحدهما مفصل والآخر مجمل ، وهذا معنى لطيف مسلكه ، ونقل كلام
الزمخشري السابق ، وأورد عليه اشكالا ملخصه : أن الزمخشري ذكر
في اللف أمر الشاهد بصوم الشهر ، ولم يجعل له مقابلا في العلك ، وأنه
ذكر في العلك ولتكبروا ، واعتبرها علة لما علم من كيفية القضاء ، وهذا
لم يذكر في المطلات ، وأجاب عن هذا الاشكال : بأن ذكر أمر الشاهد
بالصوم لم يذكر الا ليعنى عليه غيره فليس ما يدعو الى ذكر علة له ،
وأن ما علم من كيفية القضاء مفهوم من الأمر بمراعاة العدة وبهذا
يكون تطبيق العلك على المطلات في كلام الزمخشري وافيا
صحيحا (١٧) .

ومنه قسم أشار اليه السعد في المختصر فقال : ومن غريب اللف

(١٥) البقرة آية ١٨٥ .
(١٦) الكشاف ١/٣٢٧ .
(١٧) انظر المطول ٤٢٧ : ٤٢٨ ، والبلاغة القرآنية ٤٨٨ .

والنشر أن يذكر متعددان أو أكثر. ثم يذكر في نشر واحد ما يكون لك من آحاد كل من المتعديين ، كما تقول : الراحة والتعب ، والعدل والظلم ، قد سد من أبوابها ما كان مفتوحا ، وفتح من طرقها ما كان مسدودا ، فقوله الراحة والتعب لف أول ، والعدل والظلم لف ثان ، وجاء بعدهما نشر واحد مكون من شقين : سد من أبوابها ما كان مفتوحا ، وهو راجع الى الطرف الأول من اللفين : الراحة والعدل ، وفتح من طرقها ما كان مسدودا ، وهو راجع الى الطرف الثاني من اللفين : التعب والظلم ، فمعنى الكلام أنه سد من أبواب الراحة والعدل ما كان مفتوحا ، وفتح من أبواب التعب والظلم ما كان مسدودا .

وقيل ان الضمير في أبوابها وطرقها راجع الى ك من الأربعة المذكورة ، ويكون النشر لكل واحد من الأربعة ، ولا تنافي في الحكم لان المراد أن لها أبوابا ، سد واحد وفتح آخر (١٨) .

بلاغة اللف والنشر :

لا يكون اللف والنشر بليغا حتى يكون خاليا من التكلف والحشو وعقادة التركيب ، وجامعا بين سهولة اللفظ والمعاني البديعة المخترعة (١٩) ، وقد تكلف كثير من الشعراء المتأخرين توشية الشيعر باللف والنشر ، وتسبقوا في كثرة أفراد المتعدد في اللف وما يقابلها في النشر ، فلحقه التعقيد ، وركبه التناقض والثقل ، ولم يشفع في فصاحته وبلاغته تزيينه باللف والنشر المجلوب لذلك .

من هذا قول جيفى الدين الجلى وقد لف بين ثمانية أشياء ونشر ما يماثلها :

(١٨) انظر المختصر ، ومهاهب الفتاح ، وجاشية السنوقى : ٣٣٤/٤ .

(١٩) انظر معاهد التنصيص ٢/٢٧٨ .

وظبى يقفر فوق طرف مفوق
بقوس رمى فى النقع وحشما بأسهم
كبدر بأفق فوق برق بكفه
هلال رمى فى اللين جنا بأنجم

وقول الآخر وقد لف بين عشرة أشياء :

شعر جبين محيا معطف كفل
صدغ فم وجنات ناظر ثغر
ليل صباح هلال بانه وفقا
أس أقح شقيق نرجس در

وقول ابن جابر وقد لف بين اثني عشر شيئًا :

فروع سنا قد كلام فم لى
حلى عنق ثغر شذا مقلة خد
دجى قمر غصن جنى خاتم طلا
نجوم رشسا در صبا نرجس ورد

فهذا وما شابهه خارج عن نطاق البلاغة ، وما نزل به الى الحضيض
سوى تكلف اللف والنشر والتمهل لجمع أطراف كثيرة وذكر ما يخص
كل واحد منها •

واللف والنشر البايغ يثير الفكر وينشط العقل ويشوق النفس
نتيجة ذكر المتعدد غير تام الفائدة ، فنتشوق النفس لتمامها ، وينشد
العقل لتصورها ، فاذا جاء النشر ظهرت الفائدة مجموعة غير معينة
فتحتاج الى فكر وتأمل لارجاع كل صفة الى ما هى له ، اعتمادا على
القرائن ، وهذا يجعل المتلقى مصغيا الى الأسلوب ، متفاعلا معه
باهتا عن أسرارہ وأغواره حتى يقف على المراد فيثبت ويتأكد لديه •

وفي اللف والنشر لون من الايضاح بعدم الابهام والتفصيل بعد
الاجمال حيث يذكر المتعدد مبهما ، ثم توضح صفات افراده ، وفي هذا
تفخيم له وتعظيم لسانه ، لان ابهامه يدع النفس تذهب في تصور
تفصيله كل مذهب ، فاذا فسر كان هذا أحلى موقعا في النفس •

واللف والنشر يربط بين أجزاء الكلام ، ويزيد من تلاحم عناصره ،
نظرا لانه مكون من طرفين كل منهما محتاج الى الآخر لتكتم الفائدة
ويتضح المراد ، وهذا من أقوى الصلوات بين أجزاء الكلام •

* * *

الجمع

وهو أن يجمع بين شيئين أو أشياء في حكم واحد (١) . كقوله تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » (٢) ، فجمع فيه بين المال والبنين في حكم واحد هو أنهما زينة الحياة الدنيا . وادخل لفظ « بين » في التعريف ولم يقل أن يجمع متعدد إشارة إلى أن المتعدد هنا يجب أن يكون مصرحاً به في الذكر فقولنا : الأولاد زينة الحياة الدنيا ، ليس من قبيل الجمع وإن كان لفظ الأولاد متعدداً (٣) .

ومن الجمع قوله تعالى : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » (٥) ، وقوله تعالى « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجيس من عمل الشيطان » (٦) ، وفي هذه الآية جمع بين أربعة أشياء في كونها رجسا من عمل الشيطان ، وهذا يشير إلى اتحادها في هذا الوصف الشنيع ، وادعى إلى التفسير منها جملة حتى لا يفصل بينها في الابتعاد عنها .

ومنه قول أبي العتاهية :

ان الثياب والفراغ - والجبنه

مفسدة للمرء أي مفسدة

فجمع بين الأشياء الثلاثة في كونها مفسدة عظيمة .

ومنه قول صفى الدين الخلى في تمدح الرسول صلى الله عليه

وسلام

(١) الأنصاف ٤٥/٦

(٢) الكهف آية ٤٧

(٣) حاشية الديبوقى ٣٣٥/٤

(٤) الرحمن آية ١٥

(٥) القماني آية ١٥

(٦) المسألة آية ٩

آراؤه وعطاياه ونعمته
وعفوه رحمة للناس كلهم
فجمع بين أربعة أشياء في كونها رحمة للناس •

ومن لطيف الجمع قول المتنبى :

الخيال والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فجمع في الشطر الأول بين ثلاثة أشياء في كونها تعرفه ، وعطف
عليها أربعة أشياء في الشطر الثاني ، واستغنى بخبر الأولى عن خبر
الثانية لوضوح دلالة عليه •

ولا يشترط في الحكم الذي جمع فيه بين الأتساء أن يقع خبراً عن
المتعدد ، فقد يكون خبراً كما تقدم في الأمثلة ، وقد يكون غير ذلك كما
في قول محمد بن وهيب :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها
شمس الضحى وأبو اسحاق والقمر

فالحكم متقدم على الأشياء الثلاثة التي تشترك فيه • وتجد لهذا
نظائر كثيرة في الشعر والنثر •

وللسبكي وجهة نظر في جعل هذا من الجمع ، فهو يرى أن بداعة
الجمع يشترط فيها الاخبار عن المتعدد بمفرد يصدق على الجميع لكونه
مصدراً أو نحوه كزينة في الآية الكريمة الأولى ، ومفسدة في قبول
أبني العتاهية (٧) •

وجعل الطيبي من الجمع باب أحكام ذات الجنتين ، كقوله تعالى :

« جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذروكم فيه » (٨)،
فيذروكم أى يكثركم من الذرء وهو البث والتكثير ، والضمير فى
« يذروكم » يرجع الى المخاطبين وفيه تغليب من وجهين :

أنه غلب فيه جانب العقلاء على غير العقلاء ، وغلب فيه جانب
المخاطبين على الغائبين ، والضمير فى « فيه » عائد الى معنى العلتين
وهما الجعلان المذكوران المؤولان بالتدبير المسبب عنه ذرء الحيوان (٩)،
فجمع الجعلين فى حكم واحد هو الذرء •

بلاغة الجمع :

والجمع لونه بديع يحقق الايجاز فى الاسلوب ، حيث يجمع فيه
بين الشيئين أو الأشياء فى خبر واحد • ولو جعل لك منها خبر على حدة
لطال الكلام وخرج عن حد الاعتدال •

وفى الجمع اثاره للفكر وتشويق لانس ، فان ذكر الأشياء المتعددة
تلو بعضها دون بيان حكم لها يجعل النفس تتشوق للحكم وتنتظر
مجيئه ، ويبعث العقل على التفكير فيه وتصور كتهه : فاذا ورد بعد
ذلك دخل على النفس وهى فى شوق اليه فتمكن فضل تمكن •

وكلما كثرت الأشياء اتى يراد جمعها فى حكم واحد كلما زاد ذلك
من تشويق المتلقى واثارة فكره ، وضاعفه من لهفته على معرفة الحكم،
وهذا يدفعه الى الانفعال بالموضوع والتفاعل مع الاسلوب ، والوقوف
على المراد •

وقد جاءت صور من الجمع فى القرآن الكريم كثرت فيها الأشياء

(٨) الثبوري آية ٤٢ •

(٩) التفسير الكبير ٣٧٧/٧ ، والتبيلان ٤٠٢ ، وانظر الكشاف

المجموعة على نمط فريد مما يجعل المستمع شديد الاصغاء ، مشدود الفكر ، متصل الأنفعال حتى يستمع الى الحكم المقصود فيثبت في ذهنه، من ذلك قوله تعالى : « ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات نجد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » (١٠) .

وقوله تعالى : « ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون » (١١) .

فقد جمع في الآيتين بين أشياء كثيرة توالى وتتابعت فربطت المتلقى بها وجذبته الى الاصغاء فلا يستطيع الانفصال عنها الا بعد وضوئه الى الحكم الذي طالما اشتاق اليه ، وتعلقت نفسه به ، ليحظى منه الفائدة والثمرة .

وذكر العصام في وجه تحسين الجمع أنه يبرز الشيء في هيئات مختلفة في تركيب واحد ، تارة في هيئة الكثرة ، وأخرى في هيئة الواحدة (١٢) . وفي هذا تلوين للأسلوب وتأكيد للمعنى .

وفي الجمع بجانب كل هذا ربط الأسلوب وتقوية العلاقة بين مفرداته نظرا لان الأشياء المجموعة متعلقة بالحكم الذي جمعت فيه ، ولتجتمعه به بحيث لا يمكن الفصل بينهما .

(١٠) الأحزاب آية ٣٥ .

(١١) البقرة آية ١٦٤ .

(١٢) الأطلوس ٢/٦٩٩ .

التفريق

هو ايقاع تباين بين أمرين من نوع واحد في المذبح أو غيره (١) .
أى التفريق بين شيئين في صفة يشتركان فيها ، كما في قول رشيد الدين
الموطاط :

ما نوال الغمام وقت ربيع
كتوال الأمير يوم سخاء
فنوال الأمير بكرة عين
ونوال الغمام قطرة ماء (٢)

فالغمام والأمير يشتركان في صفة العطاء ، ولكن الشاعر فرق
بينهما فيها ، فعطاء الأمير يكون مالا كثيرا ، وعطاء الغمام يكون قطرة
ماء ، وشتان بين العطاءين . وبالغ في زيادة الفرق بينهما بقوله « وقت
ربيع » وقوله « يوم سخاء » فالغمام وقت الربيع يكون ممتلأ بالماء ،
ومع هذا فعطاؤه قليل ، والأمير يوم السخاء يكون خاوي الوفاض لكثرة
السائلين وكمال بذله وجوده في هذا اليوم ، ومع هذا فعطاؤه كثير (٣) .
وفرق الواواء الدمشقي بين عطاء المدوح وعطاء الغمام واكن من
زاوية أخرى فقال :

من قاس جدواك بالغمام فما
أنصف في الحكم بين شكليين
أنت إذا جدت ضاحك أبدا
وهو إذا جد داعم العين

(١) الأيضاح ٤٦/٦ .
(٢) النوال : العطاء ، والبكرة : كيس فيه ألف دينار أو عشرة آلاف
درهم ، والعين : المال .
(٣) النظر هاشمية العنتوقى ٤٨٣/٤ .

فلم يفرق بينهما من جهة نوع العطاء ومقداره كما فعن الوطواط ،
ولكنه فرق بينهما من جهة حالهما وهيئتهما عند العطاء ، فالمدوح مسرور
بالعطاء لذا يعطى وهو ضاحك ، والغمام غير راض عن العطاء اذا يعطى
وهو باك دامع العين ، فجعل المطر دموع عين الغمام وهو تخييل طريف .

والتفريق بين المدوح والغيث بالضحك والبكاء شائع في الشعر
عند المتأخرين ، ومن ذلك قول أبي الفتح البستي :

يا سيد الأمراء يا من جوده
أوفى على الغيث المطير اذا همى
الغيث يعطى باكيا متجهما
وتراك تعطى ناضرا متبسما

وقول الآخر :

من قاس جدواك يوما
بالسحب أخطأ مدحك
السحب تعطى وتبسكني
وأنت تعطى وتضحك

وسلك بديع الزمان مسلكا بديعا في التفريق ، حيث فرق بين
المدوح وعدة أشياء عن طريق التشبيه المشروط فقال :

يكاد يحكيك صوب الغيث منسكبا
لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا
والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت
والليث لو لم يصد والبهر لو عذبا

ففرق بين المدوح وبين الغيث والدهر والشمس والليث والبحر
عن طريق التشبيه المشروط ، حيث جعل هذه الأسماء تكاد تحاكيه لو

توفر في كل منها شرط مخصوص ، وهذا الشرط يستحيل تحققه ، اذا
فهذه الأشياء لا يمكن أن تتساوى مع المدوح .

والتفريق ليس مقصودا على المدح ، فيأتي في كل المعاني
والأغراض ، ومن جيده في الغزل قول بدر الدين بن النحوية :

حسبت جماله بجزا منيرا

وأين البدر من ذاك الجمال ؟

ففرق بين جماله وبين البدر عن طريق الاستفهام المفيد للاستبعاد

ومنه قول الشاعر :

قاسوك بالغصن في التثني

قياس جهل بلا انتصاف

هذاك غصن الخلاف يدعى

وأنت غصن بلا خلاف (٤)

ففرق بين الغصن وبين محبوبه ، فالغصن في كونه غصنا بخلاف ،
موريا بالصفصاف عن المخالفة ، أما محبوبه فهو غصن بلا مخالفة
في ذلك .

قال السبكي ويمكن أن يكون من التفريق قوله تعالى : « وما يستوى
البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج » (٥) ، فالبحران
يشاركان في وجود الماء فيهما ، لكنهما يفترقان في أن ماء أحدهما عذب
فترات سائغ للشاربين ، وماء الآخر ملح أجاج يعافه الوردون . ودخول
هذا في التفريق راجع الى التصريح بعدم التساوي بين البحرين ، فهما
وان اشتركا في صفة الا أنهما يفترقان من ناحية أخرى تتعلق بهذه

(٤) الخلاف : شجر الصفصاف .

(٥) فاطر آية ١٢ ، وانظر غرؤس الأفرح ٢/٣٣٦ .

الصفة . ونعل تعبير السبكي بإمكان دخوله في التفريق راجع إلى أن المثال قريب من اللف والنشر حيث ذكر المتعدد مجملا ثم ذكر ما لكل واحد من أفراده من غير تعيين .

بلاغة التفريق :

في التفريق لون من تفصيل الجمل وذلك بتمييز أفراده ، وإزالة وهم الاتحاد بينها ، مما يؤدي إلى بيان خصائص المتحدث عنه ، وإظهار تباينه عما يشبهه في الغرض المراد مدحا أو رثاء أو غزلا أو هجاء وغير ذلك من الأغراض .

وفي التفريق يدعى المتكلم دعوى يشير فيها إلى اختصاص أحد الأفراد المشتركة في صفة بسمة خاصة فيها ، ويقوم الدين على ذلك بتوضيح الفرق ، كما رأينا في قول رشيد الدين ، والوأواء الدمشقي ، وغيرهما ، ففيه اثبات شيء بدليله ، وإدعاء دعوى ببرهانها .

والتفريق مؤد إلى تناسب الكلام وترابطه نظرا لاتصاله ببعضه ، ودورانه حول موضوع واحد .

التقسيم

وهو في اللغة مصدر قسمت الشيء إذا جزأته ، ويطلق عند البلاغيين على ثلاثة أنواع كل نوع منها له ضابط على حدة :

الأول : ذكر متعدد ثم إضافة ما لكل اليه على التعيين • وبهذا القيد يخرج اللف والنشر ، حيث يذكر فيه ما لكل واحد من المتعدد من غير تعيين • مثال ذلك قوله تعالى : « كذبت ثمود وعاد بالقارعة ، فأما ثمود فأهلكوها بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » (١) • فالمتعدد ثمود وعاد ، وأضيف إلى كل منهما ما له على سبيل التعيين •

ومنه قوله تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فلأما الذين أسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وأما الذين أبيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون » (٢) ، ومثل السيوطي بذلك لللف والنشر المعكوس (٣) ، وواضح أنه ليس من اللف والنشر نظرا لتعين ما لكل واحد من المتعدد •

ومنه قول الشاعر :

غيثان : أما الذي من فيض أنمله

فدائم ، والذي للمزن لم يدم

فذكر المتعدد ثم بين ما لكل واحد على التعيين •

ومثل الخطيب له بقول أبي تمام :

فما هو إلا الوحي أو حد مرهف

تميل ظبأه أذعن كل مائل

(١) الحاشية آية ٤ - ٦ .

(٢) آل عمران آية ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٣) شرح عقود الجمان ١٠٥/٢ .

فهذا دواء الداء من كل عالم
وهذا دواء الداء من كل جاهل (٤)

فالمتعدد الوحي وحده السيف ، والمضاف نهما في البيت الثنائي
فالشطر الأول منه راجع الى الوحي والشطر الثاني منه راجع الى حد
السيف . وقيل : ان هذا المثال من قبيل اللف والنشر لعدم تعيين ما لكل
واحد من المتعدد حيث قال :

فهذا دواء الداء من كل عالم
وهذا دواء الداء من كل جاهل

دون تعيين ، والاسماع هو الذى يرد كل واحد الى ما هو له اعتمادا
على القرائن .

ورد على هذا بأن التعيين متحقق وموجود ، لان اسم الاشارة
يشار به الى معين ، ولكن لما كان في البيت اسمى اشارة كان التعيين مع
وجوده محتملا وجهين ، بخلاف اللف والنشر ، فان نفس التعيين منتف
فيه (٥) . كما قيل ان التعيين محدد ولا احتمال فيه لوجهين ، بناء على
ما قرره النحاة من أنه اذا ذكرت أسماء اشارة متعددة بعد مشار اليه
متعدد فالأصل فيه أن يضاف الأول من أسماء الاشارة الأول من المشار
اليه ، والثاني للثاني وهكذا (٦) .

كما مثل الخطيب بقول المتلمس :

ولا يقيم على ضيم يسراد به
الا الأذلان غير الحى والوتد

(٤) الطبى : جمع ظبة وهى حد السيف . والاخذعان : عرقان فى
صفحتى العنق .

(٥) حاشية عبد الحكيم . . ٥٠ .

(٦) نرح عقود الجمان ١٠٧/٢ .

هذا على الخسف مربوط برمته
وذا يشج فلا يرثى له أحد (٧)

فالمتردد : غير الحي والوعد ، وخصاف الى الأول الربط على
الخسف ، والى الثانى الشج ، على سبيل التعيين ، حيث أشار بهذا الى
الأول وبذا الى الثانى ، وقيل انه لا تعين هنا لان هذا وذا متساويان
فى الاشارة الى القريب ، فكل منهما يحتمل أن يكون اشارة الى العير
والوعد وعلى هذا يكون البيت من قبيل اللف والنشر ، ولم يسلم السعد
بالتساوى بين هذا وذا ، لان فى حرف لتبنيه ايماء اى أن القرب فيه
أقل بحيث يحتاج الى تنبيه ما بخلاف المجرى عنها ، فهذا للقريب يعنى
العير ، وذا للأقرب يعنى الوعد ، وأمثال هذه الاعتبارات لا ينبغى أن
تهمل فى عبارات البلغاء ، بل ليست البلاغة الا رعاية أمثال ذلك (٨) .

والثانى : ذكر أحوال الشىء مضافا الى ك حال ما يليق بها . من
ذلك قوله تعالى : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على
المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة
لائم » (٩) . ومن هذا قول أبى الطيب :

سأطلب حقى بالقنا ومشايخ
كأنهم من طول ما التثموا مرد
ثقال اذا لاقوا خفاف اذا دعوا
كثير اذا شدوا قليل اذا عدوا (١٠)

(٧) العير بفتح العين : الحمار ، والخسف : الذل ، والرمة : قطعة
جبل بالية ، والشج : كسر الرأس ، فلا يرثى : فلا يترك ولا يرحم .
(٨) المختصر ضمن الشروح ٣٣٨/٤ .
(٩) المسألة آية ٥٤ .
(١٠) القنا : الرماح ، التثموا : لبسوا لثام الحرب ، والمرد جمع أمرد
وهو الشاب الذى لم تنبت له لحبة ، ثقال : شداد على الأعداء ، خفاف :
مسرعون ، شدوا : حملوا على الأعداء .

فذكر أحوال المشايخ في البيت الثاني وأضاف لكل حال ما يليق بها • ومنه قوله :

بدت قمرا ومالت خطوط بان
وفاحت عنبرا ورننت غزالا

ونحوه قول الآخر :

سفرن بدورا وانتقبن أهله
ومس غصونا والتفتن جاذرا

ومن هذا قول الامام على كرم الله وجهه : أحسن الى من شئت
تكن أميره ، واستغن عن شئت تكن نظيره ، واحتج الى من شئت تكون
أسيره •

والثالث : استيفاء أقسام الشيء بالذكر • ومنه قوله تعالى :
« له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى » (١١) ،
فاستوفت الآية كافة العوالم وجميع أقسام الكون ، فلا شيء يخرج
عما ذكر فيها ، وكل ذلك ملك لله تعالى • ومنه قوله تعالى : « هو الذي
يريكم البرق خوفا وطمعا » (١٢) ، فليس في رؤية البرق الا الخوف من
الصواعق ، والطمع في الأمطار ، ولا ثالث لهذين لقسمين ، ومن لطيف
ما وقع في هذه الآية تقديم الخوف على الطمع ، لان الصواعق يجوز
وقوعها من أول برقة ، وهي سبب الخوف ، والمطر لا يحصل الا بعد
تواتر الابرار وهو سبب الطمع ، فقدم ما يجوز وقوع سببه أولا • كما
أن في تأخير الطمع نسخ للخوف ، كمجيء الرخاء بعد الشدة ، والفرج
بعد الكرب ، فيكون ذلك أحلى موقعا في القلوب (١٣) •

(١١) طه آية ٦ .

(١٢) الرعد آية ١٢ .

(١٣) انظر بديع القرآن ٦٥ .

ومنه قوله تعالى : « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما » (١٤) ، فقد تم استيفاء جميع الأقسام لأنه سبحانه إما أن يفرد العبد بهبة الإناث ، أو بهبة الذكور ، أو يجمعهما نه ، أو لا يهبه شيئا . وجاءت الأقسام في الآية على الترتيب الذى تقتضيه البلاغة ، وهو الانتقال فى النظم من الأدنى الى الأعلى ، إذ قدم فيها هبة الإناث ، وانتقل الى هبة الذكور ، ثم الى هبة المجموع ، وجاء كل أقسام العطية بلفظ الهبة ، وأفرد معنى الحرمان بالتأخير ، لان الانعام فى هذا المقام أهم ، فالآية سيقى للاعتداد بانعم ، وانما ذكر الحرمان ليكتمل التمدح بالقدرة على المنع كما يمدح بالعطاء ، فيعلم أنه لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، وعبر فى الاخبار عن الحرمان بالجعل دون الحرمان والمنع لما فيهما من الشدة والقسوة ، وليتناسب التعبير مع ما جرى عليه التعبير فى كثير من الآيات حيث يذكر الجعل فى مقام الحرمان كما فى قوله تعالى : « لو نشاء نجعلناه حطاما » (١٥) ، وقوله تعالى (١٦) : « لو نشاء نجعلناه أجاجا » (١٧) .

ومنه قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم متقصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله » (١٨) فاستوفى الآية الكريمة جميع الأقسام التى يمكن وجودها .

ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم : « ليس لك من مالك الا ما أكلت فأفنىته ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت » فاستوفى الحديث كل ما يعود على الانسان من ماله فى ثلاثة أشياء ولا رابع لها .

-
- (١٤) الشورى آية ٤٩ ، ٥٠ .
(١٥) الواقعة آية ٦٥ .
(١٦) الواقعة آية ٧٠ .
(١٧) انظر بديع القرآن ٦٨ .
(١٨) فاطر آية ٣٢ .

ومن هذا قول أبي تمام في الأَغْشِين أحد كبار قادة المعتصم ، واتهم
بعبادة النار كالمجوس فأحرق بها :

صلى لها حيا وكان وقودها
ميتا ويدخلها مع انفجار
فاستوفى أحواله مع النار في محياه ومماته وآخرته •

ومنه قول زهير :

فان الحق مقطعه ثلاث
يمين أو نفار أو جلاء

فبين أن الحق يقطع بواحد من ثلاثة أشياء لا رابع لها اليمين ، أو
الاحتكام الى رجل ، أو الكشف عنه حتى ينجلى ، وقد أعجب به عمر
رضي الله عنه وقال لو أدركت زهيرا لموليته القضاء لعرفته (١٩) •

ومنه قول صفي الدين الحلبي في بديعته :

أفنى جيوش العدا غزوا فلست ترى
سوى قتيل ومأسور ومنهزم

بلاغة التقسيم :

في أسلوب التقسيم تفصيل بعد اجمال ، وايضاخ بعد ابهام حيث
يذكر المتعدد ثم تفصل أحواله ، أو يذكر الشيء وتستوفى أقسامه ،
فيزداد المعنى بذلك فخامة وتأكيدا ، لكونه ذكر مرتين على هيئتين
مختلفتين •

وذكر الشيء دون تفصيل أحواله يشوق النفس لمعرفة ، ويلهب
الفكر ، فإذا ما جاءت الأقسام مفصلة والأحوال مبينة ثبتت

في الذهن ، وتمكنت في انفس ، للحمبول عليها بعد شوق وطلب وقد .
واسلوب التقسيم من عوامل ترابط الاسلوب ، واتحاد اجزائه ، فأوله
متصن وآخره مرتبط بأوله ، وكل كلمة فيه آخذة بعنق صاحبها ، اذ
الفائدة متوقفة على الكلام جميعه ، ومعلقة بالانتهاء منه ، وقد جعله
الشيخ عبد القاهر من النظم الذي يتحد في الوضع ويدق فيه الصنع ،
وترى فيه اجزاء الكلام متحدة ومنداخله ، ويشهد ارتباط ثان منها
بأول (٢٠) .

وفي التقسيم تناسق صوتي بديع يبشأ من الجمل المتساوية ،
والأقسام المحددة ، وما فيها من توازن وسجع غالبا .

وحصر أقسام الشيء واستيفائها بالذكر في القسم الثالث منه له
أثر جليل في تثبيت المعاني وتمكينها ، حيث يهبط باشيء من كافة
أقسامه ، ويحصر من جميع وجوهه ، فلا يبقى أمام العقل الا ان
يسلم بما عرض عليه ، ويتفرغ لهضمه واستيعابه .

ويشترط في حسن التقسيم أن يكون تنسيما صحيحا ، فاذا ذكر
المتكلم متعددا ثم ذكر أحوال أفراده فعليه أن يأتي على وجهه
الصحيح ، واذا أراد حصر الأقسام واستيفاءها استوفاهما على وجه
دقيق دون أن يترك منها قسما أو يكرر نبيها ، أو يداخل بين الأقسام ،
فإن مثل هذه الأمور تجعل التقسيم رديئا غير مقبول .

وفساد التقسيم يأتي من أمور أشار اليها البلاغيون وهي (٢١) :

١ — عدم استيفاء أقسام الشيء كما في قول جرير :

حسرت حنيفة أثلاثا فقلتهم

من العبيد وثلت من هوالية

(٢) انظر دلائل الإعجاز : ٩٣ ، ٩٤ .

(٢١) انظر في ذلك : نقد الشعر : ١٩٢ ، ١٩٣ ، والاصناف : ٢٦٩ ،

٢٧٠ ، ونسب التصانيف : ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

فجعل بنى حنيفة ثلاثة أقسام ، ولكنه ذكر قسمين وترك القسم الثالث ، وهذا عيب أخل بالتقسيم وجعله فاسدا ، وروى أنه أنشده ورجل من حنيفة حاضر ، فقيل له من أى الأثلاث أنت ؟ فقال من الثلث الملقى ، وهذا نقد لطيف أظهر عيب التقسيم •

ومثله قول بعض العرب :

سقاء سقيتين الله سقيا

طهورا والغمام يرى الغماما

فقال : سقيتين ثم قال : سقيا طهورا ، ولم يذكر الأخرى ، فأم يستوف الأقسام •

٢ — تكرير الأقسام • من ذلك قول هذيل الأشجعي :

فما برحت تومى الى بطرفها

وتومض أحيانا اذا خصمها غفل

فتومى بطرفها وتومض فى معنى واحد ، فالتقسيم فاسد •

ومنه قول أبى تمام :

قسم الزمان ربوعها بين الصبا

وقبولها ودبورها أثلاثا

فتقسيمه فاسد من طريق التكرار لان القبول هى الصبا •

٣ — دخول أحد القسمين فى الآخر • كقول الشاعر :

أبادر اهلاك مستهلك

الى أو عيب العيسابث

فعبث العابث داخل فى اهلاك المستهلك ، وبذلك فسد التقسيم •

٤ — أن يكون أحد القسمين مما يجوز دخوله في الآخر كقول
ابن القـرية :

الناس ثلاثة : عاقل وأحمق وفاجر ، فالفاجر يجوز أن يكون أحمق ،
ويجوز أن يكون عاقلا ، والعاقل يجوز أن يكون فاجرا وكذلك الأحمق ،

وإذا جاز دخول أحد القسمين في الآخر فسدت القسمة .

وسأل كيسان فقال : علقمة بن عبدة جاهلي أو من بنى تميم ؟
فضحك من سؤاله . لان الجاهلي قد يكون من بنى تميم ومن غيرهم ،
والتميمي قد يكون جاهليا واسلاميا .

٥ — عدم التناسب بين الأقسام كما في قول قيس بن الخطيم :

وسلوا ضريح الكاهنين ومالكا

كم فيهم من دارع ونجيب

فلا مناسبة بين دارع ونجيب ، فالدارع الرجل ذو الدرع ،
والنجيب الكريم .

وقريب منه قول الأخطل :

إذا التقت الأبطال أبصرت لونه

مضيئا وأعناق الكمأة خضوع

فمضيئة مع خضوع رديء جدا ، وكان ينبغي أن يقول : وألوان
الكمأة كاسفة .

الجمع مع التفريق

وهو أن يدخل شيئين في معنى واحد ويفرق بين جهتي الإدخال (١) كقول رشيد الدين الوطواط :

فوجهك كالنار في ضوءها
وقلبي كالنار في حرها

فأدخل قلبه ووجه الحبيب في معنى واحد حيث شبههما بالنار ، وفرق بين وجهي المشابهة ، فالوجه كالنار في الضوء والاشراق ، والقلب كالنار في الحرارة والاحتراق .

ومن هذا قوله تعالى : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » (٢) ، فجمع بين الليل والنهار في كونهما آيتين ، ثم فرق بين الآيتين . فأية الليل مضموسة مظلمة ، وآية النهار مضيئة منيرة . وجعل الطيبى من هذا قوله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى » (٣) ، جمع الأنفس في حكم التوفى ، ثم فرق من جهتي التوفى بالحكم ، بالامسك والارسال ، أى الله يتوفى الأنفس ، النفس التي تقبض ، والنفس التي لم تقبض ، فيمسك الأولى ويرسل الأخرى (٤) .

ومعنى الآية تفصيلا : الله يتوفى الأنفس وقت موتها المحدد لها ، وهذه هي الوفاة الحقيقية ، ويتوفى الأنفس التي لم تمت حقيقة في منامها ، تشبيها للنوم بالموت ، فيمسك الأنفس التي قضى عليها الموت

(١) الايضاح ٤٨/٦ .

(٢) الاسراء آية ١٢ .

(٣) الزممر آية ٤٢ .

(٤) التبيان ٤٠٥ .

الحقيقي فلا يردّها حية ، ويرسّن الأخرى النائمة حتى يأتي الأجل
المحدد لموتها الحقيقي (٥) .

ومنه قوله تعالى : « قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من
طين » (٦) ، فالجمع في الخلقة ، والتفريق في بيان جنس الخلقة فإبليس
من نار و آدم من طين .

ومن الجمع مع التفريق قول البحترى :

ولما انتقينا والنقا موعد لنا
تعجب رائى الدر حسنا ولا قطّة
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها
ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

فجمع بين ثغرها وكلامها في التعبير عنهما باللؤلؤ ، ثم فرق فاللؤلؤ
الأول يتجلى عند ابتسامها ، واللؤلؤ الآخر يتساقط عند حديثها .

ومنه قول ابن حجة الحموي في بديعته :

سناه كالبرق ان أبدوا ظلام وغي
والعزم كالبرق في تفريق جمعهم

فجمع بين سناه وعزمه في كونهما يشبهان البرق ، وفرق في جهتي
المشابهة .

ومنه قول الفخر عيسى :

تشابه دمعانا غداة فراقنا
مشابهة في قصة دون قصة

(٥) انظر الكشاف ، والانتصاف ٣/٣٩٨ ، ٤٠٠ .

(٦) ص ٧٦ .

فوجنتها تكسو المدامع حمرة
ودمعى يكسو حمرة اللون وجنتى

فجمع بين الدمعين في الشبه ، ثم فرق بينهما بأن دمعها أبيض ،
فاذا جرى على خدها صار أحمر بسبب احمرار خدها ، وأن دمعها أحمر
لأنه يبكى دما ، وخده من النحول أصفر فاذا جرى عليه الدمع كساه
حمرة (٧) .

ومنه قول على بن مليك :

بالروح أفدى صاحباً لم يزل
محتقراً ذنبى فى عفوهِ
فكفه كالماء فى جوده
وقلبه كالماء فى صفوه

فجمع بين كفه وقلبه فى التشبيه ، وفرق بينهما فى وجه الشبه .

ومن الجيد فى ذلك لحيثه على نمط فريد قول مروان بن أبى حفصة:

تشابه يوماه علينا فأشكلا
فما نحن ندرى أى يوميه أفضل
أيوم نداء الغمر أم يوم بأسه
وما منهما الا أغر محجل

فيوماه يتشابهان فى الفضل والبهاء ، وان كانا يفترقان فيما يعمله
فى كل منهما ، فيوم للكرم ويوم للأبس والحرب .

الجمع مع التقسيم

وهو جمع متعدد تحت حكم واحد ثم تقسيمه ، أو تقسيمه ثم جمعه تحت حكم واحد ، وعلى هذا فهو قسمان :

الأول : الجمع ثم التقسيم • كقول المتنبي :

حتى أقام على أرباض خرشنة
تشقى به الروم والصلبان والبيع
للسبي ما نكحوا وانقتل ما ولدوا
والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا(١)

فجمع في البيت الأول شقاء الروم بالممدوح على سبيل الاجمان ، حيث قال : تشقى به الروم ، ثم قسم في الثاني هذا الشقاء وفصله ، فقسمه الى سبي وقتل ونهب واحراق ، وفصله بأن أضاف لك حال ما يناسبه ، فللسبي ما نكحوا من النساء ، وللقتل ما ولدوا ، والنهب ما جمعوا من المال والمتاع ، وللنار ما زرعوا من مزروعات ، وأما ما عطف على الروم من الصلبان والبيع فلم يتعرض له في التقسيم ، وعبر عن نسائهم وأولادهم بما التي لغير العاقل اشارة الى اهانتهم وقلة المبالاة بهم ، حتى كأنهم ليسوا من جنس ذوى العقول ، وملازمة لقوله ما جمعوا وما زرعوا (٢) •

ومثل له السيوطى بقوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله » (٣) ، فقد جمعهم الله تعالى في ايراث الكتاب ، ثم قسمهم

(١) الأرباض : اسوار المدينة ، وخرشنة : بلد بالروم •

(٢) المختصر وحاشية العسوتى ٣٤٠/٤ •

(٣) فاطر آية ٣٢ •

الى الأقسام الثلاثة (٤) • أنتى استوفت جميعهم ، وقد سبق الاستشهاد
بهذه الآية فى النوع الثالث من التقسيم باعتبار أنها قد استوفت
أقسام الناس •

والثانى : التقسيم ثم الجمع • تقون حسان فى مدح النبى صلى
الله عليه وسلم وصحابته :

قوم اذا حاربوا ضروا عدوهم
أو حاولوا النفع فى أسياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة
ان اخلائق فاعلم شرها البدع

فقسم فى البيت الأول صفة المدوحين الى ضر الأعداء ونفع
الأولياء ، ثم جمعها فى البيت الثانى بقوله : سجية تلك منهم •

— — —

وقد أثنى الشيخ عبد القاهر على هذا القسم الثانى ، واستشهد
له بقول حسان السابق ، ثم قال : ومن ذلك وهو شىء فى غاية الحسن
قول القائل — ابراهيم بن العباس الصولى — :

لو أن ما أنتم فيه يدوم لكم
ظننت ما أنا فيه دائما أبدا
لكن رأيت الليالى غير تاركة
ما سر من حادث أو ساء مطردا
فقد سكنت الى أنتى وأنكم
سنستجد خلاف الحالتين غدا

فقوله : « سنستجد خلاف الحالتين غدا » جمع فيما قسم لطيف ،

وقد ازداد لطفًا بحسن ما بناه عليه ، ولطف ما توصل به إليه من قوله :
« فقد سكنت الى أنى وأنكم » (٥) •

وقد يأتي الجمع مقدرًا ، كما قد يأتي التقسيم مقسدرًا ، وبين
الطبيعي هذا فقاء : ومن الجمع التقديرى مع التقسيم قوله تعالى :
« لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف
عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا ، فأما الذين آمنوا و عملوا
الصالحات فيوفيههم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا
واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً » (٦) • فحذف في الجمع ذكر المؤمنين
أى ومن يستنكف ومن لم يستنكف فسيحشرهم وذلك لدلالة التقسيم
عليه •

ومن التقسيم التقديرى قوله تعالى عقب الآيات السابقة :
« يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبيناً ،
فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل
ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً » (٧) ، فذكر جزاء المؤمن ولم يذكر
جزاء الكافر (٨) •

وقد سبق أن أشار الزمخشري الى هذا ففى الموضع الأول ذكر
أن التفصيل اشتمل على الفريقين والمفصل على فريق واحد ، وفى
الموضع الثانى اشتمل التفصيل على فريق واحد (٩) • بعد ذكر الجميع
فى المفصل •

(٥) دلائل الاعجاز ٩٤ ، ٩٥ •
(٦) النساء آية ١٧٢ ، ١٧٣ •
(٧) النساء آية ١٧٤ ، ١٧٥ •
(٨) التبيين ٤٠٦ •
(٩) انظر الكشاف ٥٨٨/١ ، ٥٨٩ •

الجمع مع التفريق والتقسيم

وهو أن يجمع بين متعدد في حكم ، ثم يفرق بين أفراده ، ثم يضاف لكل واحد ما يناسبه • فتأتى الألوان الثلاثة مبدوءة بالجمع ، فالتفريق فالتقسيم •

ومن أمثله قوله تعالى : « يوم يأت لا تكلم نفس الا باذنه فمنهم شقى وسعيد ، فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق ، خالدين فيها ما دامت السموات والأرض الا ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد ، وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ » (١) ، فالجمع في قوله : « لا تكلم نفس الا باذنه » فنفس متعدد معنى لان الفكرة في سياق النفي تعم ، والتفريق في قوله : « فمنهم شقى وسعيد » ، والتقسيم في قوله : « فأما الذين شقوا » الى آخر الآيات (٢) •

ومنه قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » (٣) ، فالجمع في قوله : « أنزل عليك الكتاب » والتفريق في قوله : « منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » والتقسيم في قوله : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ » ، وقوله : « والراسخون فى العلم » •

ومن هذا قول ابن شرف القيروانى :

(١) هود آية ١٠٥ - ١٠٨ .

(٢) الايضاح ٥١/٦ .

(٣) آل عمران آية ٧ .

لختلفى الحاجات جمع بيبابه
فهذا له فن وهذا له فن
فللخامل العليا وللمعدم الغنى
وللمذنب العتبي وللخائف الأمن

فجمع بقوله : لختلفى الحاجات ، وفرق بقوله : فهذا له فن وهذا
له فن ، وقسم بقوله : فللخامل العايا ، الى آخر البيت *

ومنه قول ابراهيم بن العباس :

لنا ابل كوم يضيق بها الفضا
ويفتتر عنها أرضها وسماؤها
فمن دونها أن يستباح دماؤنا
ومن دوننا أن تستباح دماؤها
حمى وقرى فالوت دون مرامها
وأيسر خطب يوم حق فناؤها

فجمع فى البيت الأول ، وفرق فى البيت الثانى ، وقسم فى قوله :
حمى وقرى *

بلاغة الفنون المزدوجة :

عرضنا فيما سبق لفنون مزدوجة هى الجمع مع التفريق ، والجمع
مع التقسيم ، والجمع مع التفريق والتقسيم * وقد بينا فيما سبق بلاغة
كل فن مفرد منها ، ولا شك أن اجتماع فنين أو ثلاثة منها فى الكلام
يزيده جمالا وترابطا وقوة ، طالما لم يصحبها تكلف ولا تعقيد ، ولم
تكن طاغية على جانب المعنى من أجل التحسين البديعى *

وقد أشار بعض البلاغيين الى أن: فى اجتماع هذه الفنون تحسينا

زائدا على مجيئها منفردة ، فالجمع مع التفريق ، أو مع التقسيم ، أو معها ، يحدث لونا من التقابل في الاسلوب يوجب حسنا زائدا على مجيء كل لون منها بمفرده (٤) .

وفي اجتماع هذه الفنون تلوين للكلام ، وتنشيط للسامع ، وتهييج للفكر ، بالانتقال من جمع الى تفريق الى تقسيم ، وأداء المعنى بصور مختلفة .

* * *

(٤) انظر عقود الجمان ١٠٨/٢ ، وحاشية السوقى ٣٣٨/٦ .

الخاتمة

مكانة البديع بين علوم البلاغة

بدأت الدراسات المنهجية في البلاغة العربية بدراسة فنون البديع على يد عبد الله بن المعتز ت ٢٩٦ هـ ، وذلك في كتابه « البديع » الذي أسلفنا الحديث عنه في التمهيد . ومضت مسيرة البحث البلاغي عبر العصور الأدبية ، ونالت فيها فنون البديع جل اهتمام العلماء ، كما نرى في مؤلفات قدامة بن جعفر وأبى هلال العسكري وابن رشيق وابن سنان الخفاجي وغيرهم ، وكان البديع عندهم يطلق على معظم الصور البلاغية التي صنفت بعد ذلك في علوم ثلاثة : المعانى والبيان والبديع .

ثم عصفت رياح الضعف الأدبي حاملة معها تيارا مغرقا في الصنعة مولعا بالتفنن والتشعيب في ألوانه الأصيلة . وظهرت البديعيات وتفرغت عقون صائغياتها لرصد كل الوشى البديعى صحيحه وعليه ، أصيلة ودخيله ، فتراكم من ذلك كم هائل من فنون البديع ، منها ما له قيمة في التعبير ، ومنها ما لا وزن له ، ومنها ما تداخل مع غيره فلا يفترقان الا في الاسم .

ومن جراء ذلك تحول الفن التعبيري الجميل الى زخرف شكلى ، وتلاعب لفظى ، في سبك متكلف ، وصنعة معقدة . وهذا مما هون من شأن البديع لدى المتأخرين من علماء البلاغة ، وأضعف من قيمته ، واعتبروه حلية وزينة في الاسلوب ، ولا دخل له في بلاغة الكلام .

ويحمل الباحثون الخطيب القزوينى تبعة اخراج البديع من الخصائص البلاغية التي تتوقف عليها بلاغة الكلام ، حيث عرف البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ، وبعد أن شرح التعريف

وبين مراتب البلاغة قال : واعلم أنه يتبعها وجوه كثيرة غير راجعة الى مطابقة مقتضى الحال ، ولا الى الفصاحة ، تورث الكلام حسنا وقبولا (١) — يعنى وجوه ابديع — • وبهذا أخرج فنون البديع من تعريف البلاغة اذ عدها غير راجعة الى مقتضى الحال ولا الى الفصاحة •

وأكد على هذا مرة ثانية حين بين أن بلاغة الكلام مرجعها الى الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، والى تمييز الكلام الفصيح من غيره ، فالذى يحترز به عن الخطأ فى تأدية المعنى هو علم المعانى ، والذى يحترز به عن غير الفصيح بسبب اتعقيد المعنوى هو علم البيان ، وما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته هو علم البديع (٢) •

فجعل بلاغة الكلام راجعة الى علمى المعانى والبيان ، أما علم البديع فيعرف منه وجوه تحسين الكلام بعد تمام بلاغته بالمطابقة لمقتضى الحال ووضوح الدلالة •

ويرى بعض الباحثين أن الخطيب مقتد فى هذا بالسكاكى ، الذى حصر البلاغة فى علمى المعانى والبيان وبعد أن انتهى من شرح أبوابهما كان : واذا تقرر أن البلاغة بمرجعيتها — المعانى والبيان — وأن الفصاحة بنوعيتها — اللفظية والمعنوية — مما يكسو الكلام حلة التزيين ، ويرقيه على درجات التحسين ، فهنا وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار اليها لقصد تحسين الكلام ، فلا علينا أن نشير الى الأعراف منها ، وهى قسمان : قسم يرجع الى المعنى وقسم يرجع الى اللفظ (٣) ، ثم مضى يشرح هذه الوجوه دون أن يطلق عليها اسم البديع •

وهذا رأى موضع نظر ، لان كلام السكاكى غير قاطع فى اخراج

(١) الايضاح ٤١/١ ، ٤٦ ، ٤٧ •

(٢) الايضاح ٤٩/١ ، ٥٠ • وانظر تعريفه للبديع فى الايضاح ٤/٦ •

(٣) مفتاح العلوم ٤٢٣ •

وجوه البديع من البلاغة ، ولكنه يجعل هذه الوجوه تعدل الفصاحة و البلاغة في تحسين الكلام وتزيينه ، واذا كان التحسين الذي تعقبه الفصاحة و البلاغة في الاساليب ذاتيا فالتحسين الذي تعقبه هذه الوجوه في الكلام كذلك (٤) . فوجوه البديع عنده مساوية لوجوه الفصاحة و البلاغة في كونها مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين ، ومن هنا ذكر ضمن وجوه تحسين الكلام الالتفات ، والايجاز و الاطناب منها على سبق دراستها في علم المعاني (٥) .

وتأخير السكاكي الحديث عن وجوه التحسين الى الفراغ من علمي المعاني والبيان ، وافراده لها بالذكر لا يقتضى انه جعلها ذبلا وذبنا للبلاغة ، ولا يشير الى انه فصلها عنها ، فخطته التي اتبعها في الكتاب استوجبت ذلك ، اذ أخذ نفسه في أول الكتاب بتبيين الخواص التي تعرض للتراكيب من حذف وذكر وتعريف وتنكير واطلاق وتقييد ونحو ذلك ، فلم يلف شيئا منها طباقا أو مقابرة أو تقسيما أو مزوجة أو ما اليها فوضعها هذا الوضع الذي لم ينزل من مكانتها مسويا بينها وبين العلمين في العود على الكلام بالتحسين والتزيين (٦) .

وجاء بعد السكاكي بدر الدين بن مالك ت ٦٨٦ هـ بكتابه «المصباح» وحمى في جل مباحثه على نهج السكاكي ، الا أنه أعطى وجوه تحسين الكلام مزيدا من الأصالة ، ووضعها في مرتبة مباحث المعاني والبيان على النحو التالي :

١ — تحدث في مقدمة كتابه عن فوائد علم البلاغة و الفصاحة فقال :
ويحترز به عن الخطأ في تطبيق الكلام لمقتضى الحان ، من تأدية تمام المراد على وفق ما يقتضيها من وضوح الدلالة أو خفائها ، ومن تزيين

(٤) الصبغ البديعي ٥٠٥ .

(٥) انظر مفتاح العلوم ٤٢٩ ، ١٩٩ ، ٢٧٦ .

(٦) انظر الصبغ البديعي ٥٠٦ .

العبارة بما يورث مزيد قبولها واستجلائها (٧) . . . فجعل محسنات
العبارة شريكا مع مباحث عامي البيان والمعاني في تأدية تمام المراد على
وفق ما يقتضيه الحال .

٢ — جعل محسنات الكلام علما مستقلا له شأنه ومكانته هو علم
البديع ، فأصبحت البلاغة على يديه تتكون من ثلاثة علوم : المعاني
والبيان والبديع بعد أن كانت علمين عند السكاكي يعقبهما وجوه
تحسين الكلام .

٣ — جعل الفصاحة متوقفة على أمرين :

أحدهما : الافهام والتعيين باللفظ المختار ، والآخر : تزيين الكلام
بايداع ما يورثه القبول من وجوه التحسين . ووجوه التحسين هذه
تقسم الى قسمين :

الأول : ما يرجع الى الفصاحة اللفظية وذكر فيه أربعة وعشرين
وجها منها : التجنيس — والتشجيع — والمطابقة — والمقابلة —
والمشاكلة — والمزاوجة — والتوشيح .

والثاني : ما يرجع الى الفصاحة المعنوية ، ووجوه هذا القسم على
نوعين : وجوه مختصة بالافهام التبيين ، وذكر منها تسعة عشر وجها
منها : حسن البيان — والايضاح — والتقسيم — والتتميم —
والاحتراس — والتذييل — والاعتراض — والتجريد — والتكرار —
والتعليل . ووجوه مختصة بالتزيين والتحسين وعددها خمسة عشر
وجها منها اللف والنشر — والتفريق — والجمع — والتورية —
والائتلاف (٨) .

(٧) المصباح ٢ .
(٨) المصباح ٤ ، ١٦١ .

فنراه جعل فائدة بعض ألوان البديع الأفهام والتبيين ، وهذا
أساس بلاغة الكلام ، والمهدف المراد منه ، وما يحقق الأفهام والتبيين
لا يمكن أن يعتبر شيئاً عرضياً أو ثانياً في الأسلوب . كما أدخل صوراً
كثيرة من الألفاظ في علم البديع . وقد سبق له درس بعضها في علم
المعاني (٩) .

والمقائل في فنون البديع يرى أن بعضها لا يزيد عن كونه حلية
شكلية وتلاعباً لفظياً ، وهذه الفنون ينبغي طرحها وعدم الاعتداد بها ،
ويرى أن كثيراً من فنون البديع له أثر جليل في الأسلوب شكلياً
ومضموناً ، كالغنون التي درسناها في كتابنا ، ونحوها مما ورد في كتب
البلاغيين ، وهذه الفنون التي لها قيمة ووزن في الكلام ، وتؤدي أغراضاً
لا توجد بدونها ، تعتبرها من جوهر البلاغة ولبها وصورها الأصيلة ،
ولا تقل قيمة عن التشبيه أو الاستعارة أو غيرها من الصور التي
جعلوها داخلة في حد البلاغة .

وهذا الرأي يؤيده ويؤكد عدة أمور :

١ — أن صور البديع التي درسناها وما يشبهها تفيد أغراضاً
وقيماً في التعبير لا يمكن اغفالها أو التقليل من قيمتها ، وقد فصلنا
القول في بلاغة كل لون من الألوان التي درسناها وبيننا أثره في الأسلوب
فلا داعي لتكرار ذلك هنا . وإذا كان التشبيه يفيد بيان حال المشبه أو
بيان مقدار حاله ، أو تمييزه أو بيان إمكانه وغير ذلك ففي الألوان
البديعية ما يفيد التوضيح والتفصيل ، ومنها ما يفيد بيان الامكان
والمبالغة ، ومنها ما يحقق التناسب والتلاؤم وتلاحم الأجزاء وهذا
ما لا يستغنى عنه الكلام البليغ ، لذا لا يصح وصف فن بديعي
بالعرضية في أسلوب أضاف إليه خصوصية ، وأدى فيه غرضاً
من الأغراض .

٢ — بعض صور البديع تدخل في علم المعاني ، أو علم البيان ، وقد درسها بعض العلماء في مواطنها من هذين العلمين • من ذلك الالتفات — والتذييل — والتتميم — والتكميل — والايضاح بعد الابهام — والتهكم — وحسن التعلين — والتجريد ، وهذه الصور تدخل في تعريف البلاغة عندما تدرس في أحد هذين العلمين ، فكيف لا تدخل في حد البلاغة اذا درست في علم البديع؟! هذا أمر يثير العجب ، ونظرة بعيدة عن الصواب لجأ اليها أنصار عرضية البديع عندما وجدوا بعض ألوانه تدرس في علم المعاني أو علم البيان ، فقالوا عن الالتفات : انه من حيث اشتماله على نكتة (١٠) هي خاصية التركيب من علم المعاني ، ومن حيث انه ايراد المعنى الواحد في طرق مختلفة في الوضوح والخفاء من علم البيان ، ومن حيث انه يحسن الكلام ويزينه من علم البديع (١١) •

فصنفوا الفن الواحد في العلوم الثلاثة باعتبارات مختلفة ، وهو عندما يكون من المعاني أو البيان يعدونه من صميم البلاغة ، وعندما يكون من البديع يعتبرونه حلية وعرضا ، وهذه تفرقة لا تصح ، فما دام اللون البلاغي قد جاء في موطنه مستوفيا شروط القبول فمن انعبث أن نصفه في كلام واحد بأنه من صميم البلاغة ثم نعود ونصفه بأنه محسن ومزين عرضي بناء على اعتبارات لم يلتفت اليها المتكلم •

علما بأن المتكلم عندما يستعمل اسلوب الالتفات أو غيره من الاساليب البلاغية فانه يستدعى ما فيها من أسرار صالحة للمقام ، يستوى في ذلك ما كان منها راجعا الى المعاني أو البيان أو البديع •

٣ — وردت فنون البديع في الأدب الجاهلي والاسلامي شعره

(١٠) نحو بعث المتلقى على مزيد الاصغاء والميل الى الكلام ، اذا كان المقام يستدعى ذلك .
(١١) حاشية السيد الشريف على المطول ١٣٠ ، وانظر مواهب الفتاح ١/٤٦٤ .

ونثره ، واستخدمها العرب الخالص في التعبير عن أغراضهم كغيرها من طرق التعبير بطريقة فطرية لا تستند الى نواعد ، فجاء في أساليبهم التشبيه والقصر والاستعارة بجوار الطباق والسجع والجناس دون فرق فالحكم على الأساليب الأولى بالذاتية والأخرى بالعرضية حكم غير صحيح ، لان جميعها عند الناطقين بها من طرق التعبير التي يؤديون بها معانيهم ، ويختارون منها لكل معنى ما يناسبه ، وما يؤديه على الوجه الأكمل ، في ضوء الأحوال والمقامات .

٤ — يشتمل القرآن الكريم على قدر كبير من فنون البديع ، وقد جاءت فيه على نهجه المعجز ، لا تختلف في سمو بلاغتها عن بقية الأساليب والصور القرآنية ، والحكم على فنون البديع بالعرضية يعني اشتمال النظم القرآني ، على حلى عرضية ، وهذا اتهام تدخضه البلاغة القرآنية العالية التي أعجزت الانس والجن ، ولا يستساغ القول بعرضية هذه الفنون في النتاج الأدبي ، وذاتيتها في النظم القرآني .

٥ — سلك الشيخ عبد القاهر المزوجة — والتقسيم — والتشبيه المتعدد في سلك واحد حين جعلهما من النظم العالي الذي يتمد في الوضع ويدق فيه الصنع (١٢) ، فهو لا يفرق في النظم بين أون بديعي ولون بياني طالما أن كلا منهما يزيد من حسن النظم ويرفع من شأنه ويعلى من قيمته .

وتوسع فخر الدين الرازي في هذا فسلك في النظم العالي الذي تلتحم أجزاءه ويشتمد ارتباطها أبوابا كثيرة من البديع وبعض أبواب المعاني والبيان كالاقتراض — والالتفات — والتاميح (١٣) .

(١٢) انظر دلائل الاعجاز ٩٣ — ٩٦ .

(١٣) انظر نهاية الاعجاز ٢٦٥ — ٢٦٦ .

فالفن ابلاغى عند الشيخين يقدر بأثره فى النظم ، وبالقيمة التى يحققها فيه ، وليس عندهما محسن ذاتى وآخر عرضى ، وهذا هو المقياس الصحيح الذى ينبغى تطبيقه فى الحكم على الفنون البلاغية •

٦ - لا يصح الحكم على الفنون البديعية احتجاجا بما لها من أثر شكلى فى الأسلوب ، لأن وراء هذا الأثر الشكلى أغراضا معنوية هى المقدمة فى الحكم عليها بالحسن ، وقد أكد الشيخ عبد القاهر على أن الحسن فى هذه الفنون راجع الى المعنى أولا ، وضرب أمثلة بالطباق والتجنيس وانسجع بين فيها أن حسنهما راجع الى ما لهما من آثار معنوية ، وأن الحكم عليها ينبغى أن يكون من خلال المعنى (١٤) ، وقد فصلنا القول فى ذلك عندما تحدثنا عن بلاغة هذه الألوان ، وذكرنا كلام الشيخ فى هذا •

كما أن السكاكى بعد أن فرغ من الحديث عن المحسنات اللفظية خشى من أن يظن أن الحسن فيها راجع الى اللفظ فبين أن المعنى فيها هو أصل الحسن بقوله : واصل الحسن فى جميع ذلك أن تكون الألفاظ توابع للمعنى لا أن تكون المعنى لها توابع ، أعنى ألا تكون متكلفة (١٥) •

ومما يحمد للخطيب أنه ذكر مثل هذا فى ختام حديثه عن المحسنات اللفظية ، وأرجع الكلام الى مصدره وهو الشيخ عبد القاهر ، ونبه على ما يقع فيه بعض المتأخرين من شغف بالبديع حتى تستغلق معانيه على الأفهام ، ودعا الى إهمال بعض فنون البديع التى لا أثر لها فى التحسين ، أو اختلطت بغيرها من الصور البلاغية (١٦) •

(١٤) انظر أسرار البلاغة ٤ - ١٤ •

(١٥) مفتاح العلوم ٤٣٢ •

(١٦) الأيضاح ١٩٧/٦ ، ١٩٨ •

٧ — عرف المتقدمون البلاغة بأنها : ايصال المعنى الى القلب في أحسن صورة في اللفظ ، فاشتروا في الكلام البليغ حسن اللفظ وجمال الصورة بجانب ايصال المعنى الى قلب السامع • وجعل الرمانى البلاغة عشرة أقسام : الأيجاز — والتشبيه — والاستعارة — والتلاؤم — والفواصل — والتجانس — والتصريف — والتضمين — والمبالغة — وحسن البيان • وهذه الأقسام منها ما يدخل في علم البيان ومنها ما يدخل في علم البديع عند المتأخرين ، ومقاييس المتقدمين أصل في هذا ينبغي الاعتماد عليه وعدم التفريط فيه •

٨ — مضى بعض أعلام المتأخرين على جعل البديع أصلاً من أصول البلاغة يقف على قدم المساواة مع أخويه المعانى والبيان • من هؤلاء شرف الدين الطيبي (ت ٧٤٣ هـ) فقد جعل مرجع البلاغة الى الاحتراز عن الخطأ في قوانين التراكيب ، وفي طرق دلالتها ، وفي التحسين ، وما يحترز به عن الأول علم المعانى ، وعن الثانى علم البيان ، وعن الثالث علم البديع (١٧) •

وعلى نهجه مضى أبو جعفر الغرناطى (ت ٧٧٩ هـ) في مقدمة شرحه بديعية ابن جابر الأندلسى في كتابه « طراز الحلة وشفاء الغلة » حيث عرف البلاغة بأنها : بلوغ المتكلم في تأدية المقصود الغاية من رعاية حسن اللفظ ، وتوفية المعنى بحسب اقتضاء المقام ، وجعلها راجعة الى ثلاثة أشياء : ما يحترز به عن الخطأ في خواص التراكيب وهو علم المعانى وفي طرق دلالتها وهو علم البيان ، وفي وجوه تحسينها وهو علم البديع ، فالبلاغة لا تحصل الا لمن استكمل العاوم الثلاثة (١٨) •

ومن هذا نرى أنهما جعلوا البلاغة متوقفة على مراعاة أصول العلوم

(١٧) التبيين ٤٧ •

(١٨) الأصبع البديعى ٥٠٧ ، ٥٠٨ •

الثلاثة دون فرق بينها في الأهمية ، وهذه هي النظرة الصائبة التي يجب أن تسود الفكر البلاغي •

وبناء على ما سبق نرى أن فنون البديع اذا جاءت غير متكلفة وكان لها أثر في الاسلوب يقتضيه المقام فانها تكون محسنا ذاتيا ولا فرق بينها وبين الصور البلاغية الأخرى التي تدخل في علمي المعاني والبيان •

وتعريف الخطيب للبلاغة يمكن أن يشمل هذه الفنون ، فالبلاغة عنده : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ، والتوسع في مفهوم الحال يجعل التعريف منطبقا على فنون البديع ، فاذا اقتضى الحال طباقا أو تقسيما أو مزاجا أو غير ذلك كان الكلام المشتمل عليها مطابقا لمقتضى الحال ، وخلوه منها يجعله غير مطابق ، فيكون في الأول بليغا وفي الثاني على خلافه (١٩) •

وبهذا نصل الى نهاية ما قصدناه داعين الله عز وجل أن يجعل عملنا خالصا مقبولا • وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين •

المراجع

- ١ — الاتقان في علوم القرآن — السيوطي •
- ٢ — أسرار البلاغة — عبد القاهر الجرجاني • ت رشيد رضا •
- ٣ — الاشارات والتنبيهات — محمد الجرجاني • ت د • عبد القادر حسين •
- ٤ — الأطول — العصام •
- ٥ — الاعجاز البلاغي — د • محمد أبو موسى •
- ٦ — اعجاز القرآن — الباقلاني • ت السيد صقر •
- ٧ — الأقصى القريب — التتوخي •
- ٨ — الانتصاف على الكشاف — ابن المنير •
- ٩ — الايضاح — الخطيب القزويني • ت د • محمد خفاجي •
- ١٠ — بديع القرآن — ابن أبي الاصبغ — ت د • حفنى شرف •
- ١١ — البديع — ابن المعتز • ت كراتشكوفسكى •
- ١٢ — البديع في نقد الشعر — أسامة بن منقذ • ت د • أحمد بدوى و د • حامد عبد المجيد •
- ١٣ — البديع في ضوء أساليب القرآن — د • عبد الفتاح لاشين •
- ١٤ — البديع من المعانى والألفاظ — د • عبد العظيم المطعنى •
- ١٥ — البرهان في علوم القرآن — الزركشى • ت أبو الفضل •
- ١٦ — بغية الايضاح — عبد المتعال الصعدي •
- ١٧ — ابلاغة القرآنية — د • محمد أبو موسى •
- ١٨ — ابن أبي الاصبغ المصرى — د • حفنى شرف •
- ١٩ — البيان والتنبيه — الجاحظ • ت عبد السلام هارون •

- ٢٠ — تأويل مشكل القرآن — ابن قتيبة • ت السيد صقر •
٢١ — التبيان في علم المعاني والبديع والبيان — الطيبي • ت هادي عطية •
٢٢ — تحرير التحرير — ابن أبي الاصبغ — ت د • حفنى شرف •
٢٣ — التحرير والتنوير — الطاهر بن عاشور •
٢٤ — جنان الجناس — الصفدى •
٢٥ — جوهر الكنز — نجم الدين الحلبي — ت د • محمد زغلول سلام •
٢٦ — حاشية الدسوقي على المختصر — محمد الدسوقي •
٣٧ — سر الفصاحة — ابن سنان الخفاجي • ت الصعيدى •
٢٨ — حاشية الشهاب على البيضاوى — الشهاب الخفاجي •
٢٩ — حاشية عبد الحكيم على المطول — عبد الحكيم السياالكوتى •
٣٠ — حدائق السحر في دقائق الشعر — رشيد الدين العمري •
٣١ — خزانة الأدب — ابن حجة الحموى • ت عصام شعيتو •
٣٢ — الخواطر السوانح في أسرار الفواتح — ابن أبي الاصبغ •
ت د • حفنى شرف •
٣٣ — دراسات بلاغية — د • صباح عبيد دراز •
٣٤ — دلائل الاعجاز — عبد القاهر الجرجاني • ت محمود شاکر •
٣٥ — ديوان حسان — ت وشرح البرقوقى •
٣٦ — ديوان المتنبي — شرح البرقوقى •
٣٧ — سر الفصاحة — ابن سنان الخفاجي • ت الصعيدى •
٣٨ — شرح عقود الجمان — السيوطى والمرشدى •
٣٩ — شرح مقامات الحريري — الشريشى •
٤٠ — الصبغ البديعى في اللغة العربية — د • أحمد موسى •
٤١ — الصناعتين — أبو هلال العسكري •

- ٤٢ — الصور البديعية بين النظرية والتطبيق — د. حفنى شرف *
- ٤٣ — الطراز — العلوى *
- ٤٤ — عروس الأفراح — السبكى *
- ٤٥ — العمدة — ابن رثيق * محمد محيى الدين *
- ٤٦ — علوم البلاغة — أحمد المراعى *
- ٤٧ — عيار الشعر — ابن طباطبا * ت د. عبد العزيز المانع *
- ٤٨ — فض الختام عن التورية والاستخدام — الصفدى *
ت د. المحمدى الحناوى *
- ٤٩ — فن البديع — د. محمد حسن حجازى *
- ٥٠ — قدامة والنقد الأدبى — د. بدوى طبانة *
- ٥١ — قواعد الشعر — ثعلب * ت د. محمد خفاجى *
- ٥٢ — الكامل — المبرد *
- ٥٣ — الكشاف — الزمخشري *
- ٥٤ — لسان العرب — ابن منظور *
- ٥٥ — المختصر — سعد الدين التفتازانى *
- ٥٦ — المثل السائر — ابن الأثير *
- ٥٧ — المصباح فى المعانى والبيان والبديع — بدر الدين بن مالك *
ت د. حسنى عبد الجليل *
- ٥٨ — المطول — سعد الدين التفتازانى *
- ٥٩ — معاهد التنصيص — العباسى * ت محيى الدين *
- ٦٠ — معترك الأقران — السيوطى * ت البجاوى *
- ٦١ — معجم ألفاظ القرآن الكريم — مجمع اللغة العربية *
- ٦٢ — مفتاح العلوم — السكاكى * ت زررور *
- ٦٣ — منهاج البلغاء — حازم القرطاجنى * ت ابن الخوجة *

- ٦٤ — الموازنة — الآمدى • ت السيد صقر •
- ٦٥ — مواهب الفتاح — ابن يعقوب •
- ٦٦ — المواهب الفتحية — حمزة فتح الله •
- ٦٧ — الموشح — المرزبانى •
- ٦٨ — نظرات فى البلاغة والاسناد — د • محمد عبد الرحمن الكردى •
- ٦٩ — نظرات فى البيان — د • محمد عبد الرحمن الكردى •
- ٧٠ — نقد الشعر — قدامة بن جعفر • ت د • خفاجى •
- ٧١ — نقد النثر — تقديم طه حسين و ت العبادى •
- ٧٢ — النكت فى اعجاز القرآن • الرمانى •
- ٧٣ — نهاية الايجاز فى دراية الاعجاز — الرازى • ت بكرى
شيخ أمين •
- ٧٤ — الوساطة بين المتنبي وخصومه — القاضى الجرجانى •
ت أبو الفضل والبجاوى •
- ٧٥ — يتيمة الدهر — الثعالبى • ت محيى الدين •

محتويات الكتاب

مقدمة : ٣ — ٥ •

تمهيد : البديع نشأته وتطوره : ٧ — ٢٩ •

الفصل لأول : فنون التناسب : ٣١ — ١٢٥ •

الطباق : ٣٣ — بلاغته : ٥٠ — المقابلة : ٥٣ — بلاغتها : ٦٤ — مراعاة
الفظير : ٦٩ — بلاغتها : ٨٤ — الارصاد أو التسهيم : ٩١ — بلاغته :
٩٣ — المزاوجة : ٩٧ — بلاغتها : ٩٩ — السجع : ١٠١ — الفواصل
القرآنية : ١٠٨ — بلاغة السجع : ١١٠ — مواضع التأنيق : ١١٤ —
حسن الابتداء : ١١٤ — فواتح السور : ١١٨ — حسن التخلص : ١١٩ —
حسن الانتهاء : ١٢٣ — خواتم السور : ١٢٥ •

الفصل الثاني : فنون التخيل والايهام : ١٢٧ — ٢٢٠ •

التورية : ١٢٨ — بلاغتها : ١٣٧ — المشاكلة : ١٤١ — بلاغتها : ١٤٩ —
حسن التعليل : ١٥٠ — بلاغته : ١٦٠ — التجريد : ١٦٤ — بلاغته :
١٧٩ — تأكيد المدح بما يشبه الذم : ١٨٤ — تأكيد الذم بما يشبه المدح :
١٩١ — بلاغة هذين اللونين : ١٩٤ — الجناس : ١٩٧ — الجناس التام :
١٩٧ — الجناس غير التام : ٢٠٣ — ألوان من الجناس : ٢١٣ — بلاغة
الجناس : ٢١٦ •

الفصل الثالث : فنون الاجمال والتفصيل : ٢٢١ — ٢٥٦ •

اللف والنشر : ٢٢٢ — بلاغته : ٢٢٨ — الجمع : ٢٣١ — بلاغته : ٢٣٣ —
التفريق : ٢٣٥ — بلاغته : ٢٣٨ — التقسيم : ٢٣٩ — بلاغته : ٢٤٤ —
الجمع مع التفريق : ٢٤٨ — الجمع مع التقسيم : ٢٥١ — الجمع مع
التفريق والتقسيم : ٢٥٤ — بلاغة الفنون المزدوجة : ٢٥٥ •

الخاتمة : مكانة البديع بين علوم البلاغة : ٢٥٧ — ٢٦٦ •

المراجع : ٢٦٧ •

الفهرس : ٢٧١ •

للمؤلف

الكتب :

- ١ — مع النظم القرآني في سورة النور • توزيع دار المعارف •
- ٢ — اببحث البلاغي في ظلال القرآن الكريم • توزيع دار المعارف •
- ٣ — المعركة النقدية بين ابن وكيع والمتنبى • توزيع دار المعارف •
- ٤ — خصائص النظم القرآني في قصة ابراهيم عليه السلام • مكتبة وهبة •
- ٥ — بحوث في البلاغة والنقد • مكتبة وهبة •
- ٦ — مقاييس البلاغيين في فصاحة الكلمة • مكتبة وهبة •
- ٧ — دراسات منهجية في علم البديع •

البحوث :

- ١ — الأمر عن طريق الاستفهام • مواقعه وأسرارها في القرآن الكريم مجلة الأزهر •
- ٢ — ابن المعتز وكتابه « البديع » • مجلة كلية اللغة العربية بدمنهور •
- ٣ — اللفظ القرآني ومقاييس الفصاحة • مجلة كلية اللغة العربية بدمنهور •
- ٤ — التقديم والتأخير بين عبد القاهر والمتأخرين • مجلة كلية اللغة العربية بدمنهور •

تحت الطبع :

- ١ — ابن طباطبا العلوي وجهوده البلاغية والنقدية • رسالة ماجستير •
- ٢ — البلاغة القرآنية في تفسير أبي السعود • رسالة دكتوراه •

رقم الايداع : ٢٨٤٠ / ١٩٩٤

